

Herlock Holmes
شيرلوك هولمز
آرثر كونان دويل
ARTHUR CONAN DOYLE
مذكرات شيرلوك هولمز
عصير الكتب

مذكرات شيرلوك هولمز





إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

العنوان: مذكرات شيرلوك هولمز
ترجمة: يوسف ربيع _ إيناس سمير
تحرير: محمد الجيزاوي
تدقيق لغوي: مهند ماهر جندية

الطبعة الأولى: مايو 2021م
رقم الإيداع: 2021/7949م
الترقيم الدولي: 978-977-85878-0-7
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار





مذكرات شيرلوك هولمز



مغامرة ذي الغرة البيضاء

بينما كنا نجلس ذات صباح إلى طاولة الإفطار إذ بهولمز يقول لي:

– أخشى أن أخبرك يا واتسون أن عليَّ الذهاب.

– تذهب إلى أين؟

– إلى دارتمور، حظائر كنجز بيلاند بالتحديد.

لم يفاجئني رده، في الحقيقة كان التساؤل الوحيد في خاطري؛ لماذا لم يتورط في هذه القضية غير العادية التي كانت حديث إنجلترا من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها؟ طوال اليوم ظل رفيقي هائمًا في أرجاء الغرفة راكزًا ذقنه في صدره وعاقدًا حاجبيه، يُفرِّغ ويعبئ غليونه بأقوى أنواع التبغ، يصم أذنه عن أي أسئلة أو تعليقات أطرحها. نسخة من آخر إصدار لكل صحيفة كانت تصل إلينا فور طباعتها مع بائع الجرائد، فقط ليلقي عليها نظرة سريعة ثم يرميها إلى أي ركن من أركان الغرفة.

وعلى الرغم من صمته، كنت أعرف يقينًا ما كان يشغله، لم يكن هناك سوى قضية واحدة يتناولها الناس تلك الأيام قادرة على تحدي قدراته التحليلية، قضية الاختفاء المريب للمرشح الأول للفوز بكأس ويسيكس والقتل المريع لمُروِّضه.

عندما أخبرني أخيرًا بعد وقت طويل بِنيَّته في الذهاب إلى مسرح الأحداث كان هذا هو الأمر الوحيد القادر على تحقيق توقعاتي وتمنياتي في آن واحد.

قلت له عندما أعلمني برغبته:

– سأكون أسعد ما أكون بانضمامي إليك في رحلتك إن لم يكن وجودي معك يعوقك.

– واتسون، يا عزيزي، سيكون قدومك خدمة جليلة منك إذا كان باستطاعتك أن تأتي، ودعني أقُل لك إني أعرف أنك لن تهدر وقتك بهذه الرحلة، ففي هذه القضية بعض التفاصيل تبشر بأنها ستكون قضية فذة للغاية. أظن أن لدينا بعض الوقت لنلحق بقطارنا في بَدنجتون، وسأتعمق معك في القضية في أثناء رحلتنا.

– سأكون مدينًا لك إذا أحضرت منظارك الممتاز معك.

حدث بالفعل ما رتَّبنا له، وبعد نحو ساعة من تلك المحادثة كنت أجلس في ركنٍ من أركان إحدى عربات الدرجة الأولى في طريقنا إلى اكستر، في حين كان شيرلوك هولمز غارقًا بوجهه المتحمس في كومة الجرائد الجديدة التي كان قد اشتراها من محطة القطار قبل انطلاقنا. كنا قد تجاوزنا محطة ريدنج منذ مدة عندما دفع شيرلوك بآخر جريدة في يده تحت المقعد ومد يده إلى علبة السيجار خاصته.

– نحن نتقدم بسرعة جيدة.

قال لي شيرلوك وهو يثبت نظره خارج النافذة في حين كان يلقي نظرات إلى ساعة يده:

– نتحرك الآن بسرعة ثلاثة وخمسين ميلًا وربعًا في الساعة تقريبًا.

فرددت قائلًا:

– أنا لم أرَ علامة الربع ميل بعد.

– ولا أنا، لكن أعمدة التلجراف على هذا الخط تبعد عن بعضها ستين ياردة، والحسابات بعد ذلك بسيطة، أظن أنك قد اطلعت على هذه القضية من قتل واختفاء سيلفر بليز؟[1]

– قرأت ما كُتب عنها في جريدتَي تلجراف وكرونكل.

– إنها واحدة من تلك القضايا التي يجب فيها على المتحري أن يستثمر جهده في فرز الدقائق والتفاصيل، بدلًا من أن يدفع جهده في البحث عن أدلة جديدة. هذه الحادثة فاجعة، وغريبة جدًّا، ومهمةٌ أيضًا على مستوى شخصي للعديد من الناس، لدرجة أننا نعاني فيضًا من التخمينات والنظريات. الصعوبة هنا أن تفصل مجموعة الحقائق –الحقائق المطلقة التي لا شك فيها– عن تهاويل أصحاب النظريات والمحررين. ثم بعد أن نستقر على هذه الأسس السليمة فواجبنا أن ننطلق من هناك لنرى ما الاستنتاجات التي يمكن الوصول إليها وما النقاط المحورية في هذا اللغز. مساء الثلاثاء، تلقيت تلجرافين أحدهما من الكولونيل روس –مالك الحصان– والآخر من المحقق جورجي المسؤول عن القضية، كلاهما يطلب تعاوني.

– مساء الثلاثاء؟!

تساءلت متعجبًا:

– نحن الآن صباح الخميس، لماذا لم تذهب إلى هناك أمس؟

– لأنني أخطأت خطأً فادحًا يا عزيزي واتسون، ويؤسفني أن أقول إنه خطأٌ أرتكبه أكثر مما قد يظن أي شخص يعرفني فقط من القراءة عني في مذكراتك. الحقيقة أنني لم أستطع أن أصدق أنه من الممكن أن يختفي الحصان الأشهر والأكثر استثنائية في إنجلترا وقتًا طويلًا، وخصوصًا في مكان قليل السكان مثل شمال دارتمور. ظللتُ طوال يوم أمس، وطوال اليوم، أنتظر خبر إلقاء القبض على مُختطِف الحصان، وأن يتضح أن مختطفه هو قاتل مُروِّضه جون ستراكر. لكن عندما هلَّ يوم جديد ووجدت أنهم لم يفعلوا أكثر من أن ألقوا القبض على فرتسوي سيمسون، شعرت أن الوقت قد حان لكي أتدخل. لكن بشكل ما لا أشعر أن أمس كان يومًا مهدرًا.

– لديك نظرية الآن إذن؟

– على الأقل عرفت الحقائق الأساسية في القضية بوضوح ولا يعتريني أي شك، سأسردها كلها لك، فلا شيء يوضح قضيةً مثلَ سردها لشخص آخر، إضافة إلى أنني لا يمكنني أبدًا انتظار مساعدتك إذا لم أخبرك من أين نبدأ التفكير في هذه القضية.

ألصقتُ ظهري إلى مسند المقعد الخلفي، وأخذت أنفِّخ سيجارتي، في حين مال هولمز بجذعه متقدمًا نحوي، وأخذ يعدد النقاط ويحرك سبابته الحادة الطويلة على كف يده اليسرى، كأنه يضع علامة على كل نقطة، وبانتهائه من السرد كان قد أعطاني صورة كاملة عن الأحداث التي أفضت إلى رحلتنا.

– سيلفر بليز من سلالة السومومي، وسجله من البطولات يضاهي سجل أجداده لمعانًا ونجاحًا. إنه الآن في سنته الخامسة، وقد جلب للكولونيل روس –مالكه المحظوظ– في هذه السنين الخمس جوائز كل سباقات الخيل الممكنة. حتى ساعة وقوع تلك الكارثة كان هو المرشح الأول للفوز بكأس ويسيكس بثلاثة إلى واحد لصالحه. لطالما كان المرشح الأساسي والحصان المفضل لدى الجمهور الإنجليزي، ولم

يخيب آمالهم ولو لمرة حتى الآن، لذلك.. وعلى الرغم من هذه النسبة غير الحتمية، فإن مبالغ هائلة من المال تراهن على فوزه، هذا كله يوضح لماذا لدى الكثير من الناس أقوى الدوافع لمنع هذا الحصان من أن يكون على مضمار السباق عند راية البداية الثلاثاء القادم.

هذا بالطبع كان مقدرًا في كينجز بيلاند، حيث توجد حظائر الكولونيل روس، وكانت كل الاحتياطات الممكنة مأخوذة في الاعتبار. جون ستراكر، مروض الحصان، خيّالٌ متقاعد، امتطى العديد من خيول الكولونيل، حتى منعه تثاقل وزنه على ظهر الخيول، لقد عمل في خدمة الكولونيل خمس سنوات خيّالًا، وسبعًا أخرى مُروِّضًا لأحصنته، ولم يُظهِر في هذه السنين كلها إلا كامل الحماس والأمانة للكولونيل ولعمله في خدمته. يعمل معه ثلاثة فتيان، فأملاك الكولونيل ليست كبيرة إلى ذلك الحد، عنده فقط أربعة خيول. واحد من هؤلاء الفتيان يجلس كل ليلة في الحظيرة في حين ينام الآخران في الدور العلوي، وكل من الفتيان الثلاثة على خُلُق، وسمعتهم لا غبار عليها.

أما جون ستراكر فهو متزوج ويعيش في فيلا صغيرة على بعد مئتي ياردة تقريبًا من الحظائر، ليس له أولاد، ويعيش هناك مع زوجته وخادمته فقط في حياة مريحة.

الأجواء موحشة جدًّا في تلك الأرياف، لكن على بعد نحو نصف ميل شمال الحظائر توجد مجموعة صغيرة من الفِلل، بناها مقاول من تافستوك لينزل بها المرضى أو من يريد أن يستمتع بهواء دراتمور النقي. تافستوك نفسها تقع على بعد ميلين فقط غربًا، في حين توجد حظيرة تدريب أكبر في مابلتون على بعد ميلين عبر المسطحات العشبية الواسعة هناك. حظيرة مابلتون تلك يملكها اللورد باكووتر ويديرها سايلاس براون. الأراضي حول الحظيرة خاوية في كل الاتجاهات الأخرى، وخالية من أي سكان آخرين، باستثناء بعض الغجر الرحالة.

هكذا كان الحال ليلة الاثنين الماضي، حين وقعت الكارثة، في تلك الليلة مُرِّنت الخيول وسُقِيَت كالعادة، وأُغلِقت الحظائر في تمام التاسعة، واتجه اثنان من الفتيان إلى منزل المُروِّض حيث تناولا عشاءهما في المطبخ. أما الثالث، نيد هنتر، فظل في الحظيرة للحراسة، وبعد دقائق من تمام التاسعة حملت الخادمة إيدث باكستر العشاء للفتى في الحظيرة، كان العشاء طبقًا من لحم الضأن بالكاري ولم تأخذ معها ما يُشرب، فهناك صنبور مياه في الحظيرة، وهو الشيء الوحيد المسموح للفتى الموجود في الخدمة بشربه. كانت الخادمة تحمل مصباحًا معها لأن الجو كان حالك الظلام، وطريقها للحظيرة يقطع منطقة موحشة من السهول المفتوحة.

كانت إيدث باكستر على بُعد ثلاثين ياردة من الحظيرة عندما ظهر رجل من هذا الظلام، وأمرها أن تقف وهو يدخل في دائرة الضوء التي يلقيها المصباح حولها، رأت عليه هِندام النبلاء، حيث كان يرتدي بدلة رمادية من التويد، وقبعة من القماش، وينتعل في قدميه حذاءً ذا عنق طويل، ويحمل عصا ثقيلة ذات مقبض.

تعجبت الخادمة جدًّا لشحوب وجهه والتوتر الظاهر في حركاته، كان يبدو لها من مظهره أن عمره يفوق الثلاثين.

سألها قائلًا:

– هل يمكنكِ أن تقولي لي أين أنا؟ لقد كنتُ على وشك أن أنام في العراء عندما رأيت ضوء مصباحك.

قالت له:

– أنت بالقرب من حظائر كنجز بيلاند.

فصرخ قائلًا:

– آه! حقًّا؟! يا لها من ضربة حظ! أنا أعرف أن فتى الحظيرة ينام هناك كل ليلة، وربما هذا عشاؤه الذي تحملينه في يدك، ولا أظن أن كبرياءك تمنعك أن تحصلي على ثمن فستان جديد، أليس كذلك؟

وأخرج قطعة ورقية بيضاء مطوية من جيب صدريته، ثم أكمل قائلًا:

– فقط تأكدي أن الفتى أخذ هذه الورقة الليلة، ولكِ أجمل فستان يمكن أن يُشترى بالمال.

فزعت من طريقة الرجل الجادة وأسلوبه في العرض، فتجاوزته بسرعة لتصل إلى نافذة الحظيرة التي اعتادت أن تُسلِّم الطعام من خلالها، وجدتها مفتوحة وهنتر جالس على الطاولة بالداخل، وكانت قد بدأت بالفعل في إخباره بما حدث عندما جاء الرجل الغريب مجددًا.

قال الرجل طالًّا برأسه من النافذة:

– مساء الخير، أريد أن أتحدث إليكَ قليلًا.

وأقسمت الفتاة أنها رأت طرف الورقة الصغيرة يظهر من يده المقبوضة في أثناء كلامه.

سأله الفتى:

– ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فرد عليه الرجل:

– يمكن لذلك الذي جاء بي أن يضع بعض النقود في جيبك، لديك حصانان هنا مشتركان في كأس ويسكس: سيلفر بليز وبيارد. أعطني فقط معلومة صغيرة ولن تخرج من هذا الأمر خاسرًا. هل صحيح أن بيارد يمكنه أن يسبق بليز عند السباق بأوزان بمئة ياردة في ثُمن ميل، وأن جميع من في الحظيرة يراهن بماله عليه؟

عندها صرخ فيه الفتى قائلًا:

– أنت واحد من أولئك المتجسسين المتربحين إذن؟! سنريك ماذا نفعل بأمثالك في كنجز بيلاند.

وقف من مكانه وسار عبر الحظيرة ليطلق الكلب، هربت الفتاة مسرعة إلى المنزل، ولكن عندما نظرت وراءها رأت ذلك الرجل ما زال يميل داخل الحظيرة عبرَ النافذة، بعد دقيقة واحدة عندما خرج هنتر بالكلب كان قد رحل، وعلى الرغم من أن هنتر بحث في جميع الأنحاء حول المباني، فإنه لم يجد له أي أثر.

عندها بادرت بسؤال هولمز:

– لحظة واحدة! هل أغلق الفتى الباب خلفه عندما خرج بالكلب ودار حول المباني؟

قال رفيقي بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:

– ممتاز يا واتسون، ممتاز!

ثم أكمل حديثه قائلًا:

– من شدة أهمية هذه النقطة أرسلتُ أمس برقية لأستعلم عن الأمر، وقد اتضح أن الفتى أغلق الباب وراءه، أضف إلى ذلك أن النافذة لم تكن كبيرة كفاية لتسمح بمرور رجل منها.

انتظر هنتر حتى عاد زملاؤه الآخرون قبل أن يبعث برسالة إلى المُروض ستراكر ليخبره بما حدث. اضطرب ستراكر عندما سمع هذا الأمر، رغم أنه من الواضح أنه لم يُقدِّر حجمه الحقيقي حينها، لكن تلقيه الخبر أقلقه على أي حال، ثم بحلول الساعة الواحدة صباحًا استيقظت زوجته لتجده يرتدي ملابسه، وعندما سألته عن سبب مغادرته، أجابها أنه لم يستطع النوم من قلقه على الأحصنة، وأنه ينوي الذهاب إلى الحظيرة ليرى بنفسه إذا كان كل شيء على ما يرام، توسلت إليه أن يبقى في المنزل لأنها كانت تسمع قطرات المطر تطرق نافذة الغرفة، ورغم استعطافها فإنه أخذ معطفه الواقي من المطر وانطلق.

استيقظت زوجة مستر ستراكر الساعة السابعة صباحًا لتجد أن زوجها لم يعُد بعدُ، فارتدت ملابسها بسرعة ونادت الخادمة وانطلقت معها إلى الحظيرة. عندما وصلتا كان باب الحظيرة مفتوحًا، وهنتر مكومًا على كرسي فاقدًا وعيَه تمامًا، ومربط الحصان المرشح للفوز خاليًا ولا أثر لمُروِّضه.

استيقظ الفتيان اللذان ناما في مخزن التبن فوق غرفة عدة الخيول بسرعة، ولم يكونا قد سمعا أي شيء خلال الليل لأن كليهما ينام بعمق. كان من الواضح أن هنتر تحت تأثير مخدر قوي للغاية، وبعد أن فشلت كل محاولات إيقاظه تركوه ليستيقظ من هذه الغيبوبة عندما يختفي أثر المخدر، وانطلق الفتيان والسيدتان للخارج للبحث عن المفقودين، كان لديهم أمل في ذلك الوقت أن يكون المروض قد أخذ الحصان لتمرين صباحي لسبب ما، ولكن عندما وصلوا إلى أعلى الربوة القريبة من المنزل التي تكشف السهول المحيطة كلها، لم يكن ما أفزعهم فقط أنهم لم يروا أي أثر للحصان المفقود، بل ما رأوه من أعلى التل وأنذرهم هو أنهم أمام مأساة.

على بُعد نحو ربع ميل كان معطف جون ستراكر يرفرف مُعلَّقًا بكومة من الشجر الشائك، وخلفها تمامًا كان هناك انحدار على هيئة حوض، وجدوا فيه جثة المروض المسكين. كان رأسه محطمًا بضربة عنيفة بسلاح ثقيل، وفخذه مجروحة جرحًا حادًّا جدًّا وطويلًا، صُنع بلا شكٍّ بأداة حادة للغاية، كما كان من الواضح أيضًا أنه قاوم المعتدي عليه بشراسة، فقد كان في يده اليمنى سكين صغيرة ملطخة بالدم حتى مقبضها، في حين كانت يده اليسرى قابضة بشدة على ربطة عنق من الحرير الأسود والأحمر، تذكرتها الخادمة عندما رأتها، لقد كانت في عنق الغريب الذي جاء لزيارة الحظيرة في الليلة السابقة، أكد ذلك أيضًا هنتر عندما أفاق من غيبوبته، كما كان متأكدًا أيضًا أنه دَسَّ له المخدر في عشائه عندما كان يطل له من شباك الحظيرة، وبذلك استطاع أن يتخلص من حارس الحظيرة.

أما بالنسبة إلى الحصان المفقود فتوجد الكثير من الأدلة في طين تلك الحفرة التي لقي فيها المروض مصرعه، تشير إلى وجوده في ذلك المكان وقت الصراع، لكن لم يرَه أحد منذ ذلك اليوم، مع أن جائزة كبيرة رُصدت لمن يعثر عليه، وكل غجر دارتمور متأهبون ويبحثون عنه بالفعل. وأخيرًا تحليل بقايا

العشاء الذي قُدم إلى الفتى أشار إلى أنه كان يحتوي على كمية ضخمة من الأفيون المطحون، في حين أكل الناس في المنزل من العشاء نفسه دون أي أثر سلبي.

هذه هي الحقائق الرئيسة في القضية منقحة من النظريات ومعروضة بأوضح طريقة ممكنة، وسألخص الآن جهود رجال الشرطة في الموضوع.

المفتش جريجوري، الذي أُسندت إليه القضية، ضابط كفء للغاية، ولولا عدم امتلاكه شيئًا من الخيال لكان قادرًا على تحقيق نتائج باهرة في مهنته. أول ما فعله عند وصوله كان اعتقال الرجل الذي تدور حوله بالطبيعة كل الشكوك، لم يكن إيجاده أمرًا صعبًا؛ فهو يسكن في واحدة من تلك الفلل التي ذكرتها من قبل. واتضح أن اسمه فرتزوري سمسون، وهو رجل ذو نسب وتعليم ممتازين، بدَّد ثروته على سباقات الخيل، ويعيش الآن من قيامه ببعض المراهنات بلباقة وبأقل لفت ممكن للأنظار في نوادي لندن. وبمراجعة سجل مراهناته اتضح أنه وضع مبلغ خمسة آلاف جنيه رهانًا ضد المصنف الأول المفقود. وبمجرد اعتقاله تطوع بإخبار الشرطة بمعلومة أنه نزل إلى دراتمور ليحصل على معلومات عن أحصنة كنجز بيلاند وعن ديسبرو أيضًا، المرشح الثاني للفوز بالكأس التي يرعاها سايلاس براون في حظائر مابلتون، ولم يحاول أن ينفي أنه تصرف بالطريقة الموصوفة في الليلة التي قبلها، لكنه صرَّح أنه لم تكن لديه نيّات سيئة، وأنه فقط أراد الحصول على معلومات مباشرة من المصدر، وعندما وُوجِه بربطة عنقه شحب وجهه للغاية ولم يستطع أن يفسر وجودها في يد القتيل. وقد دلَّت ملابسه المبللة على خروجه في أثناء العاصفة تلك الليلة، كما أن عصاه من نوع ثقيل مثقل بالرصاص؛ ما يجعلها سلاحًا مناسبًا لقتل المروض بالطريقة التي وُجد عليها، إذا ما ضُرِبَ بها عدة مرات. لكن في المقابل لم توجد أي آثار للجروح التي ألحقتها سكين ستراكر على جسده، ومن آثار الدماء على سكين ستراكر فلا بد أن واحدًا على الأقل من المعتدين يحمل آثار تلك السكين.

هذا يا واتسون ملخص كل ما دار حول هذه القضية، وسأكون ممتنًّا لك لأبعد مدى إذا استطعت إعطائي أي إرشادات.

استمعت بكل اهتمام لما عرضه هولمز عن القضية بوضوحه المميز المعتاد، وعلى الرغم من أن معظم الحقائق كانت مألوفة بالنسبة إليَّ، فإني لم أُقدِّر أهميتها النسبية ولا ارتباطها ببعضها. ثم شرعت أقترح عليه:

– أليس من الممكن أن يكون الجرح القاطع في جسد ستراكر قد نشأ بسكينه هو في أثناء التشنجات العنيفة التي تحدث بعد أي إصابة في الدماغ؟

فرد هولمز قائلًا:

– هذا أكثر من ممكن، إنه مرجح، وفي تلك الحالة تسقط نقطة من أهم النقاط في صالح المتهم.

– وبالرغم من ذلك ما زلت لا أفهم نظرية الشرطة.

فرد عليَّ صاحبي:

– أخشى أن يكون لكل النظريات التي يمكننا اقتراحها اعتراضات خطِرة، فالشرطة تتخيل –على ما أظن– أنه بعد أن خدَّر فرتزوري سمسون الفتى، كان قد حصل من قَبل على نسخة من المفتاح بطريقة

ما، فتح به باب الحظيرة وأخذ الحصان وفي نيته أن يختطفه بلا عودة، وبما أن لجامه مفقود فلا بد أن فروتزوري قد وضعه عليه. وفي أثناء سيره بالحصان في السهل القريب، يُرجّح إما أنه قابل المروض وإما أن المروض هاجمه، فنشأ عن ذلك عراك بطبيعة الحال ضرب فيه سمسون المروض على رأسه بعصاه الثقيلة دون أن يصاب هو بأي جروح من السكين الصغيرة التي استخدمها ستراكر للدفاع عن نفسه، ثم قاد اللصُّ بعدها الحصانَ إلى مكان سري، وإما أن الحصان هرب في أثناء العراك، وهو الآن ما يزال يتجول في السهول المحيطة. هذه هي النظرية التي تراها الشرطة، وعلى الرغم من كونها نظرية غير محتملة، فكل النظريات الأخرى غير محتملة أيضًا. لكن على أي حال سأتبين الأمر فور وصولنا إلى هناك، وحتى ذلك الوقت لا يمكننا أن نصل إلى أبعد مما نحن عليه الآن.

كادت الشمس أن تغيب قبل وصولنا إلى مدينة تافيستوك الصغيرة التي تقع وسط دارتمور تمامًا كما تكون الحلية في وسط الدرع المستدير. وجدنا رجلين في انتظارنا في المحطة، أحدهما أشقر طويل، شعره ولحيته كثيفان كما الأسد، له عينان زرقاوان تخترقان ما تنظران إليه في فضول، والآخر قصير يقظ وأنيق جدًّا، يرتدي معطفًا طويلًا وحذاءً ذا عنق عالٍ، وله شارب قصير منمق، ويلبس نظارة طبية. الثاني كان الكولونيل روس، الرياضي المشهور، أما الأول فهو المفتش جريجوري الرجل الذي بدأ يصنع لنفسه اسمًا بين محققي الشرطة الإنجليزية.

بادر الكولونيل قائلًا:

– أنا مسرور بقدومك إلى هنا يا سيد هولمز، لقد قام المفتش بالفعل بكل ما يمكن تخيله، لكنني لا أريد أن أترك أي باب دون أن أطرقه للانتقام للمسكين ستراكر ولاستعادة حصاني.

فسأله هولمز:

– هل توجد أي تطورات جديدة؟

فرد عليه المفتش:

– يؤسفني إخبارك أننا لم نحقق تقدمًا يُذكر. توجد عربة مفتوحة بانتظارنا في الخارج، أنا واثق أنك ترغب في رؤية المكان قبل أن يخيم الظلام، دعنا نتحدث في الأمر في أثناء الطريق.

بعد دقيقة كنا جميعًا جالسين في عربة مريحة يجرها حصان، نسير بسرعة في شوارع مدينة ديفنشواير العتيقة الجذابة. كان المفتش جريجوري منغمس تمامًا في سرد تفاصيل القضية، في حين ألقى هولمز بعض الأسئلة العارضة والاعتراضات. أسند الكولونيل روس ظهره وعقد ذراعيه معًا، كانت قبعته تغطي عينيه، أما أنا فاستمعت بإنصات إلى الحوار الذي دار بين المحققَين. أخذ جريجوري يعرض نظريته التي كان هولمز تنبأ بها بحذافيرها تقريبًا.

استكمل جريجوري قائلًا:

– الشبكة تضيق حول فريتزوري سيمسون، وأعتقد –شخصيًّا– أنه رجلنا المنشود، ولكن في الوقت ذاته أنا أعلم أن الأدلة التي في حوزتنا كلها أدلة ظرفية، ويمكن لأي تطورات جديدة أن تفسدها تمامًا.

– وماذا عن سكين ستراكر؟

– لقد توصلنا إلى أنه جرح نفسه في أثناء سقوطه.

– صديقي الدكتور واتسون اقترح عليَّ ذلك عندما كنا في طريقنا إلى هنا. إذا كان الأمر كذلك فهذا دليل ضد ذلك الرجل سيمسون.

– بلا شك، فلم يكن يحمل سكينًا وليس على جسده أي آثار لجروح. الأدلة ضده قوية جدًّا بالتأكيد، كما أن لديه دافعًا قويًّا لاختفاء المرشح الأول سيلفر بلييز، وتحوم حوله الشكوك أنه من سمم فتى الحظيرة، وقد كان بالخارج في أثناء العاصفة بلا ريب، بل وكان مسلحًا بعصًا ثقيلة أيضًا، وعُثر على ربطة عنقه في يد القتيل. أظن أننا نمتلك ما يكفي لاتهامه أمام المحلفين.

هز هولمز رأسه معترضًا وقال:

– أي محامٍ حاذق سيمزق هذه الأدلة ويحولها إلى مجموعة من الخِرق. أولًا لماذا أخذ الحصان خارج الحظيرة؟ إذا أراد أن يجرحه لماذا لم يفعل ذلك وهو في مكانه؟ ثم هل وُجدت نسخة من المفتاح في حوزته؟ ومَن الكيميائي الذي باع له الأفيون المطحون؟ وفوق كل هذا، أين يمكنه وهو غريب عن المنطقة أن يخبئ حصانًا فيها؟ وليس أي حصان، حصان كهذا؟ وما قوله هو عن تلك الورقة التي أراد من الخادمة أن تعطيها للفتى؟

– يقول إنها كانت عشرة جنيهات، ووجدنا واحدة في محفظته، ولكن اعتراضاتك الأخرى ليست جسيمة كما يبدو؛ فهو ليس غريبًا عن المنطقة، فقد نزل في فندق في تافستوك مرتين في الصيف، والأفيون في الأغلب أحضره معه من لندن، والمفتاح تخلص منه بعد أن أدى دوره، والحصان يمكن أن يكون في قاع أي حفرة، أو في منجم قديم في هذه السهول.

– وماذا يقول عن ربطة العنق؟

– يعترف أنها له، ويقول إنه قد فقدها تلك الليلة، ولكن يوجد عنصر آخر ظهر في القضية يمكنه أن يفسر سبب قيادته الحصان خارج الحظيرة.

انتبه هولمز بشدة وأصاخ سمعه في حين أكمل جريجوري قائلًا:

– لقد وجدنا آثارًا تدل على أن مجموعة من الغجر خيموا ليلة الاثنين في حدود ميل من مقتل ستراكر، ورحلوا يوم الثلاثاء. الآن، بافتراض أنه كان يوجد اتفاق من نوع ما بين سيمسون وهؤلاء الغجر، أليس من الممكن أنه كان في طريقه إليهم عندما تهجم عليه ستراكر؟ وأليس ممكنًا أيضًا أن يكون الحصان بحوزتهم الآن؟

– هذا ممكن بالتأكيد.

– تُفتَّش الآن السهول المجاورة بحثًا عن هؤلاء الغجر، وقد فحصتُ أيضًا كل حظيرة وجميع الأماكن المحتملة في الدائرة حول تافستوك حتى عشرة أميال.

– توجد حظيرة أخرى قريبة على ما أعتقد؟

– أجل، وهذا بالتأكيد عامل لا يمكننا تجاهله؛ فحصانهم ديسبورو كان المرشح الثاني في الرهان، لذلك فإن من مصلحتهم أن يختفي المرشح الأول، ومروضه سايلاس براون معروف أنه كان يراهن على

حصانه بمبالغ ضخمة، علاوةً على أن علاقته بالمسكين ستراكر لم تكن جيدة، لكن على الرغم من أننا فتَّشنا الحظائر.. لم نجد أي شيء.

– ولا أي شيء يربط هذا الرجل سيمسون بمصالح حظائر مابلتون؟

– لا شيء على الإطلاق.

أراح هولمز ظهره إلى مقعده وتوقفت المحادثة عند هذا الحد. وبعد دقائق قليلة توقف بنا سائق العربة عند فيلا أنيقة من الحجر الأحمر، لها سقف ممتد وقريبة من الطريق. على مسافة قصيرة منها وعلى الجانب الآخر من الحظيرة كان هناك مبنى رمادي طويل. انحناءات السهول تمتد في كل الاتجاهات الأخرى بلون برونزي من نبات السرخس المصفر حتى تقابل السماء، لا يقطع هذا اللون الممتد في كل الجهات إلا كنيسة تافستوك ومجموعة من المنازل ناحية الغرب، بجوار حظائر مابلتون.

خرجنا من العربة مسرعين باستثناء هولمز الذي ظل في مكانه، وعيناه مثبتتان في السماء أمامه، غارق تمامًا في أفكاره، ولم يفُق حتى لمستُ ذراعه فانتفض من مكانه وخرج وراءنا من العربة، ثم توجه بالكلام إلى الكولونيل روس الذي كان ينظر إليه بشيء من الاستغراب:

– اعذرني سيدي، كنت غارقًا في أفكاري.

لمحت لمعة في عينيه وإثارة مكتومة في تصرفاته أقنعتني –لأني معتاد أسلوبه– أنه أمسك بطرف خيط ما، مع أني لم أتخيل بتاتًا أين وجده.

قال جريجوري:

– لعلك ترغب في الذهاب إلى موقع الجريمة مباشرةً يا سيد هولمز.

فرد عليه هولمز:

– أعتقد أنني أُفضِّل أن أبقى هنا لأحصل على إجابة سؤال أو أكثر عن بعض التفاصيل، لقد أُحضِر ستراكر إلى هنا، أليس كذلك؟

– بلى، إنه في الطابق العلوي، سيبدأ التحقيق غدًا.

– لقد عمل في خدمتك لبضع سنوات يا سيد روس، أليس كذلك؟

– وكان دائمًا خادمًا ممتازًا.

– أفترض أنكم أحصيتم كل ما كان في جيوبه عندما وقعت الحادثة، صحيح أيها المحقق؟

– احتفظت بعين الأشياء، إنها الآن في غرفة الجلوس، إذا كنت ترغب أن تلقي عليها نظرة.

– سيكون ذلك من دواعي سروري.

دخلنا جميعًا إلى الغرفة الأمامية وجلسنا إلى الطاولة الرئيسة، وفتح المفتش علبة صفيح صغيرة، وأفرغ أمامنا كومة صغيرة. كان فيها علبة كبريت وقطعة بطول إنشين من شمع الشحم وغليون خشبي وحقيبة من جلد الدولفين فيها نصف أوقية من التبغ المضغوط، وساعة فضية بأسورة ذهبية، وخمسة جنيهات ذهبية إنجليزية، وعلبة أقلام رصاص مصنوعة من الألومنيوم، وبعض الأوراق، وسكين ذات مقبض من العاج نصلها حادٌّ جدًّا ودقيق ومحفور عليه «ويس وشركاه، لندن».

رفع هولمز السكين وأخذ يتفحصها بعناية شديدة قائلًا:

– هذه سكين مميزة جدًّا، أحسبها نفسها التي وُجِدت في يد القتيل، فعليها بقع من الدم، لا بد أن هذه السكين تستخدم في مجالك يا واتسون، أليس كذلك؟

رددت قائلًا:

– إنها تستخدم في جراحات إعتام العين.

– هذا ما ظننته، سكين دقيقة جدًّا، مصنوعة لعمليات في غاية الدقة، غريب أن يحملها رجل معه وهو في رحلة استكشاف خطِرة، خصوصًا أنها لا يمكن إغلاقها في جيبه.

قال المفتش:

– كان نصلها محميًّا بقطعة من الفلين وجدناها ملقاة جانب الجثة. كما أخبرتنا زوجته أنها كانت موجودة على طاولة الزينة وأنه التقطها قبل أن يغادر. ربما يكون اختيارًا سيئًا كسلاح، لكنه كل ما استطاع أن يأخذه معه قبل خروجه.

– محتمل جدًّا وماذا عن الأوراق؟

– ثلاثة منها إيصالات حساب من تجار التبن، ورسالة تعليمات من الكولونيل روس، وهذه الأخيرة ورقة حساب قبعات من مدام ليسوريه بشارع بوند، مرسلة باسم ويليام ديربيشاير بقيمة سبعة وثلاثين جنيهًا وخمسة عشر قرشًا.

أخبرتنا السيدة ستراكر أن السيد ويليام ديربيشاير صديق زوجها، وأن رسائله كانت ترسل إلى عنوان زوجها في بعض الأحيان ليتسلَّمها منه.

علَّق هولمز وهو يتفحص ورقة الحساب قائلًا:

– ذوقها غالٍ مدام ديربيشاير. اثنان وعشرون جنيهًا مبلغ كبير على ثوب واحد. على كل حال، يبدو أن هذا كل ما يمكننا معرفته، يمكننا أن نذهب الآن إلى مسرح الجريمة.

وبينما نخرج من غرفة الجلوس إذ بامرأة كانت تقف في الممر، خطت باتجاهنا ووضعت يدها على معصم المفتش. كان وجهها منهكًا ونحيفًا وقلقًا، يبدو عليه الرعب مما حدث، وسألت في لهفة:

– هل توصَّلتم إليهم؟ هل وجدتموهم؟

– لا يا سيدة ستراكر، لكن هذا السيد هولمز قد أتى من لندن ليساعدنا وسنفعل كل ما بوسعنا.

فقال هولمز:

– بالتأكيد، سيدة ستراكر.. ألم أقابلك في بلايموث في حفلة من الحفلات هناك منذ مدة؟

– لا يا سيدي، أنت مخطئ.

– اعذريني! لكنني متأكد من ذلك، لقد كنتِ ترتدين فستانًا أبيض من الحرير مزينًا بريش النعام.

فأجابته:

– لم يكن لي يومًا فستان كهذا يا سيدي.

فرد عليها:

- حسنًا، هذا يحسم الموضوع إذن.

ثم اعتذر لها ولحق بالمحقق إلى الخارج. وبعد مشية قصيرة عبر السهل كنا أمام المنحدر الذي وُجِدت فيه الجثة. على حافته مجموعة الشجيرات التي علق بها المعطف.

قال هولمز:

- لم يكن في تلك الليلة رياح على حد علمي.

- على الإطلاق، لكن كان فيها أمطار غزيرة.

- في هذه الحالة فإن المعطف لم يطِر ويعلق بالشجيرات بفعل الرياح، ولكنه وُضع هناك.

- أجل، لقد وُضِع عليها.

- هذا مثير للاهتمام. أرى العديد من آثار الأقدام على الأرض هنا، لا بد أن الكثيرين مرّوا هنا منذ مساء الاثنين.

- لقد وضعنا قطعة من الحصير على الجانب ووقفنا جميعًا عليها.

- ممتاز.

- في هذه الحقيبة لديَّ فرد حذاء ستراكر الذي كان يرتديه، وأخرى كان يرتديها فريتزوري سيمسون، وقالب حدوة سيلفر بليز.

- عزيزي المفتش، لقد تفوقت على نفسك!

أخذ هولمز الحقيبة ونزل إلى المنحدر وحرَّك الحصيرة أقرب إلى مركز العلامات، ثم تمدد على وجهه مسندًا ذقنه إلى يديه، وفحص العلامات الموجودة في الطين بعناية.

ثم فجأة صاح:

- يا مرحبًا! ما هذا؟

لقد كان عود ثقاب نصف محروق غارقًا تمامًا في الطين، لدرجة أنه كان يبدو قطعة من الخشب للوهلة الأولى.

قال المفتش وهو يبدو عليه الضيق:

- لا أصدق أنني لم ألاحظه من قبل.

- لقد كان مخفيًّا، مدفونًا كله في الطين، وقد رأيته فقط لأنني كنت أبحث عنه.

- ماذا! هل توقعت أن تجده؟!

- ظننتُ أنه ليس مستبعدًا.

ثم أخرج هولمز الأحذية من الحقيبة، وقارن كل منها بالعلامات الموجودة على الأرض، ثم تسلق إلى حافة المنحدر وأخذ يزحف بين أكوام السرخس والشجيرات.

قال المفتش:

– أخشى أنه لا يوجد أي أدلة أخرى، لقد فحصت الأرض بعناية شديدة لمسافة مئة ياردة في كل الاتجاهات.

فردَّ هولمز وهو يستقيم واقفًا:

– حقًّا! ستكون وقاحة مني إذن أن أعيد هذا المجهود، بعد ما قلته، لكنني أُفضِّل أن أتمشى قليلًا في أرجاء المنطقة قبل أن يحل الظلام، حتى أستطيع التعرف على المكان غدًا، وأظنني سآخذ هذه الحدوة في جيبي لتجلب لي بعض الحظ.

ألقى الكولونيل روس نظرة إلى ساعته مبديًا شيئًا من الامتعاض والتململ من هدوء رفيقي وطريقته المنهجة في العمل، ثم قال:

– أرجو أن تأتي معي أيها المفتش، فلديَّ بعض النقاط أود أخذ نصيحتك فيها. ولا سيما فيما يخص ما إذا كنا نُدين للجماهير بأن نسحب اسم حصاننا من قوائم المسابقة.

صاح هولمز بنبرة حازمة:

– بالطبع لا! علينا أن نبقي الاسم.

انحنى الكولونيل قائلًا:

– أنا مسرور جدًّا بمعرفة رأيك يا سيدي، ستجدنا في منزل ستراكر المسكين بعد أن تنتهي من جولتك، ويمكننا عندها أن نستقل عربة معًا إلى تافستوك.

ثم استدار راحلًا هو والمفتش في حين تجولنا أنا وهولمز على مهل عبر السهول. كانت الشمس تفارق السماء وتتوارى خلف حظائر مابلتون، والسهل المنحدر الممتد أمامنا يتلون باللون الذهبي، ويتحول إلى لون بني داكن ضارب إلى الحمرة، في حين كان السرخس والعليق يتشبثان بآخر ضوء للنهار، لكن سحر وجمال هذا المنظر ذهب سدًى على صديقي الذي كان غارقًا في أفكاره.

نطق هولمز بعد طول صمت قائلًا:

– لقد وجدت الطريقة المناسبة يا واتسون، يمكننا أن نترك سؤال من قتل ستراكر للحظات، ونشغل أنفسنا بما حدث للحصان. إذا افترضنا أنه هرب في أثناء تلك الملحمة أو بعدها، أين يمكن أن يكون الآن؟ الأحصنة كائنات اجتماعية للغاية، إذا تُرك وحده ستقوده غريزته إما للعودة إلى كينجز بيلاند وإما الذهاب إلى مابلتون، ما الذي يمكن أن يدفعه إلى السهول إذن؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن أحدًا رآه خلال هذا الوقت. وما الذي يمكن أن يدفع الغجر إلى خطفه؟ هؤلاء الناس دائمًا ما يبتعدون عن المشكلات لأنهم لا يريدون أي تعاملات مع الشرطة، ولا يمكن أن تكون خطتهم أن يبيعوا مثل هذا الحصان، سيكبدهم الأمر مخاطر جسيمة، ولن يكسبوا أي شيء بالاحتفاظ به.. هذا واضح بالتأكيد.

– أين هو إذن؟

– لقد قلت لك بالفعل إنه إما أن يكون قد ذهب إلى مابلتون وإما إلى كنجز بيلاند. وهو ليس في كينجز بيلاند، إذن هو في مابلتون. دعنا نفترض ذلك ونرَ إلى أين تقودنا هذه الفرضية. هذا الجزء من السهل جافٌّ وقاسٍ جدًّا –كما أشار المحقق– لكنه يهبط في اتجاه مابلتون، ويمكنك أن ترى من هنا أن هنالك

واديًا بعيدًا في تلك الأرجاء، ولا بد أن كثيرًا من الماء اجتمع فيه ليلة الاثنين. وإذا كانت فرضيتنا صحيحة فلا بد أن الحصان قد عبر ذلك الوادي، والناحية الأخرى منه هي النقطة التي علينا أن نبدأ منها بحثنا عن آثاره.

كنا في طريقنا بالفعل لوجهتنا في أثناء هذا الحوار، ودقائق قليلة أخرى من المشي كانت كفيلة لنصل إلى الوادي الذي أشرنا إليه. ونزولًا إلى طلب هولمز.. كنت أبحث أنا في الضفة اليمنى في حين كان هو يبحث في الضفة اليسرى، لكنني لم أكمل حتى خمسين خطوة حتى سمعته يصرخ ورأيته يلوح لي بيده. كان أثر الحصان محددًا بوضوح في الأرض الرخوة أمامه، والحدوة التي كانت في جيبه مطابقة تمامًا للأثر.

قال هولمز:

– هل رأيت أهمية الخيّال؟ هذه هي الصفة الوحيدة التي يفتقر إليها جريجوري. نحن تخيلنا ما يمكن أن يكون قد حدث، ثم تصرفنا تبعًا لما تصورناه، ووجدنا ما توقعناه.. دعنا نكمل.

عبرنا المستنقع وسرنا نحو ربع ميل على أرض عشبية جافة وقاسية، حتى عاد الوحل من جديد وعُدنا لرؤية الأثر، ثم فقدناه من جديد لنصف ميل، لنجده مرةً أخرى بالقرب من مابلتون. كان هولمز أول مَن رآها بيننا، ووقف يشير إليها بنظرة انتصار على وجهه، هذه المرة كانت هناك آثار أقدام لرجل، بجوار آثار الحصان.

صحت قائلًا:

– لقد كان الحصان وحده من قبل.

– بالضبط، لقد كان وحده من قبل.. أهلًا! ما هذا؟

انحرفت آثارهما بشدة وصار مسارها باتجاه كينجز بيلاند. صفَّر هولمز في حين كنا ننعطف، وتابعنا طريقنا وراء الآثار، كانت عيناه على الأثر لا تتحرك عنه، وكنت أنا أنظر حوله قليلًا، وتفاجأت جدًّا عندما رأيت الآثار نفسها متخذة طريقها عائدة في الاتجاه الذي أتت منه.

فقال لي هولمز بعد أن أشرت إلى الآثار العائدة:

– هذه نقطة لحسابك يا واتسون، لقد وفرتَ علينا سيرًا طويلًا كان ليقودنا مجددًا من حيث بدأنا.

لم نحتَج أن نذهب بعيدًا بعدها؛ فقد انتهى الأثر عند بداية الطريق الممهد الذي يفضي إلى بوابات حظائر مابلتون. وبينما نحن نقترب إذ بسائس يتقدم نحونا خارجًا من البوابة، قال لنا:

– لا نريد أي متطفلين هنا.

فرد عليه هولمز وهو يضع إبهامه وسبابته في جيب صدريته قائلًا:

– كنتُ أرغب فقط أن أسأل سؤالًا واحدًا: هل سأكون مبكرًا أكثر من اللازم إذا أتيت هنا غدًا في الساعة الخامسة صباحًا لأقابل سيدك، السيد سايلاس براون؟

– بوركت يا سيدي، إذا كان يوجد مَن يستيقظ في مثل هذا الوقت فذاكَ هو، إنه أول من يستيقظ دائمًا، لكن.. ها هو ذا يا سيدي لا داعي للانتظار، يمكنه أن يجيب عن سؤالك بنفسه. لا يا سيدي، لا..

نقودك هذه ستكلفني عملي هنا إذا رآني أمسُّ أيًّا منها، ربما فيما بعد.

بينما كان هولمز يعيد إلى جيبه النصف جنيه الذي أخرجه، إذا برجل عنيف كبير في السن يخطو خارج البوابة، وفي يده عصا صيد تتأرجح، وصاح في الفتى:

– ما الذي يحدث يا داوسن؟ ألم أخبرك لا ثرثرة؟! اذهب إلى عملك! وأنتما! ما المصيبة التي أتت بكما إلى هنا؟

قال هولمز بأعذب الأصوات:

– فقط لأتحدث إليك محادثة لن تزيد على عشر دقائق يا سيدي الغالي.

– ليس لديَّ وقت لأتحدث إلى كل متسكع يأتي إلى هنا، لا أريد أي غرباء في هذا المكان. اذهب الآن وإلا وجدتَ كلبًا على قدمك قبل أن تحركها.

تقدم هولمز إلى الأمام وهمس بشيء ما في أذن المروض، فهب الرجل واحتقن وجهه وأخذ يصرخ:

– هذا كذب! كذب خبيث!

– ممتاز، هل تود أن نتناقش في الأمر هنا في العلن أم نفعل ذلك في صالة الاستقبال؟

– حسنًا، ادخل إذا أردت.

ابتسم هولمز وقال لي قبل أن يدخل:

– لن تنتظرني أكثر من بضع دقائق يا واتسون.

ثم توجه إلى الرجل وقال:

– كُلّي معك الآن يا سيد براون.

مرت عشرون دقيقة انحسر فيها احمرار المغيب، وصارت الأجواء رمادية قاتمة قبل عودة هولمز والمروض مرة أخرى. لم أرَ في حياتي تغيرًا على رجل في مثل هذا الوقت القصير كما رأيت على سايلاس براون ذلك اليوم. كان وجهه رماديًّا شاحبًا، حبات العرق تلمع على جبينه، ويداه ترتجفان، حتى إن عصاه كانت تهتز كغصن في مهب الريح، وترهيبه وعجرفته انقلبا جميعًا إلى انكماش بجانب رفيقي، ككلب منكمش بجوار سيده. قال حينها:

– كل تعليماتك ستنفذ، سأنفِّذها كلها.

فقال هولمز وهو يتلفت ناظرًا إليه:

– يجب ألا يكون هناك أي أخطاء.

فزع الرجل عندما استشعر نظرة التهديد في عينيه وصاح قائلًا:

– لن يكون هناك أي أخطاء، سيكون هناك، هل عليَّ أن أغيره أولًا أم لا؟

فكَّر هولمز قليلًا ثم انفجر ضاحكًا، ثم حاول أن يرد عليه من بين ضحكاته قائلًا:

– لا لا، لا تغيره.

ثم استكمل حديثه:

– سأرسل لك كل التفاصيل، ولا تحاول أن تلعب بذيلك، وإلا...

– لا بالطبع! يمكنك أن تثق بي! يمكنك أن تثق بي!

– أجل، أظن أنني يمكنني الوثوق بك. حسنًا، ستصل إليك رسالة مني غدًا.

رد هولمز على المروض موليًا ظهره له ومتجاهلًا يده التي رفعها له، وانطلقنا معًا في طريقنا إلى كينجز بيلاند. بدأ هولمز كلامه في أثناء سيرنا معلقًا على ما حدث فقال:

– لم أرَ قطُّ تركيبة من الفُتوة والجُبن والخُبث كما رأيت من السيد سايلاس براون.

– هل معه الحصان إذن؟

– حاول أن يتنصل من ذلك بتبجحه، لكنني وصفت له خطوة بخطوة، وحركة بحركة، كل ما قام به في ذلك اليوم، لدرجة أنه اقتنع أنني كنت أراقبه. بالطبع لاحظتَ التضليعة الغريبة لمقدمة الحذاء التي كانت ظاهرة في آثار الأقدام، وأن حذاءه يطابق الآثار تمامًا. دعني أكرر لك أن مثل هذا الفعل لن يتجرأ أن يقدم عليه أحد الغجر أو فتيان الحظائر.

لقد وصفت كيف أن عادته في أن يكون أول الخارجين إلى السهول، جعلته أول من تقع عينه على الحصان الشارد. وكيف أنه ذهب إليه، واندهاشه عندما تعرف إليه من علامته البيضاء المميزة في غرته التي أعطت ذلك الحصان اسمه. وكيف أن الحظ وضع بين يديه الحصان الوحيد القادر على أن يسبق الحصان الذي راهن عليه بماله. ثم وصفت له أنه في البداية اندفع ليعيده إلى كينجز بيلاند، وكيف أن الشيطان أرشده إلى كيفية إخفائه حتى ينتهي السباق، وكيف قاده وعاد به وأخفاه في مابلتون. عندما أخبرته بكل التفاصيل.. استسلم وصار تفكيره منصبًّا على أن ينجو من الأمر بجلده.

– لكنهم بحثوا في حظائره.

– أجل، لكن محتالًا مثله متمرس مع الأحصنة، لن يصعب عليه أن يجد حيلة.

– لكن ألا تخشى أن تترك الحصان في حوزته الآن، ولديه دافع كبير لإيذائه؟

– يا رفيقي العزيز، بالعكس، سيضعه في بؤبؤ عينيه، فهو يعلم أن أمله الوحيد في أن ينال الرحمة هو أن يعيده سالمًا.

– لم يبدُ لي أن الكولونيل روس رجلٌ يظهر الرحمة في أي موقف.

– الأمر ليس بين يدي الكولونيل روس. أنا أتبع طرقي الخاصة، أفضي بما أشاء، وأمسك بما أشاء، هذه مَزِيّة أن تعمل بصفة غير رسمية. لا أعرف إذا كنتَ لاحظت ذلك أم لا يا واتسون، لكن أسلوب الكولونيل كان فيه شيء من التعجرف تجاهي، لذا فأنا ميّال الآن إلى أن أحصل على بعض التسلية على حسابه. لا تخبره بأي شيء عن الحصان.

– بالتأكيد لن أفعل ذلك دون إذنك.

– وبالتأكيد هذه النقطة بأسرها طفيفة بالمقارنة بسؤال مَن قتل جون ستراكر.

– وهل ستكرس مجهوداتك لهذه النقطة؟

– على العكس تمامًا، سنعود الليلة إلى لندن في قطار المساء.

صُعقتُ بكلمات صديقي؛ فلم يمُرَّ على وجودنا في ديفونشاير إلا بضع ساعات، وكونه سيتخلى عن تحقيق بدأه بمثل هذه العبقرية، كان أمرًا غير مفهومٍ على الإطلاق! لكنني لم أحمله على الكلام، حتى عدنا إلى منزل المروض، حيث كان الكولونيل والمحقق ينتظراننا في صالة الاستقبال، فقال هولمز:

– سأعود أنا وصديقي في القطار السريع الليلة، لقد استمتعنا كثيرًا بنسائم دارتمور.

فتح المفتش عينيه في دهشة، في حين لوى الكولونيل شفتيه بسخرية وقال:

– لقد يئست إذن من أن تلقي القبض على قاتل ستراكر المسكين؟

هزَّ هولمز كتفيه وردَّ عليه:

– يوجد الكثير من العقبات في هذا الطريق، لكن عندي كل الأمل بأن حصانك سيبدأ السباق يوم الثلاثاء، وأتمنى أن يكون فارسك جاهزًا. هل يمكنني أن أطلب صورة للسيد ستراكر.

أخرج المفتش واحدة من ظرف وأعطاه إياها.

– عزيزي جريجوري، أنت تتنبأ بكل طلباتي. هل يمكنك أن تجلس هنا لبعض الوقت؟ لديَّ سؤال أود أن أسأله للخادمة.

وفور خروج هولمز من الغرفة قال الكولونيل روس بفظاظة:

– عليَّ أن أقول إنني مستاء بشدة من مستشارنا ذاك، نحن لم نحرز أي تقدم عما كنا عليه عندما وصل.

فرددتُ عليه:

– قد طمأنك على الأقل أن حصانك سوف يشارك في السباق.

فرد الكولونيل وهو يهز كتفه:

– وما فائدة «طمأنتي أنه سيشارك»؟ أنا أريد الحصان!

كنت على وشك أن أرد دفاعًا عن صديقي عندما عاد هو إلى الغرفة من جديد، وقال:

– الآن يا سادة، أنا مستعد للانطلاق إلى تافستوك.

كان أحد فتيان الحظيرة يمسك لنا باب العربة حتى نركب، عندما بدا أن فكرة مفاجأة قد خطرت لهولمز، فقد مال للأمام ونكز الفتى على ذراعه وقال له:

– لديكم بعض الخراف في الحظيرة، أليس كذلك؟ مَن يعتني بها؟

فرد الفتى:

– أنا يا سيدي.

– هل لاحظت أي عِلَّة بها مؤخرًا؟

– ماذا عساي أن أقول يا سيدي.. لا أظنه شيئًا يستحق الذكر، لكن ثلاثة منهم أصيبوا بالعرج يا سيدي.

عرفت أن هولمز كان مسرورًا جدًّا، إذ ضحك ضحكة مكتومة وفرك يديه معًا، ثم قال:

– احتمال غير متوقع يا صديقي، غير متوقع على الإطلاق.

ثم التفت إلى المفتش قائلًا:

– دعني ألفت انتباهك يا جريجوري إلى هذا الوباء الفريد بين الخراف. انطلق بنا أيها السائق.

لم تتغير تعبيرات وجه الكولونيل روس التي تظهر رأيه السيئ الذي كوَّنه، وعدم ثقته بحكم صديقي وقدراته، لكنني رأيت على وجه المفتش أن ملحوظة هولمز أثارت انتباهه بشدة، وسأل هولمز:

– أتعدُّ هذا أمرًا مهمًّا؟

– في غاية الأهمية.

– هل لديك أي نقطة أخرى تود أن تلفت إليها انتباهي؟

– سلوك الكلب الغريب تلك الليلة.

– لكنه لم يفعل أي شيء تلك الليلة.

فعلق شيرلوك هولمز:

– هذا بالضبط هو السلوك الغريب.

وبعد أربعة أيام كنت أنا وهولمز في القطار المتجه إلى وينشستر لنشاهد سباق كأس ويسكس. كان الكولونيل روس في انتظارنا في محطة القطار على موعدنا، استقللنا عربته الخاصة التي تجرها الأحصنة إلى المضمار خارج المدينة. كان وجهه حادًّا، وتصرفاته حادة إلى أقصى درجة.

سأل هولمز:

– لم أرَ أي أثر لحصاني بعد.

فرد عليه هولمز:

– أظنك ستعرفه إذا رأيته، أليس كذلك؟

فقال له الكولونيل غاضبًا:

– لقد قضيت عشرين عامًا في مضمار سباق الخيول ولم أُسأل مثل هذا السؤال من قبل! يمكن لطفل أن يتعرف على سيلفر بليز بغُرَّته البيضاء المميزة، ورجله الأمامية اليمنى المرقشة.

– وكيف سار الرهان؟

– حسنًا، هذا هو الأمر المثير للفضول. كانت النسبة قد وصلت إلى خمسة عشر صوتًا لكل صوت واحد، لكن النسبة أخذت تتضاءل وتتضاءل حتى صارت ثلاثة إلى واحد.

– من الواضح أن أحدًا ما يعرف شيئًا.

عندما توقفت العربة في الساحة المُسيجة بالقرب من بوابات منصات المشجعين الضخمة ألقيتُ نظرة سريعة على التذاكر لأرى الأسماء المدرجة:

1. الزنجي، حصان السيد هيث نيوتن: بالقبعة الحمراء والسترة البنية.

2. الملاكم، حصان الكولونيل واردلو: بالقبعة القرمزية والسترة الزرقاء والسوداء.

3. ديسبورو، حصان اللورد باكووتر: بالقبعة الصفراء والأساور الصفراء.

4. سيلفر بليز، حصان الكولونيل روس: بالقبعة السوداء والسترة الحمراء.

5. أيريس، فرس دوق بالموران: بالخطوط الصفراء والسوداء.

6. راسبر، حصان اللورد سنجلفورد: بالقبعة البنفسجية والأساور السوداء.

علق الكولونيل على القائمة قائلًا:

– لقد سحبنا جوادنا الآخر من السباق ووضعنا كل آمالنا في وعدك، يا إلهي! ما هذا؟ سيلفر بليز هو المرشح الأول حقًّا؟

علا صوت في حلبة السباق يقول:

– خمسة إلى أربعة ضد سيلفر بليز.

ثم كررها مجددًا قبل أن يكمل:

– خمسة إلى خمسة عشر ضد ديسبورو. وخمسة إلى أربعة في المضمار.

صحتُ أنا:

– ها هي ذي كل الأرقام مرفوعة، إن الستة موجودون جميعًا.

فصاح الكولونيل أيضًا منفعلًا جدًّا

– ستة أرقام! إذن حصاني سينافس! لكنني لا أراه وأعلامي لم تمر.

– مرَّ خمسة فقط، لا بد أن هذا هو.

وبمجرد أن قلتُ أنا هذه الجملة الأخيرة، خرج حصان كستنائيٌ قوي من حظيرة الوزن، ومرَّ أمامنا يعدو بسرعة، يحمل اللونين الأحمر والأسود اللذين يُعرف بهما الكولونيل.

وما إن مرَّ حتى صاح صاحبه:

– هذا ليس حصاني! هذه البهيمة ليس بها أي شعرة بيضاء، ما الذي فعلته يا سيد هولمز؟

فرد عليه هولمز بثبات:

– حسنًا، حسنًا، دعنا نرَ كيف تسير الأمور.

وظل يحدق من منظاري لبضعة دقائق حتى بدأ السباق وصاح:

– عظيم! بداية ممتازة!

ثم بعد لحظات صاح:

– ها هم أولاء يتجاوزون المنحنى.

كنا نتمتع برؤية ممتازة من العربة عندما كانت الخيول في الجزء المستقيم من المضمار. وكانت الخيول الستة قريبة من بعضها لدرجة أنه يمكنك تغطيتهم جميعًا ببساط واحد، لكن بعد أن قطعوا نصف المسافة كان لون حظائر مابلتون الأصفر في المقدمة، ثم قبل أن يكونوا بحذائنا خارت قوى

ديسبورو وتقدم حصان الكولونيل بسرعة، حتى أنهى السباق بفارق ستة أطوال من منافسه، ثم جاء أيريس فرس الدوق في المركز الثالث.

تنهد الكولونيل وهو يضع يده على عينه ويقول:

– لقد فزتُ بالسباق بعد كل هذا! أعترف أنني لا أفهم أي شيء مما يحدث، ألا تظن أنك أبقيت لغزك سرًّا بما يكفي يا سيد هولمز؟

فرد عليه هولمز قائلًا:

– بالطبع أيها الكولونيل، ستعرف كل شيء الآن. دعنا أولًا نذهب ونلقِ نظرة على الحصان معًا.

ثم ما إن وصلنا إلى حظيرة الوزن –حيث تبقى الخيول بعد السباق، ولا يسمح إلا لأصحاب الخيول وأصدقائهم بالدخول– حتى استكمل هولمز حديثه قائلًا:

– ها هو ذا، ما عليك إلا أن تغسل وجهه ورجله بالنبيذ وستجد أنه ما زال سيلفر بليز القديم الذي تعرفه كما كان طوال عمره.

– لقد خطفت أنفاسي!

– وجدته بحوزة محتال، وسمحت لنفسي أن أرسله إلى السباق كما وجدته.

– سيدي العزيز، لقد حققتَ العجائب، يبدو الحصان بخير وبصحة ممتازة. في الحقيقة إنه لم يكن بحالة أفضل من هذه في حياته. أنا مدين لك بألف اعتذار لشكّي في قدراتك. لقد أسديت إليَّ خدمة عظيمة باستعادتك حصاني، وستكون قد أسديت إليَّ خدمة أكبر وأكبر إذا استطعت أن تعرف من قتل جون ستراكر.

فرد هولمز بهدوء:

– لقد فعلتُ ذلك بالفعل.

نظرت أنا والكولونيل إليه في ذهول.

– وجدته! أين هو إذن؟

– إنه هنا.

– هنا؟ أين؟

– بصحبتنا الآن ويقف بيننا.

فاض غضب الكولونيل وصاح:

– أنا أعرف أنني مدين لك يا سيد هولمز، لكن ما قلته للتو لا يُفهم إلا على أنه نكتة في غاية السخف، أو إهانة متعمدة.

ضحك هولمز وقال:

– أؤكد لك يا كولونيل أني لم أربط بينك وبين الجريمة على الإطلاق. القاتل الحقيقي يقف خلفك تمامًا الآن.

ثم خطا خطوة خلف الكولونيل ووضع يده على الحصان ذي النسب الأصيل.

فصحتُ أنا والكولونيل في صوت واحد:

– الحصان!

– أجل الحصان، وربما يخفف ذنبه أن أقول لكم إنه فعل ذلك دفاعًا عن نفسه، وإن جون ستراكر لم يكن جديرًا بثقتك على الإطلاق، لكنني أسمع الآن جرس انطلاق السباق التالي، وأتوقع أن أكسب القليل من ذلك السباق، لذلك سأؤجل الشرح المطول إلى وقت مناسب أكثر.

اختلينا في عربة خاصة من عربات القطار متجهين إلى لندن ذلك المساء، وأتخيل أن الرحلة كانت قصيرة على الكولونيل روس كما كانت عليَّ، فقد استمعنا إلى رواية رفيقنا للأحداث التي وقعت في حظيرة الترويض بدارتمور، ليلة الاثنين وكيف توصل إليها.

قال رفيقنا في البداية:

– أعترف أن كل النظريات التي كنت قد كوَّنتها من تقارير الصحافة كانت خاطئة بالكلية. لكن على الرغم من ذلك كان في تلك التقارير بعض الدلالات المفيدة، غير أنها كانت مشوبة ببعض التفاصيل الأخرى التي أخفت أهميتها الحقيقية. لقد قدِمتُ إلى ديفونشاير مقتنعًا بأن فريتزوري سيمسون هو المجرم الحقيقي، مع أني كنت أرى أن الأدلة التي تدينه لم تكن مكتملة بأي حال من الأحوال، لكنني لم أكن قد لاحظت قبل وصول العربة بنا إلى منزل المروض، مدى أهمية اللحم بالكاري. ربما تتذكران أنني كنت مشتتًا وظللت في العربة قليلًا بعد أن نزلتم جميعًا من العربة، لقد كنتُ أتعجب من نفسي في تلك اللحظات كيف أمكنني أن أغفل مثل ذلك الدليل الواضح حتى ذلك الحين.

قاطعه الكولونيل قائلًا:

– أعترف لك أنني حتى الآن لا أتخيل كيف يمكن لمثل هذا الدليل أن يساعدنا.

– لقد كانت الحلقة الأولى في سلسلة استنتاجاتي، فالأفيون المطحون ليس عديم الطعم بأي حال من الأحوال، طعمه ليس مزعجًا، لكنه محسوس. لو كان وضع في أي طبق عادي لكان سهل الملاحظة، ولا توجد أي فرضية معقولة يكون فيها فريتزوري سيمسون –وهو غريب عن المنزل– قادرًا أن يجعل هذا الطبق يُطبخ تلك الليلة، وستكون مصادفة بشعة إن كان قد جاء بالأفيون المطحون في اليوم نفسه الذي طُبِخَ فيه عشاء يمكنه أن يخفي طعمه، هذا غير وارد، ولهذا استبعدت سيمسون من القضية والتفت إلى ستراكر وزوجته، الوحيدَين اللذَين يمكنهما أن يجعلا هذا الطبق هو العشاء في تلك الليلة. وقد أُضيف الأفيون بعد تخصيص طبق معين للفتى، فالآخرون أكلوا العشاء نفسه ولم يصابوا بأي مكروه. مَن منهما إذن كان بإمكانه أن يضعه دون أن تلاحظه الخادمة؟

قبل أن أستطيع إجابة ذلك السؤال استوعبتُ مدى أهمية صمت الكلب في تلك الليلة، فاستدلال واحد صحيح يؤدي إلى غيره. لقد علمت من حادثة سيمسون، أن هناك كلبًا في الحظيرة، وعلى الرغم من ذلك لمّا دخل أحدٌ ما إلى الحظيرة واصطحب الحصان معه، لم ينبح الكلب كفايةً ليوقظ الفتيان النائمين في الغرفة العلوية، فكان من الواضح أن ذلك الزائر شخص يعرفه الكلب جيدًا.

لقد كنتُ مقتنعًا بالفعل أو شبه مقتنع، أن جون ستراكر ذهب إلى الحظيرة في منتصف الليل، وأخذ سيلفر بليز معه إلى الخارج. لكن ماذا كان دافعه؟ لا بد أنه كان باعثًا غير شريف، وإلا فلماذا خدَّر

الصبي؟ ومع ذلك احترت كثيرًا حتى أعرف لماذا فعل ذلك. لقد كانت هناك قضايا من قبل تحصَّلَ فيها المروضون على مبالغ كبيرة من المال بالمراهنة ضد أحصنتهم -عن طريق عملاء- ثم يمنعون أحصنتهم من الفوز بحيلة ما، أحيانًا بسحب الفارس، وأحيانًا أخرى بطرق أبشع وأكثر خفة. ماذا كانت الطريقة هذه المرة؟ كنت آمل أن ترشدنا محتويات جيبه إلى الاستنتاج المناسب.

وقد كان؛ لا يمكن أن يكون أي منكما قد نسي السكين الفريدة التي كانت في يد القتيل، لا يمكن أبدًا أن يختارها عاقل للدفاع عن نفسه. إنها -كما أشار لنا الدكتور واتسون- سكين دقيقة جدًّا تستخدم في أدق العمليات المعروفة، وكانت حقًّا ستستخدم في عملية دقيقة تلك الليلة. لا بد أنك تعرف، بحكم خبرتك الطويلة في السباقات يا كولونيل روس، أنه يمكن أن تُحدث قطعًا طفيفًا في أربطة فخذ الحصان، وأن تقوم بهذا تحت الجلد دون جراحة، ودون أن تترك أي أثر على الإطلاق، والقيام بمثل هذه العملية لحصان يُظهِر عليه عرجًا يتطور شيئًا فشيئًا، وسيُشخَّص على أنه إجهاد من كثرة التمرين، أو حمى روماتيزمية، لكن لن يشك أحد أبدًا أنه من لعبة قذرة كهذه.

عندها صاح الكولونيل:

- وغد! حقير!

- حسنًا.. هذا يفسر لماذا أراد جون ستراكر أن يأخذ الحصان في منتصف الليل إلى السهل. حيوان مفعم بالحيوية مثل حصانك كان سيطلق صرخة مدوية توقظ كل النائمين عندما يشعر بوخز السكين، لذلك كان لا بد أن يفعل ذلك في الهواء الطلق.

صاح الكولونيل مرةً أخرى:

- لقد كنتُ أعمى، وبالطبع كان هذا سبب استخدامه الشمع وعيدان الثقاب.

- بالطبع، لكن بفحص أغراضه، لم أتوقف عند اكتشاف طريقة ارتكابه الجريمة، بل كنت محظوظًا كفاية أن أكتشف أيضًا دوافع جريمته. بخبرتك في الحياة يا كولونيل، أظن أنك تعلم أن لا أحد يحمل فواتير غيره بجيبه في أثناء تنقلاته، فكل منا لديه ما يكفيه على عاتقه. هذا حملني إلى أن أستنتج فورًا أن ستراكر كان يقود حياة مزدوجة، وأن لديه شؤونًا أخرى. وطبيعة الإيصال تشير إلى وجود سيدة في القضية، وليست أي سيدة، بل واحدة ذات ذوق غالٍ. وعلى الرغم من سخائك مع خدمك، فمن الصعب تخيل أنه بإمكان أحدهم أن يشتري ثوبًا لامرأته للتنقلات العادية بعشرين جنيهًا. استجوبت السيدة ستراكر عن الفستان دون علمها، وعندما اطمأننتُ أنه لم يصل إليها إطلاقًا، سجلت عنوان صانع القبعات، وشعرت أنني إذا تواصلت معهم ومعي صورة للسيد ستراكر فيمكنني أن أتخلص من غموض ديربيشاير.

ومن هناك، صار الموضوع بسيطًا جدًّا، قاد ستراكر الحصان إلى منحدر بحيث لا يكون ضوء مصباحه مرئيًّا، وكان سيمسون قد أسقط ربطة عنقه في أثناء الأحداث المتقدمة من تلك الليلة، فالتقطها ستراكر عندما رآها، ربما كان يفكر في استخدامها لإحكام ربط رجلَي الحصان، وبمجرد نزوله المنحدر ذهب خلف الحصان وأشعل ضوءًا، لكن ذلك الحيوان ما إن رأى ذلك الضوء حتى ذعر، وأحسبه استشعر بغريزته الحيوانية الغريبة أن الرجل عند قدميه ينوي إيذاءه، فما إن شعر بذلك حتى هاج

وأفلت، وهاجمه بقدمه فضربه بحدوته الحديدية على جبهته، وكان ستراكر على الرغم من هطْل المطر قد خلع معطفه، حتى يستطيع أداء المهمة الدقيقة التي كان على وشك القيام بها، لكن عندما حدث ما حدث سقط على الأرض وجُرحت فخذه في أثناء سقوطه.

– هل وضحت كل شيء بما يكفي؟

صاح الكولونيل:

– رائع! مذهل! كأنك كنت هناك.

– يوجد تخمين أخير قمت به، لم أتوقع أن يثمر شيئًا، لكنني سألت على أي حال. دار بذهني أن رجلًا بمكر وذكاء ستراكر لن ينفذ عملية دقيقة كقطع الأوتار دون تدريب مسبق. وأين يمكنه أن يجد تلك الممارسة؟ وقعت عيناي على الماشية، وسألت سؤالًا اتضح –لدهشتي– أنه صحيح.

وعندما عدت إلى لندن وتواصلت مع محل القبعات، تعرَّف الرجل بالفعل على ستراكر، وقال إنه زبون ممتاز للمحل، واسمه ديربيشاير وزوجته امرأة في غاية الجمال، وأضاف أنها تميل إلى الأثواب الغالية. لا شك أن تلك المرأة أغرقته في الديون حتى أذنيه؛ ما دفع به إلى هذه المؤامرة البائسة.

صاح الكولونيل:

– لقد فسَّرتَ كل شيء ما عدا شيئًا واحدًا؛ أين كان حصاني طوال هذا الوقت؟

– آه، لقد هرب واعتنى به أحد جيرانك، وأظن أن علينا أن نتحلى ببعض الصفح في هذا الأمر.

ها قد وصلنا إلى تقاطع كلافام إذا لم أكن مخطئًا، وسنكون في فيكتوريا في أقل من عشر دقائق. يمكنك أن تأتي معنا إلى غرفتي وتدخن معنا سيجارًا أيها الكولونيل، إذا أردنا أن نكمل حديثنا، وأطلعك على أي تفاصيل أخرى ترغب في سماعها.

Silver Blaze: وترجمتها الحرفية «اللهيب الفضي» أو «اللمعة الفضية»، وله هذا الاسم كناية عن سرعته ولعلامة بيضاء في غرته تميزه عن باقي الخيول.

مغامرة الوجه الأصفر

عندما نشرت هذه القصص القصيرة بشأن العديد من القضايا التي جعلتنا قدرات صديقي الاستثنائية فيها جزءًا من أحداث فاجعة وغريبة، كان من الطبيعي عند نشرها أن أذكر نجاحات صديقي أكثر مما أذكر إخفاقاته. وليس هذا من باب الحفاظ على سمعته، لأنه في الحقيقة كان أكثر إبداعًا وأجدر بالإعجاب والتقدير كلما كانت القضايا أصعب وأكثر تحديًا لذكائه، لكن السبب الذي يمنعني حقًّا من ذكر تلك القضايا –التي أخفق فيها صاحبي في الوصول إلى حل– أنه حين فشل فيها لم ينجح غيره عادةً؛ ما جعل تلك القضايا تُترك مفتوحة بلا نهاية غالبًا.

لكن هذا لا يمنع وجود بعض القضايا –من حين إلى آخر– ظهرت فيها الحقيقة حتى عندما زلَّ فيها هولمز. شهدتُ ستًّا من هذا النوع من القضايا، اثنان منها أكثر تشويقًا وأقوى من سائرهم، إحداهما مغامرة «طقوس الدفن» والأخرى هي التي سأسردها الآن.

كان شيرلوك هولمز نادرًا ما يمارس الرياضة لذاتها، ومع ذلك فعدد قليل من الرجال يستطيعون مجاراته في القدرات البدنية، إضافة إلى أنه واحد من أمهر المُلاكمين الذين رأيتهم على الإطلاق في وزنه، إلا أنه كان ينظر إلى الجهد البدني غير الموجه على أنه إهدار للطاقة، ونادرًا ما كان يحشد طاقته، إلا أن تكون لديه قضية أو مهمة ما تحتاج إلى مجهوداته. في تلك الحالات فقط، تجده يسعى بلا كلل ولا تعب. قدرته على الاحتفاظ بلياقته في مثل تلك الظروف كانت أمرًا مذهلًا. كان لا يأكل إلا ما يكفيه، وعاداته بسيطة إلى حد التقشف، ولولا تعاطيه الكوكايين بين الحين والآخر، لما كانت تعيبه أي عادة لديه، ولم يكن يلجأ إليه إلا للتخلص من رتابة الأيام التي لا تقدم له إلا القضايا الهزيلة والأخبار غير المثيرة.

في يوم من أيام أول الربيع كان شيرلوك يشعر بالاسترخاء لدرجة أنه ذهب معي لنتمشى في الحديقة، حيث كان خَضَار الربيع وبراعمه الأولى يزينان الأشجار، والرؤوس اللزجة المدببة لحبات الكستناء تشق طريقها بين الأوراق. تسكعنا معًا ساعتين، مرَّتا ونحن صامتَين أغلب الوقت، كما هي العادة بين شخصين يعرفان بعضهما جيدًا، كانت الساعة الخامسة تقريبًا عندما عدنا إلى شارع بيكر مرة أخرى.

قال خادم الفندق وهو يفتح الباب لنا:

– معذرةً يا سيدي، هناك رجل مهذب كان يسأل عنك.

رمقني هولمز بنظرة معاتبة وقال:

– كم تضيع علينا نزهات بعد الظهر! هل رحل إذن؟

– نعم يا سيدي.

– ألم تطلب منه أن ينتظر بالداخل؟

– بلى يا سيدي، ولقد دخل.

– كم انتظر؟

– نصف ساعة يا سيدي، لقد كان قلقًا للغاية يا سيدي، وظل يسير ويدق بقدميه طوال الوقت الذي مكثه هنا، ثم خرج إلى الممر وصرخ:

– ألن يأتي ذلك الرجل أبدًا؟

هذه كانت كلماته يا سيدي.

فرددت عليه:

- عليك أن تنتظر قليلًا فقط.

فرد قائلًا:

- إذن سأنتظره في الهواء الطلق، فأنا أكاد أختنق هنا، سأعود بعد قليل.

وما إن قال هذا حتى سارع بالخروج ولم يوقفه أيٌّ مما قلتُه.

ثم قال في حين كان يدخل إلى الغرفة:

- حسنًا حسنًا لقد فعلتَ كل ما كان بوسعك.

وما إن دخلنا حتى التفت إليَّ قائلًا:

- هذا أمر مزعج للغاية يا واتسون، لقد كنت في حاجة ماسة إلى قضية، ويتضح من تعجل الرجل أنه جاء في أمر مهم.

- يا إلهي! هذا ليس غليونك على الطاولة، لا بد أنه نسيه هنا قبل أن يذهب.

ثم أخذه ليتفحصه واستكمل قائلًا:

- إنه غليون خشبي قديم جيد، عوده طويل، وخشبه مما يطلق عليه المدخنون الكهرمان. أتساءل كم عدد القطع المصنوعة من الكهرمان حقًّا في لندن؟ بعض الناس يقولون إن علامة الذبابة على الغليون تدل على غليون جيد.

حسنًا، لا بد أنه كان مضطربًا جدًّا لينسى غليونًا يحبه بهذا القدر.

فسألته:

- كيف عرفت أنه يحبه؟

- حسنًا، في تقديري سعر هذا الغليون سبعة أو ستة شلنات، لكنه أصلحه مرتين، مرة أصلح عوده ومرة أخرى أصلح الجزء السفلي، وفي كلتا المرتين -كما ترى- أصلحه برقعة من الفضة، التي لا بد أن تكون قد كلفته أكثر من ثمن الغليون الأصلي.

لا بد أنه يحب هذا الغليون بشدة ليدفع في ترقيعه مرتين أكثر من الثمن الذي كان سيدفعه في شراء واحد جديد.

كان هولمز ما يزال يقلب الغليون في يده وينظر إليه شاردًا، فبادرته بالسؤال:

- هل يوجد شيء آخر؟

فرد قائلًا:

- ليس من المعتاد أن يكون لغليون مثل هذه القيمة عند صاحبه، على الرغم من أنه لا شيء يفوقه في التفرد ما عدا -ربما- الساعات وأربطة الأحذية.

العلامات على هذا الغليون ليست شديدة الوضوح ولا شديدة الأهمية، فصاحب الغليون رجل قوي، أعسر، بأسنان ممتازة، ومهمل في عاداته ولا يحتاج إلى توفير ماله.

ألقى صديقي كل هذه المعلومات بارتجالية كأنه لم يفكر فيها مسبقًا، ولكنه ظل ينظر إليَّ في أثناء كلامه ليرى ما إذا كنتُ أتتبع ما يقول، ولم يكن مني إلا أن علقت على كلامه قائلًا:

– هل تظن أن رجلًا يدخن في غليون بسبعة شلنات لا بد أن يكون بهذا الغنى؟

فرد وهو يخرج القليل من التبغ على كفه:

– هذا خليط جروسفينور، يكلف نحو ثمانية شلنات للأوقية، ولأنه قادر على أن يحصل على تبغ ممتاز أيضًا بنصف الثمن، فلا بد أنه لا يحتاج إلى الاقتصاد.

– وبقية النقاط؟

– يبدو أنه معتاد أن يشعل غليونه من المصابيح والمواقد الغازية، يمكنك أن ترى أنه متفحم تمامًا من هذا الجانب، بالتأكيد لا يمكن أن يسبب عود ثقاب مثل هذا الأثر على الغليون، فلماذا يضع عود الثقاب في هذا الجانب من الغليون؟ لكنك لا يمكنك أن تشعل الغليون من مصباح دون أن تحرق جانبه، وآثار الاحتراق كلها في الناحية اليمنى من الغليون؛ ما يعني أنه يستخدم يده اليسرى لإشعاله. أمسك غليونك وحاول أن تشعله من مصباح، وانظر كيف سيكون أسهل عليك أن تقرب الجانب الأيسر من شعلة المصباح، لأنك تستخدم يدك اليمنى. يمكن أن تقدم الجانب الآخر مرة أو مرتين، لكن لن يكون هذا أمرًا معتادًا، وهذا الغليون دائمًا ما كان يقترب من النار من جانبه الأيمن.

ثم انظر إلى عود الغليون وآثار الأسنان عليه، يحتاج الأمر إلى رجل قوي مفعم بالطاقة لديه أسنان قوية ليستطيع أن يخلِّف مثل هذه العلامات. لكن، إذا لم أكن مخطئًا، فهذا صوت أقدامه يصعد السلم، لذا علينا أن نجد شيئًا أكثر إثارةً من غليونه لنفحصه.

بعدها بلحظة فُتح الباب ودخل علينا شاب رفيع، يرتدي بدلة رمادية أنيقة، وبيده ساعة بنية، توقعت أنه يبلغ من العمر ثلاثين عامًا، لكنه كان في الحقيقة أكبر من ذلك ببضع سنوات. توجه إلينا بالحديث قائلًا:

– أنا آسف، أظن أنه كان عليَّ طرق الباب قبل دخولي، لكن في الحقيقة أنا مشوش للغاية، ولا بد أن هذا هو السبب.

ثم وضع يده على جبينه كأنه يشعر بالدوار وجلس –أو بالأحرى سقط– على الكرسي.

فقال له هولمز بنبرته اللطيفة الهادئة:

– أرى أنك لم تنَم لليلة أو ليلتين، وهذا يهلك الأعصاب أكثر من العمل، وأكثر حتى من الانغماس في المُتع، هل لي أن أسأل كيف أساعدك؟

– أردت أن أستشيرك يا سيدي، لا أعرف ماذا أفعل ويبدو أن حياتي كلها تحطمت تمامًا.

– هل تود معونتي بوصفي محققًا استشاريًّا؟

– ليس ذلك فحسب، أريد رأيك وحكمتك، بوصفك رجلًا من طراز رفيع. أريد أن أعرف ماذا أفعل الآن. وأدعو الله أن تكون قادرًا على مساعدتي.

كان ينفجر بعبارات قصيرة ومتشنجة، وبدا لي أن الكلام في ذاته يؤلمه للغاية، وأنه يعاني ليمكِّن إرادته من الهيمنة على غرائزه.

ثم استكمل قائلًا:

– إنه أمر حساس للغاية، لا يحب أحدٌ أن يتحدث عن حياته الأُسَرية مع الغرباء. أمر شنيع أن أناقش سلوك زوجتي مع رجلين لم أرَهما قط من قبل. أمر مروع أن تحتاج إلى فعل ذلك، لكنني استنفدت كل ما بوسعي، ولم أعد أتحمل. أحتاج إلى نصيحة.

بدأ هولمز بالحديث قائلًا:

– عزيزي السيد جرانت مورنو...

فقام زائرنا من كرسيه مفزوعًا وصاح:

– ماذا! أتعرف اسمي؟

فرد عليه هولمز مبتسمًا:

– إذا كنت ترغب في الحفاظ على سرية هويتك، فأقترح أن تتوقف عن كتابة اسمك على بطانة قبعتك، أو أن توجه الجانب العلوي منها إلى الشخص الذي تتحدث إليه. على أي حال كنت على وشك أن أقول لك إننا استمعنا -أنا وصديقي- إلى العديد من الأسرار الغريبة في هذه الغرفة، وإننا كنا محظوظين كفاية لنساعد في جلب السكين إلى العديد من النفوس المضطربة، وأثق أن بإمكاننا أن نفعل ذلك معك. هل لي أن أسألك، لأن الوقت قد يكون عنصرًا مؤثرًا، أن تخبرنا بالحقائق المتعلقة بقضيتك دون إبطاء؟

وضع زائرنا يده على جبينه مرة أخرى كأنه وجد الأمر مريرًا وصعبًا. كان ظاهرًا من تعبيراته وحركاته أنه رجل محافظ كتوم وعزيز النفس، يفضل كتمان جراحه على البوح بها. ثم فجأة بحركة عنيفة من قبضته المغلقة وكأنه يرمي بما لديه من تحفظ في مهب الريح بدأ قائلًا:

– هذه هي الحقائق يا سيد هولمز: أنا رجل متزوج، تزوجت منذ ثلاث سنوات. كنت أحب زوجتي وتحبني حبًّا عميقًا، وعشنا معًا أسعد حياة يعيشها الأزواج، لم نختلف قط ولو مرة واحدة، لا في الأفكار ولا في الأفعال ولا الأقوال. والآن، منذ الاثنين الماضي، نشأ حاجز بيننا، وفوجئت بوجود شيء ما في حياتها لا أعرف عنه شيئًا كما لو كانت امرأة عابرة في الطريق. ونشعر كأننا غرباء عن بعضنا. أريد أن أعرف لماذا؟ لكن يوجد شيءٌ أود أن أؤكده في البداية وقبل أن أكمل حديثي يا سيد هولمز؛ إيفي تحبني.. فلا تدع أي مجال للشك في ذلك، تحبني من كل قلبها وبكامل روحها، وهي تحبني الآن أكثر من أي وقت مضى. أنا أعرف ذلك، وأشعر به، ولا أريد النقاش فيه أبدًا. يمكن للرجل أن يعرف بسهولة إذا ما كانت امرأة تحبه، لكن يوجد ذلك السر بيننا، ولا يمكننا أبدًا أن نعود كما كنا إلا بعد تصفية هذه المسألة.

فبدأ هولمز يتعجله قائلًا:

– أرجوك أخبرني بالحقائق يا سيد مورنو.

- سأخبرك بما أعرفه عن ماضي إيفي: كانت أرملة عندما قابلتها أول مرة، على الرغم من أنها كانت صغيرة؛ كانت في الخامسة والعشرين فقط، وكانت في ذلك الوقت تُنادى بالسيدة هيربون. ذهبت إلى أمريكا في طفولتها، وعاشت في مدينة أتلانتا، حيث تزوجت ذلك المدعو هيربون، الذي كان محاميًا ذا ممارسات جيدة. كان لديهما طفل واحد، لكن الحمى الصفراء تفشت بشدة في تلك المدينة، ومات في إثرها الزوج والطفل، لقد رأيت شهادة الوفاة تلك. هذا الحادث جعلها تشعر بالسقم من أمريكا، وعادت لتعيش مع عمة لها غير متزوجة في بينر في ميدلسكس. يمكن أن أذكر أيضًا أن زوجها تركها في حال ميسورة، وأنها كان لديها رأسمال من أربعة آلاف وخمسمئة جنيه، استثمرَته جيدًا جدًّا لدرجة أنه كان يحقق لها سبعة في المئة عائدًا شهريًّا في المتوسط. كان قد مرت ستة أشهر على وجودها في بيني عندما قابلتُها، وأحببنا بعضنا، وتزوجنا بعدها ببضعة أسابيع.

أنا أعمل تاجرًا، وهذا يحقق لي دخلًا من سبعمئة أو ثمانمئة جنيه، لذلك وجدنا أنفسنا في رغد من العيش، فاتخذنا منزلًا جميلًا في نوربيري بثمانين جنيهًا سنويًّا. كان الطابع الغالب على منزلنا الصغير طابعًا ريفيًّا، بحكم أنه قريب جدًّا من القرية. يوجد حانة ومنزلان صغيران بجوارنا، ويوجد أيضًا كوخ مقابل لمنزلنا في الناحية المقابلة من الحقل القريب، وباستثناء ذلك فلم يكن هناك أي منازل أخرى إلا على بعد نصف ميل من المحطة. عملي كان يأخذني إلى القرية في مواسم معينة، لكن في الصيف كانت التزاماتي أقل، لذلك فقد نعمنا أنا وزوجتي في منزلنا الريفي بأسعد حياة ممكنة. أؤكد لك أنه لم يكن بيننا أي خلافات إلى أن ظهر هذا الأمر الملعون.

يوجد شيء آخر عليَّ أن أخبرك به قبل أن أكمل: عندما تزوجنا نقلت زوجتي كل ممتلكاتها إليَّ، وكان ذلك خلافًا لرغبتي، فقد رأيت أننا سنكون في وضع سيئ جدًّا إذا حدث أي خلل في تجارتي، لكنها أصرت على ذلك وفعلته. ومنذ نحو ستة أسابيع جاءت إليَّ وقالت لي:

- جاك، عندما أخذتَ أموالي أخبرتني أن أطلب منك ما أريدُه منها وقتما شئتُ.

فرددت عليها قائلًا:

- بالطبع.. فهو كله مالك.

- حسنًا، أريد مئة جنيه.

تعجبت قليلًا عندما سمعت المبلغ الذي طلبته، فقد ظننت أنها تريد فستانًا جديدًا أو شيئًا من هذا القبيل، فسألتها:

- لماذا كل هذا المبلغ؟

فردت عليَّ بنبرتها المداعبة:

- لقد قلت لي إنك ستكون مسؤول حساباتي فقط، ومسؤول الحسابات لا يسأل مثل هذه الأسئلة كما تعرف.

- إذا كان هذا ما تريدينه حقًّا، فيمكنك أن تأخذي المال بالطبع.

- أجل بالطبع.. هذا حقًّا ما أريده.

– ولن تقولي لي لماذا تريدينه؟

– في يوم ما ربما، لكن ليس الآن يا جاك.

لذلك كان عليَّ أن أرضى بذلك، رغم أنها لأول مرة تخفي عني أمرًا. أعطيتها وصلًا مصرفيًّا بذلك المبلغ ولم أفكر في ذلك الأمر ثانيةً أبدًا. ربما لا يكون هذا الأمر متعلقًا بما سيأتي بعد ذلك لكنني ظننت أنه من الأفضل أن أذكره.

حسنًا، لقد أخبرتكما الآن أنه يوجد كوخ قريب من منزلنا، هناك حقل فقط هو ما يفصل بيننا، لكن لكي تصل إلى هناك عليك أن تمشي بمحاذاة الطريق ثم تنعطف وتمر من ممر آخر، خلف هذا الممر تمامًا يوجد بستان صغير لطيف من شجر الصنوبر الأسكتلندي، السير في ذلك الممر يبعث السرور في نفسي دائمًا، فأنا أحب الأشجار وأشعر أنها كائنات ودودٌ جدًّا. كان الكوخ فارغًا طوال الثمانية أشهر التي مكثتها هناك، وهو أمر مؤسف لأنه مبنى جميل بطابقين وفيه شرفة جميلة على الطراز القديم، وحوله أشجار غنية تبعث في المكان كله رائحة الزهور، وقفت أمامه كثيرًا أتأمله، كم من الرائع أن تعيش في مثل هذا المكان.

حسنًا ليلة الاثنين الماضي كنت آخذ نزهة في ذلك الطريق عندما قابلتُ في الطريق عربة فارغة تمشي ناحيتي، ورأيت كومة من السجاجيد وأشياء أخرى مرمية على المنطقة العشبية المقابلة للشرفة، كان من الواضح أن أحدهم قرر أخيرًا أن يزور الكوخ، وتساءلت مَن يمكن أن يكون ذلك الذي جاء للعيش بجوارنا. وما إن نظرتُ إلى الكوخ –بعد أن عبرت بجواره– حتى لاحظت فجأة أن أحدًا ما ينظر إليَّ من النافذة العلوية. لا أعرف ما خطب ذلك الوجه يا سيد هولمز، لكنه أرعبني بمجرد أن نظرت إليه، لقد كنت بعيدًا عن الكوخ عندما نظرت إليه، فلم أستطع أن أتبين ملامحه، لكن كان يوجد شيءٌ ما غير طبيعي، شيءٌ غير آدمي في ذلك الوجه، أو هكذا أحسست حينها. وهرولت ناحية الكوخ لأتمكن من رؤية وجه ذلك الشخص الذي يراقبني عن قرب، لكن ما إن اقتربت حتى اختفى الوجه، اختفى اختفاءً مفاجئًا جدًّا لدرجة أني شعرت أنه اقتُلع من مكانه إلى ظلام الغرفة.

وقفت في مكاني خمس دقائق أحاول أن أفكر في الموضوع وأحلل انطباعاتي عما حدث. لم أستطع أن أتبين ما إذا كان وجه رجل أم امرأة، كان أبعد من أن أتمكن من تبين أمرٍ كهذا. لكن لونه هو أكثر ما أثار دهشتي، كان أبيض كالطباشير، ويستشيط غضبًا، وبدا ساكنًا وجامدًا بشكل صادم وغير طبيعي. لقد أزعجني الأمر لدرجة أني قررت أن أعرف المزيد عن القاطنين الجدد في الكوخ، فاقتربت أكثر ونقرت على الباب ففُتِح مباشرةً، كانت امرأة طويلة هزيلة ذات وجه قاسٍ ومنفر.

سألتني بلكنة شمالية:

– ماذا تريد؟

فأجبتها وأنا أشير برأسي إلى منزلي:

– أنا جاركم في ذلك المنزل، لاحظت أنكم انتقلتم إلى هنا للتو وفكرت أنني يمكنني أن أساعدكم في أي...

– أجل أجل، سنطلب منك حين نريدك.

هذا كل ما نطقته تلك السيدة قبل أن توصد الباب في وجهي، فاستدرتُ وعدت إلى منزلي مستاءً من هذا الرفض الفج. وطوال تلك الليلة، وعلى الرغم من أني حاولت التفكير في أشياءَ أخرى لم أستطع أن أصرف ذهني عما رأيت في النافذة صباحًا، ولا عن وقاحة تلك المرأة. وقررت ألا أخبر زوجتي بأي شيء مما حدث، لأنها امرأة قلِقة وتتوتر بشدة لأصغر الأشياء، ولم أرغب قط أن تشاركني هذه التجربة السيئة التي مررت بها. لكنني أخبرتها على أي حال أن سكانًا جددًا نزلوا بالكوخ، ولم تعلق هي على الأمر. عادةً ما يكون نومي ثقيلًا للغاية، لدرجة أن الأمر طرفة مشهورة بين جميع أفراد العائلة، فلا شيء يمكن أن يوقظني، لكن في تلك الليلة، ولا أعلم إذا كان للأمر علاقة بمغامرتي الصغيرة التي خضتها صباحًا أم لا، لم أستغرق في النوم كعادتي، وكنت نصف نائم عندما بدأت أشعر بوجود حركة في الغرفة، وبدأت أنتبه تدريجيًّا أن زوجتي كانت تستعد للخروج وقد ارتدت أحد فساتينها وهي تضع غطاء الوجه والقبعة. تحركت شفتاي مغمغمًا بكلام ينم عن الدهشة والاحتجاج على هذا التوقيت غير المناسب للاستعداد للخروج، عندها وقعت عيناي نصف النائمتين على وجهها الذي سقط عليه ضوء الشمعة فلم أستطع الكلام من هول الصدمة. رأيت على وجهها تعبيرًا لم أرَه من قبل، وفي الحقيقة لم أكن أتخيل أنها قادرة على أن ترتسم ملامح وجهها بمثله. كانت شاحبة جدًّا وتتنفس بسرعة وتنظر خلسة باتجاه السرير في حين كانت تثبت غطاء وجهها لترى إذا كنتُ ما أزال نائمًا. ثم خرجت من الغرفة دون أن تصدر أي صوت ظنًّا منها أنني ما أزال نائمًا. وبعد ذلك بلحظات سمعت صوت أزيز لا يمكن أن يكون قد صدر إلا من الباب الأمامي. جلست على السرير وضربت زاوية السرير بقدمي لأتأكد أنني مستيقظ حقًّا، ثم أخذت ساعتي من تحت الوسادة. كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. ماذا يمكن أن تفعل زوجتي في الخارج في طريق ريفي بحق السماء؟

جلست نحو عشرين دقيقة أفكر في الأمر وأقلبه في ذهني محاولًا أن أصل إلى تفسير مقبول، وكلما فكرت في الأمر أكثر بدا غير طبيعي وغير مبرر أكثر. كنت لا أزال أفكر في الأمر عندما سمعت الباب يغلق بخفة مرة أخرى وأصوات أقدامها تصعد الدرج، وسألتها لحظة دخولها: «أين كنتِ بحق السماء يا إيفي؟» كان رد فعلها عنيفًا، وأجهشت في البكاء عندما سألتها. رد فعلها العنيف وبكاؤها أقلقاني أكثر من أي شيء آخر، لأنهما كانا ينمان عن ذنب عظيم اقترفته. كانت زوجتي دائمًا امرأة صريحة بطبيعتها ومنفتحة معي للغاية، وصُدمت بشدة عندما رأيتها تتسلل إلى غرفتها تبكي وترتجف لأن زوجها سألها أين كانت.

فسألتني بضحكة مضطربة:

– لقد استيقظت يا جاك؟ لماذا ظننت أنه لا يمكن لأي شيء أن يوقظك؟

فسألتها بنبرة أكثر صرامة:

– أين كنتِ؟

وكنت أرى أصابعها تهتز وهي تخلع غطاء وجهها وهي ترد عليَّ قائلةً:

– أنا لست متعجبة من اندهاشك، أين كنت؟ لا أتذكر أني شعرت بمثل هذا الشعور من قبل، في الحقيقة كنت أشعر أني أختنق، وكانت لديَّ رغبة شديدة في استنشاق القليل من الهواء الطلق. أظن

أنني كنت سأفقد الوعي إن لم أخرج. فخرجت ووقفت بجوار الباب لبضع دقائق حتى شعرت بتحسن واستعدت صحتي.

طوال سردها هذه القصة لم تنظر إليَّ، وكان صوتها غريبًا، ولم تكن تتحدث بنبرتها المعتادة على الإطلاق. كان واضحًا جدًّا أنها لا تقول الحقيقة. لم أرد عليها، لكني استدرت إلى الحائط وقلبي يؤلمني وعقلي مليء بآلاف الأفكار المسمومة من الشك والريبة. ماذا تخبئ زوجتي عني؟ أين كانت في هذه الرحلة الغريبة؟ لم يكن ليطمئن بالي حتى أعرف، لكنني أحجمت عن سؤالها بعد أن كذبت عليَّ في المرة الأولى. طوال الليل ظللت أتقلب في مضجعي أحاول أن أفهم لماذا يمكن أن تفعل ما فعلت. لكن كل تفسير أصل إليه كان غير معقول أكثر من سابقه. كان عليَّ أن أذهب إلى المدينة في ذلك اليوم لكني كنت مضطربًا أكثر من أن أستطيع التركيز في أمور التجارة، وزوجتي تبدو مستاءة مثلي أيضًا، واستشففت من أسئلتها التي تطرحها عليَّ أنها تعرف أنني لم أصدق ما قالته في الليلة السابقة، وأن كل سبل إصلاح ما حدث قد انقطعت بها، لم نتحدث على الإطلاق على طاولة الإفطار، وما إن فرغتُ من فطوري حتى خرجتُ لأتمشى قليلًا لعلي أستطيع التفكير في الأمر أفضل في الهواء الطلق. سرت حتى قصر كريستال، وهناك قضيت ساعة مستلقيًا على الأرض، وعدت ثانية إلى ناربوري في الساعة الواحدة، وصادف في طريق عودتي أن أَمُرَّ أمام الكوخ، فوقفت لحظات لأنظر إلى النافذة وأرى إذا كان الوجه الغريب الذي نظر إليَّ في اليوم السابق سيعيد النظر إليَّ اليوم أم لا، وبينما كنت أقف هناك، تخيل صدمتي يا سيد هولمز عندما فتح الباب ووجدت زوجتي تخرج منه. انعقد لساني ولم أستطع أن أنطق بكلمة عندما رأيتها، لكن مشاعري لم تكن شيئًا مقارنةً بما بدا على وجهها عندما تقابلت أعيننا. بدَت كأنها تتمنى لو تستطيع العودة مرةً أخرى إلى الداخل وألا تراني، لكنها عندما رأت أنه لا جدوى من محاولة إخفاء الأمر تقدمت إليَّ ووجهها مبيض جدًّا وعيناها الخائفتان تكذبان الابتسامة المصطنعة المرتسمة على وجهها. ثم قالت عندما اقتربت مني:

– جاك! لقد أتيت لأرى إذا كنت أستطيع أن أساعد جيراننا الجدد بأي شيء يحتاجون إليه، لماذا تنظر إليَّ هكذا يا جاك؟ أنت لست غاضبًا مني أليس كذلك؟

فرددتُ عليها قائلًا:

– هذا ما كنتِ تفعلينه ليلة أمس إذن.

– ماذا تقصد؟

– لقد أتيتِ إلى هنا أمس، أنا متأكد من ذلك، مَن هؤلاء الناس؟ من يمكن أن تزوريه في ساعة كتلك؟

– لم آتِ إلى هنا من قبل.

هنا صحت فيها قائلًا:

– كيف يمكنك أن تخبريني أن ما أعرفه خاطئ؟ صوتك يتغير في أثناء كلامك. متى أخفيتُ عنكِ سرًّا؟ سأدخل ذلك الكوخ، وأعرف بنفسي ما الذي يحدث هنا.

فشهقت حينها وصاحت صياحًا خارجًا عن السيطرة قائلة:

– لا يا جاك! لا! أرجوك!

ثم شدتني من ساعدي وأنا متجه ناحية الباب، وشدتني بقوة وهي تكمل صياحها قائلةً:

– أترجاك ألا تفعل هذا يا جاك! أقسم لك إني سأخبرك بكل شيء يومًا ما، لكن لن تجني من فعلك هذا إلا التعاسة والشقاء.

فحاولت أن أدفعها عني فازداد تمسكها بي بجنون، وبدا عليها شيء من الاستعطاف وهي تقول لي:

– ثق بي يا جاك! ثق بي هذه المرة فقط، لن تندم على ذلك، أنت تعلم أنني لن أخفي عنك سرًّا إلا لأجلك، حياتنا كلها مهددة بالانهيار في هذا الأمر، إذا جئت إلى المنزل معي سيكون كل شيء على ما يرام، وإذا اقتحمته سينتهي كل شيء بيننا.

كان في صوتها جدية شديدة، وكانت كل حركاتها تدل على يأس شديد؛ ما جعلني أتوقف مترددًا في مكاني أمام الباب، ثم فكرت مليًّا في الأمر وقلت لها:

– سأثق بك على شرط واحد؛ يجب أن تتوقفي عن فعل أي شيء له علاقة بهذا الشيء من الآن. احتفظي بسرك كما تشائين لكن عليكِ أن تعديني أن تنتهي تلك الزيارات الليلية تمامًا، وألا تفعلي أي شيء من تلك الأشياء التي تخفينها عني. أنا مستعد أن أنسى ما حدث شريطة أن تعديني أنه لن يكون المزيد من ذلك في المستقبل.

فتنهدت تنهيدة تنم عن راحة شديدة وصاحت قائلةً:

– كنت واثقة أنك ستثق بي، كل شيء سيكون كما طلبت. هيا بنا الآن إلى المنزل.

وكانت ما تزال تشدني من ذراعي وتدفعني بعيدًا عن الكوخ، وبينما كنا ذاهبين استدرتُ ونظرت إلى نافذة الكوخ لأرى ذلك الوجه الأصفر الغاضب يراقبنا من الأعلى. ماذا يمكن أن يربط بين هذا المخلوق وزوجتي؟ وكيف يمكن أن تكون تلك المرأة الغليظة العنيفة التي رأيتها في اليوم السابق مرتبطة بها؟ لقد كان لغزًا غريبًا لكنني كنت أعرف أن عقلي لن يرتاح مجددًا حتى أعرف حله.

لمدة يومين بعد ما حدث ظللت في المنزل، وبدا لي أن زوجتي ملتزمة الوفاء بما اتفقنا عليه، فهي لم تخرج من المنزل نهائيًّا على حد معرفتي، لكن في اليوم الثالث كان لديَّ وابل من الأدلة على أن وعدها وحده لم يكن كافيًا ليمنعها أن تقع تحت ذلك التأثير الخفي الذي يسرقها من زوجها ومن واجباتها، لقد ذهبتُ إلى المدينة ذلك اليوم لكنني عدت في قطار الساعة 2:40 بدلًا من قطاري المعتاد في الساعة 3:36، وعندما أسرعت الخادمة إلى الصالة مذعورة، سألتها:

– أين سيدتكِ؟

فردت قائلة:

– أظنها خرجت لتتمشى.

فامتلأ رأسي على الفور بالشكوك، وسارعت إلى الدور العلوي لأتأكد أنها ليست في المنزل، وعندما فعلت ذلك لمحت من إحدى النوافذ العلوية الخادمة التي سألتُها للتو تجري عبر الحقل المقابل للمنزل في اتجاه الكوخ، أدركت حينها على الفور ما يعنيه هذا الأمر؛ ذهبت زوجتي إلى هناك وطلبت من الخادمة أن تناديها إن عدتُ إلى المنزل قبل أن ترجع هي، فتملكني الغضب وأسرعت نازلًا على السلالم ومهرولًا

عبر الحقل لأحسم الأمر هذه المرة وللأبد. رأيت زوجتي عائدة مع الخادمة في الممر، لكني لم أتوقف للتحدث إليهما، فالسر الذي أبحث عنه في ذلك الكوخ، السر الذي يلقي بظلاله على حياتي. لم أطرق الباب حتى عندما وصلت، فتحت الباب ودخلت مباشرةً إلى الممر. كل شيء كان هادئًا وساكنًا في الدور السفلي، أما في المطبخ فكان هناك إبريق يُصفِّر فوق النار، وثمة قطة سوداء كبيرة مستلقية في سلَّتها، ولا وجود لأي أثر لتلك المرأة التي رأيتها من قبل، ثم أسرعت إلى الغرفة الأخرى فكانت خاوية كسابقتها، ثم هرعت إلى الدور العلوي لأجد غرفتين خاويتين فارغتين أيضًا. لم يكن في المنزل أي أحد على الإطلاق، وكل الأثاث والصور الموجودين فيه من الأكثر شيوعًا والأردأ منظرًا وجودة على الإطلاق، ما عدا غرفة واحدة، الغرفة التي رأيت في نافذتها ذلك الوجه الغريب. كانت تلك الغرفة جميلة ومريحة، واشتعلت كل شكوكي المريرة بشراسة عندما رأيت صورة كاملة الطول لزوجتي فوق رف المدفأة، كانت قد صُوِّرت بناءً على طلبي منذ ثلاثة أشهر. ظللت هناك كفاية لأتأكد أن المنزل خالٍ تمامًا، ثم خرجت حاملًا في صدري حملًا لم أعرف مثله في حياتي، خرجت زوجتي إلى الصالة عندما عدت إلى المنزل لكني كنت مجروحًا وغاضبًا بشدة لدرجة أني لم أستطع التحدث إليها. تخطيتها لأذهب إلى مكتبي، لكنها تبعتني قبل أن أغلق الباب، وقالت لي:

– أنا آسفة أني أخلفت وعدي يا جاك، لكنني واثقة أنك ستسامحني إذا عرفت كل شيء.

فرددتُ قائلًا:

– أخبريني بكل شيء إذن.

فصاحت هي قائلةً:

– لا أستطيع يا جاك! لا أستطيع!

فرددتُ عليها قائلًا:

– حتى تخبريني من الذي يعيش في ذلك الكوخ، ومن يكون ذلك الذي أعطيتِه تلك الصورة، لا يمكن أن توجد أي ثقة بيننا.

ثم ابتعدتُ عنها وخرجت من المنزل.

كان ذلك أمس يا سيد هولمز، ولم أرها منذ ذلك الموقف، ولا أعرف أي شيء آخر عن هذا الخطب الغريب، هذا أول أمر بمثل هذه الريبة يحدث بيننا، لقد زعزعني لدرجة أنني لا أدري ماذا أفعل، ثم خطر ببالي هذا الصباح أنك أنت الشخص الذي يمكن أن يساعدني ويسدي إليَّ النصيحة في مثل هذه الأمور، فتوجهت إلى هنا على الفور، وها أنا ذا بين يديك، وسأفعل كل ما تأمر به، وإذا وجدتَ أي نقطة لم أوضحها كفاية أرجو أن تسألني عنها، لكن أخبرني بسرعة ماذا عليَّ أن أفعل، فهذا البؤس أكبر مما يمكنني أن أتحمل.

استمعت أنا وهولمز بكل انتباه إلى شهادته الغريبة، التي نقلها إلينا متشنجةً ومقطعةً لأنه كان متأثرًا جدًّا بما يحكي، ثم نطق هولمز أخيرًا قائلًا:

– أخبرني، هل أنت متأكد أن ذلك الوجه الذي رأيته وجه رجل؟

فرد الرجل قائلًا:

– في كل المرات التي رأيته فيها رأيته من مسافة كبيرة، لذلك من المستحيل أن أجزم بمثل هذا الأمر.

– مع ذلك فمن الواضح أنه أزعجك بصفة استثنائية.

– كان لونه غير طبيعي، وكانت ملامحه جامدةً كذلك، وعندما اقتربتُ اختفى في لمح البصر.

– كم مرَّ من الوقت منذ أن طلبتْ منك زوجتك مئة جنيه؟

– شهران تقريبًا.

– هل سبق أن رأيت صورة لزوجها الأول؟

– لا، اندلع حريق كبير في أتلانتا بعد وفاته بمدة قصيرة، واحترقت فيه كل أوراقها.

– ومع ذلك كانت تمتلك شهادة وفاة، لقد قلت إنك رأيتها.

– أجل، لقد استخرجت واحدة أخرى بعد الحريق.

– هل قابلت أحدًا من قبل ممن عرفوها في أمريكا؟

– لا.

– وهل تلقيت رسائل من هناك؟

– لا.

– شكرًا.. سأحتاج إلى التفكير في الأمر لبعض الوقت، إذا كان الكوخ الآن مهجورًا تمامًا فستواجهنا بعض الصعوبات، أما إذا كان الوضع كما أتخيل، وكان أهل ذلك الكوخ قد حُذِّروا من مجيئك أمس، فيمكننا أن نتبين الأمر كله بسهولة. دعني أنصحك إذن بالعودة إلى نوربيري وألقِ نظرة على نوافذ الكوخ، وإذا رأيتَ أنه آهل أرسل لنا برقية، وسنحضُر أنا وصديقي خلال ساعة من إرسالك البرقية، ولن نستغرق الكثير من الوقت حينها حتى نصل إلى حقيقة الأمر.

– وإذا كان لا يزال خاليًا؟

– حينها سآتي غدًا وسأتحدث معك في الأمر. إلى اللقاء الآن. وفوق كل شيء، لا تغضب إلا إذا علمت أن سببًا حقيقيًّا يدعو إلى ذلك.

اصطحبَ صديقي السيدَ جرانت مونرو إلى الباب ثم عاد إليَّ وبادرني بالسؤال قائلًا:

– أخشى أنه أمر سيئ يا واتسون، ما رأيك فيما حكى؟

فرددت عليه:

– يبدو سيئًا للغاية.

– أجل، يوجد ابتزاز في الأمر إلا إذا كنت مخطئًا تمامًا.

– ومن يكون ذلك المبتز؟

– حسنًا، لا بد أنه ذلك المخلوق ذو الوجه الجامد الذي يعيش في الغرفة الوحيدة المريحة في المكان، ويحتفظ بصورتها فوق مدفأته، ثق بكلمتي يا واتسون، يوجد شيء ما مثير للغاية في هذه القضية ولن

أضيعها بأي ثمن.

– ألديك نظرية؟

– أجل.. لديَّ واحدة مبدئية، وسأندهش إن لم تكن صحيحة؛ زوج المرأة الأول في الكوخ.

– لماذا تظن ذلك؟

– كيف يمكننا إذن أن نفسر هلعها الجنوني لئلا يدخل زوجها الثاني إلى ذلك المنزل؟ الحقائق –كما أتصورها– كالآتي: كانت هذه المرأة متزوجة في أمريكا. أصبحت لا تطيق زوجها، أو دعنا نقل إنه مرِضَ بمرض بغيض، وأصبح دميم الشكل أو معتوهًا ربما، فتبتعد عنه في النهاية وترجع إلى إنجلترا، وتغير اسمها وتبدأ حياة جديدة، كما ظنَت. ثم يمر بعد ذلك ثلاث سنوات على زواجها ويجعلها ذلك تصدق أنها في موقف آمن، خصوصًا وأنها قد قدَّمت إلى زوجها شهادة وفاة لرجلٍ غيرت اسمها ليطابق اسمه، حتى اكتشف زوجها الأول المكان الذي تعيش فيه، أو يمكننا أن نفترض أن امرأة عديمة الضمير هي من اكتشفت الأمر وتدَّعي صلتها بزوجها الأول، فيكتبان للزوجة رسائل تهديد بأن يفضحاها، فتأخذ مئة جنيه من أموالها وتحاول أن تشتري صمتهم. وعلى الرغم من ذلك يأتون إليها على أي حال، وعندما يذكر الرجل لزوجته ذكرًا عابرًا أنه يوجد سكان جدد في الكوخ المقابل.. تعرف هي بطريقة ما أنهم مبتزّوها، وتنتظر حتى ينام زوجها وتغامر وتذهب إليهم محاولةً أن تقنعهم أن يتركوها في سلام. عندما لا ينجح الأمر تعاود الكرة مرة أخرى في الصباح التالي، فيقابلها زوجها –كما أخبرنا– في أثناء خروجها من المنزل. ثم تعده ألا تذهب إلى هناك مرةً أخرى، لكن بعد يومين تتعاظم رغبتها في التخلص من هؤلاء الجيران المروعين بشدة في نفسها، وتذهب إليهم آخذة معها الصورة التي غالبًا طلبوها منها سابقًا، وفي منتصف المقابلة تأتي الخادمة لتنبهها أن سيدها قد عاد إلى المنزل، فتدفع الزوجة هؤلاء النزلاء للخروج من الباب الخلفي إلى بستان الصنوبر لعلمها أن زوجها سيأتي إلى الكوخ لا محالة، وربما يكونون قد رأوه آتيًا بالفعل قبل خروجهم، وهكذا يجد الرجل المنزل مهجورًا، لكنني سأكون متفاجئًا حقًّا إذا وجده كذلك حين عودته إليه الليلة. ما رأيك في نظريتي؟

– كلها تكهنات.

– لكنها على الأقل تغطي كل الحقائق. عندما يتبادر إلى علمنا معلومات جديدة لا يمكن تفسيرها بهذه النظرية يمكننا حينها أن نحاول تكوين نظرية جديدة، ولا يمكننا فعل أي شيء آخر حتى تصل إلينا رسالة من صديقنا في نوربيري.

لكننا لم ننتظر كثيرًا؛ فقد جاءت البرقية فور انتهائنا من شرب الشاي، وكان فيها:

«ما زال الكوخ مأهولًا بالسكان.

رأيت الوجه مجددًا في النافذة.

سأقابلكما عند قطار السابعة.

ولن أفعل شيئًا حتى مجيئكما».

كان مُنتظرًا في المحطة عندما خرجنا من القطار، واستطعنا أن نرى في ضوء مصابيح المحطة أنه كان شاحبًا للغاية، يرتجف من القلق، وما إن وصلنا إليه حتى وضع يده على كتف صديقي قائلًا:

– ما زالوا هناك يا سيد هولمز، رأيت أنوار الكوخ عندما عدت، علينا أن ننهي هذا الأمر الآن وللأبد.

فسأله هولمز ونحن في الطريق إلى هناك:

– ما خطتك إذن؟

– سأقتحم الكوخ وأرى بنفسي مَن في المنزل، وأرغب أن تكونا موجودين معي شاهدَين.

– أنت مصمم أن تفعل ذلك على الرغم من تحذير زوجتك لك وإصرارها أنه من الأفضل ألا تحل غموض هذا السر.

– أجل أنا مصمم.

– حسنًا، أظن أنك محق؛ فأي حقيقة أفضل من شك لا نهاية له. هيا بنا نذهب إلى هناك على الفور. بالطبع نحن نضع أنفسنا في موقف سيئ قانونيًّا، لكنني أظن أن الأمر يستحق.

كانت ليلة حالكة الظلام، وقد بدأت أمطار خفيفة في الهطل عندما انتقلنا من الطريق الرئيس إلى ممر ترابي ضيق تحوطه شجيرات من الناحيتين. على الرغم من ذلك كان السيد جرانت مونرو يتقدم مسرعًا ونحن نتعثر خلفه نحاول اللحاق به.

وما إن رأينا نورًا من بعيد حتى سمعناه يغمغم مشيرًا إليه:

– ها هي أضواء منزلي، وها هو الكوخ الذي سأدخله.

انعطفنا عند ناصية الطريق في حين كان يتحدث إلينا، لم يكن باب الكوخ مغلقًا بإحكام، كان ذلك واضحًا، لأن خطًّا من النور كان يضيء وسط العتمة ناحية الكوخ، وكانت هناك نافذة في الدور العلوي مضيئة بشدة. وعندما نظرنا إليها رأينا غشاوة داكنة تتحرك من خلال الشيش.

فصاح السيد جرانت مونرو:

– ها هو ذلك المخلوق، يمكنكما أن تريا بنفسيكما أن هناك أحدًا في الداخل، الآن اتبعاني وسنعرف كل شيء.

اقتربنا من الباب لكن فجأة ظهرت امرأة ووقفت في الخط الذهبي الذي رسمه ضوء المصباح، لم أستطع أن أرى وجهها في الظلام، لكن ذراعاها كانتا ممتدتين ويبدو أنها تتوسل. وكانت تصيح:

– بالله عليك، لا تفعل يا جاك. كان لديَّ إحساس داخلي أنك ستأتي هذه الليلة، ثق بي ثانية، ولن يكون هناك أي داعٍ للندم.

فصاح الرجل:

– لقد وثقت بك أكثر من اللازم يا إيفي، دعيني الآن، عليَّ أن أدخل أنا وأصدقائي لننهي هذا الأمر هذه المرة وإلى الأبد.

ودفعها بعيدًا عنه، وتبعناه. وما إن دفع الباب حتى أسرعت امرأة طويلة باعتراض طريقه لتمنعه من الدخول، لكنه دفعها إلى الخلف، وفي لحظتها كنا جميعًا نصعد الدرج. دخل جرانت مونرو الغرفة

المضيئة بالأعلى ونحن خلفه تمامًا.

كانت غرفة مريحة ومفروشة بأثاث مميز، وبها شمعتان تضيئانها فوق الطاولة وأخريان فوق رف المدفأة، وفي ركن من أركان الغرفة كانت هناك قدمان تتدليان لشخص يجلس على المكتب، بدا أنها طفلة صغيرة. أدارت وجهها بعيدًا حين دخلنا، لكننا استطعنا أن نرى أنها كانت ترتدي فستانًا أحمر، وأنها ترتدي قفازات بيضاء طويلة، وعندما استدارت باتجاهنا رأينا أغرب درجات الألوان التي يمكن أن تراها على وجه، وجمودًا غريبًا في ملامحها كأنها لا تحمل أي تعبيرات. تقدم هولمز نحوها ضاحكًا ووضع يده خلف أذنها ونزع عن وجهها القناع الذي كان يخفي ملامحها، كانت فتاةً سوداء بشرتها داكنة كالفحم وأسنانها البيضاء تشرق لنا من ابتسامتها وهي تنظر إلى وجوهنا المذهولة. انفجرتُ ضاحكًا لما بعثته نظراتها وابتسامتها المبتهجة. لكن جرانت مونرو وقف يحدق في ذهول قابضًا بيده على حلقه، ثم صاح أخيرًا:

- يا إلهي! ما معنى كل هذا؟

فصاحت زوجته وهي تدخل الغرفة بوجه صارم رافعةً رأسها في عزة نفس:

- أنا سأخبرك ما معنى هذا كله.. لقد أجبرتني أن أقول لك على الرغم من أني لم أُرِد أن أفعل ذلك الآن. والآن على كلينا أن يتصرف تجاه الموضوع بأحسن صورة، زوجي مات في أتلانتا، لكن ابنتي نجت.

- ابنتك؟

فأخرجَت القلادة الفضية المعلقة في صدرها وقالت مشيرة إليها:

- لم ترَ هذه مفتوحة من قبل.

- لم أكن أعرف أنها تُفتح.

فلمست زنبركًا ففُتحت القلادة، كانت هناك صورة شخصية لرجل وسيم على نحو لافت للنظر ويبدو ذكيًا أيضًا، لكنه يحمل سمات الأفارقة بجلاء لا يُختلف عليه.

قالت السيدة:

- هذا جون هيربون، لم أعرف رجلًا بمثل نبله في حياتي، لقد تخليت عن عرقي وقطعت صلتي بهم لأتزوجه، ولم أندم ولو للحظة واحدة على هذا الأمر، هذا في حين كان حيًّا، لكن من سوء حظنا أن ابنتنا الوحيدة حملت مظهر عرقه لا عرقي، بل وكانت أيضًا أسمر من أبيها بكثير، ولكن لا يعنيني سمراء أم شقراء هي ابنتي صغيرتي، حبيبتي التي أرعاها وأدللها.

هُرعت الفتاة تجاه أمها عندما سمعت هذه الكلمات وتشبثت بفستان أمها. وأكملت أمها:

- عندما تركتها في أمريكا.. كان ذلك فقط لأن صحتها كانت واهنة ويمكن أن تسوء أكثر إذا سافرت على هذه الحالة، فعهدتُ إلى امرأة أسكتلندية -كانت تخدمنا من قبل- هناك برعايتها. لم أفكر ولو لحظة في أن أتخلى عن طفلتي. لكن عندما رمتك الظروف في طريقي يا جاك وأحببتك.. خفت أن أخبرك عن الفتاة، لقد خفت أن أخسرك ولم أمتلك الشجاعة الكافية لأخبرك، أحسست أن عليَّ الاختيار بينكما - وليسامحني الله- في لحظة ضعف وابتعدت عن طفلتي الصغيرة ثلاث سنوات. ثلاث سنوات أبقيت

وجودها سرًّا ولم أخبرك، لكنني كنت أتواصل مع ممرضتها وكنت أعلم أنها على ما يرام، ولكن في النهاية لم أستطع أن أكبح رغبتي في رؤيتها مرة أخرى. وكل محاولاتي لتجاهل هذه الرغبة الجامحة والسيطرة عليها باءت بالفشل. فأرسلتُ المئة جنيه إلى الممرضة وأعطيتها تعليماتٍ أن تستأجر هذا الكوخ لكي تأتي إلى هنا كجارة عابرة، ولا أحتاج أن أظهر أنا في الصورة على الإطلاق. وكنت حذرة جدًّا؛ فطلبت منها أن تبقي الطفلة في المنزل طوال النهار، وأن تغطي وجهها ويديها لئلا يراها أحد من النافذة فتنتشر الأقاويل عن وجود فتاة سوداء في الجوار. لو لم أكن حذرة لهذا الحد لكان أكثر حكمة، لكنني كنت شبه مجنونة، وشلَّني الخوف من أن تعرف الحقيقة.

أنت أول من أخبرني أن الكوخ فيه نزلاء جدد. كان عليَّ الانتظار حتى الصباح، لكني لم أستطع أن أنام من الإثارة، فحاولت أن أتسلل دون أن تشعر بي لأنني أعلم أنه من الصعب إيقاظك، لكنك رأيتني وكان هذا بداية مشكلاتي. وفي اليوم التالي كان سري تحت رحمتك، لكنك امتنعت بشهامة عن اكتشافه، وبعد ثلاثة أيام استطاعت الممرضة والفتاة أن يهربا من الباب الخلفي في الوقت المناسب وأنت تدخل من الباب الأمامي. والآن، الليلة أنت أخيرًا تعرف كل شيء، وأنا أسألك ماذا سيحل بنا الآن، أنا وطفلتي؟

وعقدت يديها منتظرة إجابة من زوجها.

مرَّت عشر دقائق طوالًا، حتى كسر جرانت مونرو الصمت بإجابته التي أُحب أن أتذكرها: حمل الفتاة الصغيرة وقبَّلها ثم –وهو ما يزال يحملها– مد يده إلى زوجته متجهًا إلى الباب وقال لها:

– يمكننا أن نفكر في الأمر على مهل في المنزل، أنا لست رجلًا شديد الصلاح يا إيفي، ولكني أظن أنني أفضل مما ظننتِ.

وتبعناهما أنا وهولمز في الممر حتى أمسك صديقي بكمي عندما خرجنا وقال لي:

– أظن أننا من الأفضل أن نتجه إلى لندن.

ولم ينطق بكلمة أخرى عن القضية حتى وقت متأخر من تلك الليلة، حين كان يحمل شمعةً مضاءة متجهًا إلى غرفة نومه، وقال لي:

– واتسون، إذا لاحظت في أي وقت أنني واثق أكثر من اللازم في قدراتي أو أنني لا أعامل قضية بالاهتمام الذي تستحقه، أرجوك أن تهمس فقط في أذني «نوربيري»، وسأكون ممتنًّا لك للغاية.

مغامرة كاتب في مؤسسة أوراق مالية

بعد مدة وجيزة من زواجي، اشتريت عيادة طبية في حي بادنجتون. كان السيد فاركوهار العجوز، الذي اشتريتها منه، يحظى بعمل ممتاز فيها، لكن عوامل عديدة مثل تقدمه في السن، وإصابته بمرض «الرقاص العصبي»، أضعفته كثيرًا وخففت أوقات عمله. الجمهور بطبيعته يعتقد أن الطبيب الذي يشفي الآخرين، لا بد أن يكون هو نفسه في صحة جيدة، بل وينظر بعين الارتياب إلى الطبيب الذي يكون مرضه فوق ما تستطيع عقاقيره أن تشفيه. وهكذا، عندما تدهورت صحة سابقي هذا، تراجع عمله، إلى أن اشتريت العيادة منه. وكان دخله قد انخفض من ألف ومئتي جنيه في العام إلى أكثر بقليل من ثلاثمئة جنيه فحسب. ومع ذلك، فقد كنت أثق بشبابي ونشاطي، كما كنت مقتنعًا بأن العيادة، في غضون سنوات قليلة، سوف تزدهر كما كانت.

لمدة ثلاثة أشهر بعد حصولي على هذه العيادة، ظللت عاكفًا على عملي، ولم أرَ صديقي شيرلوك هولمز إلا لمامًا؛ إذ كنت مشغولًا جدًّا، فلم أستطع الذهاب إلى شارع بيكر، ونادرًا ما ذهب هو نفسه إلى أي مكان إلا لعمل تتطلبه مهنته. لذلك، فوجئت في صباح أحد أيام شهر يونيو، وأنا جالس أقرأ «الصحيفة الطبية البريطانية» بعد أن تناولت فطوري، عندما سمعت جرس الباب يرن، وأعقبته صيحة عالية لرفيقي القديم.

قال وهو يدخل الغرفة:

– آه يا عزيزي واتسون، أنا سعيد جدًّا برؤيتك! أرجو أن تكون السيدة واتسون قد تعافت تمامًا من ثوراتها المرتبطة بمغامرتنا في قضية «علامة الأربعة».

قلت وأنا أصافحه بحرارة:

– شكرًا لك.. كلانا بخير، وكل شيء على ما يرام.

جلس على الكرسي الهزاز، وتابع:

– آمل أيضًا أن تكون مشكلات عملك الطبي لم تمحُ تمامًا اهتمامك بمشكلاتنا الاستنتاجية الصغيرة.

أجبت:

– على العكس من ذلك؛ ففي الليلة الماضية فقط، كنت أتصفح مذكراتي القديمة، وأصنف بعض استنتاجاتنا السابقة.

– أرجو ألَّا تكون مجموعتك قد أُغلقت.

– مطلقًا، لا أرغب في شيء أكثر من الحصول على المزيد من هذه التجارب.

– أتريدها اليوم مثلًا؟

– نعم، اليوم إن أردت.

– وتسافر حتى برمنجهام؟

– بالتأكيد.

– وعملك؟

– إنني أقوم بأعمال جاري في أثناء غيابه، وهو على استعداد دائمًا لسداد الدين.

أسند هولمز ظهره إلى الخلف في مقعده، وقال وهو ينظر إليَّ بتمعن من تحت جفنيه نصف المغلقين:

– مَرْحَى! لا شيء يمكن أن يكون أفضل من هذا، ألاحظ أن وعكة أصابتك مؤخرًا، فنزلات البرد الصيفية دائمًا ما تكون متعبة بعض الشيء.

– لزمتُ المنزل من جراء إصابتي بالبرد الشديد لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع الماضي. ومع ذلك، أظنني شفيت من كل أثر له.

– أنت كذلك، تبدو قويًّا بشكل ملحوظ.

– وكيف عرفت هذا؟

– صديقي العزيز، أنت تعرف أساليبي.

– هل استنتجته إذن؟

– بالتأكيد.

– من أي شيء؟

– من خُفّيك.

فنظرت إلى أسفل نحو خفيّ المصنوعين من الجلد المتين، وكنت على وشك أن أقول: «كيف بحق السماء؟»، لكن هولمز أجاب عن سؤالي قبل أن أطرحه:

– خُفّاك جديدان، ومن الواضح أنه لم يمر وقت على شرائك لهما أكثر من بضعة أسابيع، فإن نعليهما اللذين توجههما نحوي في هذه اللحظة، محترقان قليلًا. وللحظة، ظننت أنهما ربما قد تعرضا للبلل، فاحترقا عندما أردت تجفيفهما، ولكن بداخل الخف بطاقة دائرية صغيرة من الورق تحمل اسم صاحب المتجر، وبالطبع قد تكون الرطوبة أزالت هذه البطاقة. لقد كنتَ إذن جالسًا وقدماك ممدودتان نحو النار، الأمر الذي لا يفعله أي إنسان في شهر يونيو المطير، إلا إذا كانت صحته معتلة.

وكما هي طريقة تفكير هولمز الاستنتاجية، بدا ذلك في منتهى البساطة عند شرحه. قرأ الفكرة في ملامحي، وابتسم ابتسامة تشوبها المرارة، ثم قال:

– أخشى أنني أكشف عن طرقي عندما أشرح أدلتي، فالنتائج من دون أسباب تبدو أكثر إثارة للاهتمام. إذن، هل أنت مستعد للمجيء معي إلى برمنجهام؟

– بالطبع، ما القضية؟

– ستسمعها كاملة في القطار؛ فمُوَكلي ينتظرنا في عربته بالخارج، هل يمكنك أن تأتي على الفور؟

– أمهلني بضع دقائق.

كتبت ملاحظة إلى جاري، وهُرعت إلى الطابق العلوي لشرح الأمر لزوجتي، وانضممت إلى هولمز عند عتبة الباب.

أشار هولمز إلى لافتة نحاسية، وقال:

– جارك طبيب.

– نعم، اشترى عيادة مثلما فعلتُ أنا.

– أهي عيادة قديمة؟

– نعم، مثل عيادتي تمامًا.. كلتاهما هنا منذ بناء البيت.

– إذن، حصلت أنت على أفضل العيادتين.

– أعتقد أنني فعلت، ولكن كيف عرفت؟

– عرفت ذلك من الدرج، يا ولدي، فإن درجات سلمك متآكلة بمقدار ثلاث بوصات أعمق من درجات سلم جارك. هذا الرجل المحترم الموجود في العربة هو مُوَكِّلي السيد «هول بيكروفت». اسمح لي أن أقدمك إليه. جهز خيولك –أيها الحوذي– يكاد الوقت أن ينفد قبل أن نلحق بالقطار.

الرجل الذي وجدت نفسي أواجهه، كان شابًا قوي البنية، ناضر البشرة، له وجه صريح وصادق، شاربه خفيف أصفر اللون، يضع على رأسه قبعة عالية لامعة جدًّا، ويرتدي بدلة أنيقة سوداء جعلته يبدو على حقيقته –شابًا حضريًّا أنيقًا– من طبقات سكان لندن المعروفة باسم «كوكني»، ممن يتطوعون في مختلف فرق الجيش، ومعظمهم من الرياضيين ولا سيما المصارعين. كان وجهه المستدير المائل إلى الحمرة ينضح بالبهجة غير المفتعلة، ولو أن زاويتي فمه بدتا لي وكأنهما مسحوبتان قليلًا إلى أسفل في تعبير ينم عن الحزن. ومع ذلك، لم أتمكن من معرفة المشكلة التي ألجأته إلى شيرلوك هولمز إلا بعد أن صرنا جميعًا داخل عربة من الدرجة الأولى، وبدأ القطار يسير في رحلتنا إلى برمنجهام.

علق هولمز قائلًا:

– تستغرق رحلتنا سبعين دقيقة، يمكنك يا سيد «هول بيكروفت» أن تخبر صديقي بتجربتك الشائقة تمامًا كما أخبرتني بها، أو بمزيد من التفاصيل إن أمكن، ولا شك أن التكرار سيفيدني في تتبع تعاقب الأحداث مرة أخرى. إنها يا واتسون قضية قد تثبت أنها تنطوي على شيء ما، أو قد تثبت أنها لا تنطوي على أي شيء، ولكنها –على الأقل– تقدم تلك المزايا الاستثنائية والغريبة العزيزة بالنسبة إليك وإليَّ. والآن، تفضل يا سيد بيكروفت، ولن أقاطعك مرة أخرى.

نظر إليَّ رفيقنا الشاب وقد برق في عينيه وميض، فاستهلَّ الحديث قائلًا:

– أسوأ ما في هذه القصة أنني أظهرت نفسي كأحمق مخدوع، وما كان بإمكاني فعل شيء آخر؛ ولكنني إذا فقدت وظيفتي ولم أحصل على أي شيء في المقابل، فسوف أشعر بمدى السذاجة التي كنت عليها. ولتعلم أنني لا أجيد سرد القصص يا دكتور واتسون، ولكن إليك ما حدث معي: حصلتُ على وظيفة في مؤسسة «كوكسون وودهاوس» في منطقة «داربرز جاردنز»، ولكنهم أشهروا إفلاسهم فجأة بسبب القرض الفنزويلي، كما تتذكر بلا شك، وحلَّ مكانهم مستثمر بغيض. كنت أعمل معهم مدة خمس سنوات، قدَّم لي فيها السيد «كوكسون» العجوز شهادة حسن سيرة وسلوك عندما جاءتهم الضربة القاضية. لكن بالطبع، أصبحنا بعدها نحن الكَتَبَة؛ السبعة والعشرين، في الشارع نسير على غير هدى. حاولت البحث عن عمل هنا وهناك، ولكن دون جدوى؛ إذ كان يوجد الكثير جدًّا من الشبان المتضررين مثلي. وهكذا ظل الأمر على ما هو عليه مدة طويلة. كنت أتقاضى لدى «كوكسون» ثلاثة جنيهات أسبوعيًا، ادخرتُ منها نحو سبعين جنيهًا، لكنني سرعان ما أنفقتها كلها وأنا من دون عمل، وأصبحت بالكاد أعثر على ثمن طوابع البريد أو ثمن المظروف الذي ألصقها عليه لأرسلها إلى إعلانات

طلب الوظائف. أبليت حذائي من كثرة صعود سلالم مكاتب العمل وهبوطها، وبدا أنني لن أعثر على وظيفة أبدًا.

وأخيرًا، عثرت على وظيفة شاغرة في مؤسسة «موسون وويليامز» للأوراق المالية الكبرى بشارع لومبارد. وأجرؤ على القول إن الأوراق المالية ليست من اختصاصي، ولكنها من أغنى المؤسسات الموجودة في لندن على الإطلاق. كان من المقرر الرد على الإعلان بالخطابات فقط، فأرسلت إليهم طلب التقدم للوظيفة مرفقًا بصور من مؤهلاتي، لكن دون أدنى أمل في الحصول عليها. وبمرور أسبوع، تسلمت خطابًا تردُّ فيه المؤسسة على طلب تقدمي للوظيفة، ويطلبون مني الحضور يوم الاثنين لأتسلم عملي الجديد في الحال، بشرط أن يكون مظهري مقبولًا. لا أحد يعرف كيف جرت الأمور لأحصل على تلك الوظيفة من بين آلاف المتقدمين لها، يشاع أن المدير يدخل يده في كومة من الخطابات، ويختار أول خطاب تمسك به يده. وعلى أي حال، كان خطابي هو الأكثر حظًّا هذه المرة. كان الراتب يزيد جنيهًا واحدًا في الأسبوع على راتبي السابق، في حين أن واجبات العمل هي نفسها تقريبًا.

والآن سأتناول الجزء الغريب في هذه المسألة: حسنًا، كنت جالسًا أدخن في ذلك المساء نفسه بعد أن تلقيت خطاب قبولي في الوظيفة، عندما جاءتني صاحبة النزل ببطاقة مطبوع عليها: «آرثر بينر، وكيل مالي»، لم أسمع الاسم من قبل، ولم أستطع تخيل ما يريده مني هذا الرجل؛ فطلبت منها إدخاله، ظهر في هيئة رجل متوسط الحجم، أسود الشعر والعينين واللحية، مع لمسة من اللمعان حول أنفه. اتسمت طريقة حديثه السريعة بالجدية والاختصار، كرجل يعرف قيمة الوقت.

قال:

– أنت السيد «هول بيكروفت» على ما أعتقد؟

أجبته:

– نعم يا سيدي، وأنا أدفع الكرسي تجاهه.

– هل كنت تعمل مؤخرًا في مؤسسة «كوكسون وودهاوس»؟

– نعم يا سيدي.

– والآن، أنت ضمن فريق عمل مؤسسة «موسون»؟

– بالضبط.

فقال:

– حسنًا، الحقيقة هي أنني سمعت بعض القصص الرائعة عن كفاءتك المالية. أتتذكر باركر، مدير «كوكسون»؟ أعتقد أنه لم يوفِك حقك من المديح.

وبالطبع، كان من دواعي سروري سماع هذا الإطراء. لطالما كنت ماهرًا جدًّا في أعمال المكتب، لكنني لم أحلم قط بأن يتكلم عني أحد في المدينة على هذا النحو. فعاد وسألني:

– ألديك ذاكرة جيدة؟

أجبته بتواضع:

– إلى حد ما.

– هل بقيت على اتصال مع السوق في المدة التي كنتَ فيها بلا عمل؟

– نعم، كنت أقرأ بورصة الأوراق المالية كل صباح.

فصاح قائلًا:

– إذن، فهذا يوضح تطبيقًا حقيقيًّا، هذا هو الطريق إلى الازدهار! هل تمانع أن أختبرك؟ لنقُل؛ ماذا عن أسهم شركة «إيرشايرز»؟

– مئة وستة وربع إلى مئة وخمسة وسبعة أثمان.

– وشركة «نيوزلاند المتحدة»؟

– مئة وأربعة.

– و «بروكلين هيلز» البريطانية؟

– سبعة إلى سبعة وستة.

فصاح رافعًا يديه، وقال:

– رائع.. هذا يتفق مع كل ما سمعته، يا بني! أنت أفضل من أن تعمل كاتبًا في مؤسسة «موسون»!

أذهلني قوله، كما يمكنك أن تتصور. وقلت:

– حسنًا، لا ينظر إليَّ الآخرون كما تنظر إليَّ يا سيد بينر. واجهت الكثير من الصعوبات حتى حالفني الحظ بالتقدم لهذه الوظيفة، وأنا سعيد جدًّا بالحصول عليها.

– ويحك، يا رجل! يجب أن تُحلِّق بطموحك أعلى من ذلك. لستَ في مركزك الحقيقي، والآن سأخبرك كيف سيسير الأمر؛ ما أستطيع تقديمه لك هو قليل جدًّا مقارنة بما تمتلك من قدرات، ولكن عند مقارنته براتبك في «موسون»، فهو النور بالنسبة إلى الظلام. دعني أرَ الآن، متى ستذهب إلى مؤسسة «موسون»؟

– يوم الاثنين المقبل.

– ها، ها! أعتقد أنني أخاطر بالقول إنك لن تذهب إلى هناك أبدًا.

– لن أذهب إلى ماذا؟ مؤسسة «موسون»؟

– طبعًا، لن تذهب إليها، يا سيدي، لأنه بحلول ذلك اليوم، ستكون مدير أعمال شركة «فرانكو-ميدلاند» للأدوات المنزلية، التي لها مئة وأربعة وثلاثون فرعًا في مدن وقرى فرنسا، غير فرع بروكسل، وفرع سان ريمو.

سحب ذلك أنفاسي، فقلت:

– ولكنني لم أسمع بهذه الشركة مطلقًا.

– طبعًا لم تسمع عنها، لأنها تأسست في هدوء، لأن جميع عقود استثماراتها الرأسمالية اختصت أناسًا بعينهم، ومن الخير أن نجعل الجمهور يشترك فيها، إن من مؤسسيها أخي «هاري بينر» الذي اختاره مجلس الإدارة مديرًا عامًّا لهذه الشركة، وهو يعرف أنني على دراية بالأمور هنا في لندن، وطلب مني أن

أبحث عن رجل كُفء، بأجر بسيط؛ شاب طموح، ومتقد الحماس. فحدثني عنك باركر، وهذا ما جاء بي إلى هنا الليلة، نستطيع أن نعرض عليك مبلغًا بسيطًا في البداية؛ خمسمئة جنيه.

صحت قائلًا:

– خمسمئة جنيه في العام؟!

– هذا فقط في البداية، كما ستحصل على عمولة بنسبة واحد في المئة على جميع الأعمال التي يقوم بها وكلاؤك، ويمكنك أن تأخذ كلمة مني، بأن هذه العمولة ستصل إلى أكثر من راتبك.

– ولكني لا أعلم شيئًا عن الأدوات المنزلية.

– تكفينا معرفتك بالأرقام يا بُني.

كان رأسي يطنُّ، وبالكاد استطعت الجلوس على الكرسي. وفجأة، أصابتني موجة باردة من الشك بالقشعريرة. قلت:

– يجب أن أكون صريحًا معك يا سيدي. بالرغم من أن «موسون» سيعطيني مئتي جنيه فقط، فإنه راتب مضمون. والحقيقة أنني أعرف الآن القليل جدًّا عن شركتك التي...

صاح في نشوة ابتهاج:

– آه، يا لذكائك! هذا هو نوع الرجل الذي يناسبنا تمامًا؛ لست بالرجل الذي ينخدع بالمغريات، وإنك لعلى حق. والآن، إليك ورقة مالية بقيمة مئة جنيه، وإذا اتخذت قرارًا بشأن العمل معنا، فيمكنك وضعها في جيبك على أنها دفعة مقدمة لراتبك.

– إنه لكرم منك، متى أتسلم عملي الجديد؟

أجاب:

– الساعة الواحدة من مساء الغد، في برمنجهام، وفي جيبي خطاب ستأخذه لأخي، ستجده في رقم 12 ب شارع كوربوريشن، حيث توجد المكاتب المؤقتة لشركتنا. وبالطبع، لا بد أن يعتمد أخي عقد العمل بيننا، وكل شيء سيكون على ما يرام.

– الحقيقة أنني لا أعرف كيف أعبر لك عن امتناني يا سيد بينر.

– لا شيء يا بني، لم تحصل إلا على ما تستحقه. ويوجد شيء صغير أو شيئان –مجرد رسميات– يجب أن أسويهما معك؛ بجانبك هناك قطعة من الورق، لطفًا أن تكتب فيها الآتي: «أنا على استعداد تام للعمل في منصب مدير أعمال شركة فرانكو- ميدلاند براتب ابتدائي لا يقل عن خمسمئة جنيه في العام».

فعلتُ ما طلب، وناولته الورقة، فوضعها في جيبه. ثم قال:

– شيء أخير، ماذا تنوي أن تفعل حيال «موسون»؟

نسيت في غمرة فرحي كل شيء عن «موسون» فقلت:

– سأكتب لهم استقالة.

– هذا تحديدًا ما لا أريدك أن تفعله، دخلت في جدال طويل بخصوصك مع مدير مؤسسة «موسون»، كنت قد ذهبت لأسأله عنك، وكان رده مسيئًا جدًّا؛ اتهمني بإغرائك لترك الخدمة في مؤسسته، والكثير

من هذا الهراء، وفي النهاية، انفعلت وفقدت صوابي وقلت له: إذا أردت رجالًا أكفاء، فعليك أن تدفع لهم أجورًا مجزية. فقال: سيفضِّل القبول بأجرنا القليل، على أجرك الكبير. فقلت له: أراهنك على ورقة بخمسة جنيهات، على أنه إذا عرف عرضي، فلن تراه مرة أخرى، فكان نص رده: «انتهينا! نحن انتشلناه من البالوعة، ولن يتركنا بهذه السهولة». صحت قائلًا:

– الوغد الوقح! لم يسبق لي أن رأيته في حياتي، فلماذا أضعُ له اعتبارًا بأي شكل من الأشكال؟ وبالتأكيد لن أكتب إليه إذا كنت تفضل ذلك.

قال وهو ينهض من فوق الكرسي:

– حسنًا! هذا وعد! كم أنا مسرور أن أحصل لأخي على رجل كفء مثلك. هاك المئة جنيه مقدم راتبك، وهاك الخطاب، دوِّن العنوان: 126 ب شارع كوربوريشن، وتذكر أن الموعد هو الساعة الواحدة من مساء الغد، طابت ليلتك، وعسى أن تنال كل ما تستحقه من ثروة!

هذا كل ما أتذكره مما دار بيننا من حديث، ولك أن تتصور يا دكتور واتسون، مدى سعادتي بهذا الحظ الرائع والاستثنائي. بقيت نصف الليلة، جالسًا أفكر في الأمر، وفي اليوم التالي قطعت تذكرة الذهاب إلى برمنجهام في قطار سيوصلني قبل الميعاد بمدة طويلة. فلما وصلت إلى هناك، أخذت أمتعتي إلى الفندق في نيو ستريت، ثم قطعت طريقي إلى العنوان الذي أعطاني إياه.

وصلت إلى العنوان قبل ربع ساعة من الموعد المحدد، لكنني ظننت أن ذلك لن يحدث فرقًا. كان 126 ب ممرًا بين متجرين كبيرين، يؤدي إلى سلم حجري متعرج، يوصل إلى عدة شقق مؤجرة، كمكاتب لبعض الشركات وأرباب المهن الحرة. وكتبت أسماء شاغلي هذه المكاتب على الجزء السفلي من الحائط، ولكن لم يكن بينها اسم شركة «فرانكو- ميدلاند للأدوات المنزلية» تلك. وقفت لبضع دقائق وقد غاص قلبي في حذائي، وتساءلت عما إذا كان الأمر برمته خدعة متقنة أم لا. عندها جاء رجل وخاطبني باسمي، كان يشبه إلى حد كبير الرجل الذي رأيته في الليلة السابقة، الصوت والهيئة نفسهما، لكنه كان حليق اللحية، وشعره أفتح من ذاك. اقترب مني وسألني:

– هل أنت السيد هول بيكروفت؟

فقلت:

– نعم.

فقال:

– أوه، كنت أنتظرك، ولكنك جئت قبل الموعد بوقت قليل. وصلني خطاب من أخي في هذا الصباح، يثني فيه عليك ويمتدحك بصوت عالٍ.

– كنت أبحث عن المكتب للتو، قبل أن تأتي.

– لم يكتب اسمنا هنا، لأننا استأجرنا هذه المكاتب المؤقتة الأسبوع الماضي فقط. تعال معي، وسنتحدث عن الأمر.

تبعته إلى قمة درج بالغ الارتفاع، كانت مكاتب الشركة عبارة عن غرفتين صغيرتين خاويتين ومغبرتين، عاريتين من السجاد والستائر. ظننت أني سأجده مكانًا رائعًا به مناضد لامعة وصفوف من الموظفين، كالتي اعتدتها من قبل، لكني لم أجد سوى مقعدين خشبيين وطاولة صغيرة واحدة، وُضِع فوقها دفتر للحسابات، وعلى الأرض بجانب المكتب سلة للنفايات. لمّا لاحظ صديقي الجديد علامات الاكتئاب على وجهي، قال:

– لا تحبط يا سيد بيكروفت، لَم تُبنَ روما في يوم واحد، لدينا الكثير من المال، لكننا لم نعتمد بعد مبالغ تأثيث المكاتب. تفضل بالجلوس، وأعطني الخطاب من فضلك.

أعطيته إياه، فقرأه بتمعن شديد. ثم قال:

– يبدو أنك تركت انطباعًا عميقًا في نفس أخي آرثر، أعرف أنه ماهر وسديد الحكم في مثل هذه الأمور، فهو يقسم بلندن، كما أُقسم أنا ببرمنجهام، ولكني هذه المرة سأتبع نصيحته. عُدَّ نفسك قُبلت نهائيًّا.

فقلت:

– وما واجباتي؟

– ستدير المخزن الكبير في باريس، الذي سيتدفق منه سيل من الأواني الخزفية الإنجليزية إلى متاجر مئة وأربعة وثلاثين وكيلًا في فرنسا. ستتم عملية الشراء في أسبوع، وفي غضون ذلك ستبقى في برمنجهام لننتفع بك هنا.

– كيف؟

وردًّا على سؤالي، أخرج كتابًا ضخمًا أحمر اللون من الدرج، وقال:

– هذا دليل لباريس، به الصناعات والحِرَف بعد أسماء الأشخاص. أريدك أن تأخذه معك إلى المنزل، وأن تميز فيه جميع بائعي الأجهزة بعناوينهم، وتعد قائمة بهم؛ فلي منفعة كبيرة في ذلك.

– من المؤكد أن هناك قوائم مصنفة.

– نعم، لكن لا يُعتمد عليها، لأن طريقتهم تختلف عن طريقتنا. افعل كما أخبرتك فضلًا، وأحضر لي القائمة في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاثنين. يومك سعيد يا سيد بيكروفت، وإذا داومت على إظهار الحماس والذكاء، فستجد الشركة ربّ عمل طيب جدًّا.

عدت إلى الفندق مع الكتاب الكبير تحت ذراعي، ومشاعر متضاربة جدًّا في صدري؛ فمن ناحية، تسلمت عملي نهائيًّا، وكان معي مئة جنيه في جيبي، ومن ناحية أخرى، فإن مظهر المكاتب، وغياب اسم المؤسسة على الحائط، وغيرها من النقاط التي قد تترك في نفس رجل الأعمال انطباعًا سيئًا عن مركز أرباب العمل. ومع ذلك، فليكن ما يكون ما دمت آخذ نقودي. وهكذا ظللت منكبًّا على العمل بجدٍّ طوال يوم الأحد، وبحلول يوم الاثنين، كنت قد وصلت إلى حرف الدال فقط من القائمة، ذهبت إلى صاحب العمل، ووجدته في الغرفة الخالية من أي أثاث نفسها، فأخبرني أن أستمر في العمل على هذه المهمة حتى

يوم الأربعاء، ثم أعود مرة أخرى. ومع ذلك، لم تكتمل المهمة بحلول يوم الأربعاء، فأمهلني إلى يوم الجمعة؛ أي بالأمس. فأخذت ما أنجزته إلى السيد هاري بينر، وعندما سلمته القائمة، قال:

– شكرًا جزيلًا لك، أخشى أنني قللت من أهمية صعوبة هذه المهمة. هذه القائمة ستشكل مساعدة كبيرة لي.

فقلت:

– استغرقت بعض الوقت.

– والآن، أريدك أن تُعِدَّ قائمة بمحالِّ الأثاث، لأن جميعها يبيع الأواني الخزفية.

– حسنًا جدًّا.

– ويمكنك أن تأتي في السابعة من مساء الغد، لتطلعني على سير الأمور. لا ترهق نفسك؛ فإن قضاء ساعتين يوميًّا من المساء في قاعة موسيقى، لن تضرك بعد عملك.

كان يضحك وهو يتحدث، وما أثار الشك في نفسي، أني أبصرت سِنَّه الثانية من الجانب الأيسر محشوة بالذهب حشوًا رديئًا.

فرك شيرلوك هولمز يديه مسرورًا، في حين حدقتُ أنا إلى عميلنا مذهولًا.

قال:

– قد تبدو مذهولًا يا دكتور واتسون، لكن إليك تفسير الأمر: عندما كنت أتحدث إلى الرجل الآخر في لندن، في الوقت الذي ضحك فيه على عدم ذهابي إلى مؤسسة «موسون»، لاحظت أن سِنَّه الثانية من الجانب الأيسر محشوة بالذهب بهذه الطريقة المتطابقة تمامًا. كان بريق الذهب هو ما لفت انتباهي في الحالتين، كما ترى. عندما أضع ذلك بجانب تطابق الصوت والهيئة، وبجانب تلك الأشياء التي يمكن تغييرها بواسطة شفرة حلاقة أو شعر مستعار، لم أعد أشك في كونه الرجل نفسه. قد تتوقع أنهما توءم، بنفس الطول، والحجم، والعمر، لكن ليس نفس السن المحشوة بالطريقة ذاتها! انحنى لي مودعًا، ووجدت نفسي في الشارع، ولم أعد أعرف ما إذا كنت أقف على رأسي أم عقبي. عدت إلى فندقي، ووضعت رأسي في حوض من الماء البارد، وحاولت التفكير في الأمر. لماذا أرسلني من لندن إلى برمنجهام؟ لماذا وصل إلى هناك قبلي؟ ولماذا كتب رسالة من نفسه إلى نفسه؟ كان هذا كثيرًا عليَّ، ولم أستطع فهمه. وفجأة أدركت أن ما كان مظلمًا بالنسبة إليَّ قد يكون نيِّرًا واضحًا بالنسبة إلى السيد شيرلوك هولمز. كان لديَّ الوقت لأنهض وأذهب إلى لندن بقطار الليل لأراه في هذا الصباح، وأعود معكما إلى برمنجهام.

بعد أن أنهى الكاتب حكايته المدهشة، ساد السكون برهةً، ثم اتجه شيرلوك هولمز بعينيه نحوي، وقد استند إلى الخلف بوجه سعيد وناقد، مثل خبير تذوق الخمور بعد تناول أول رشفة من نبيذ عتيق. وقال:

– يا لها من قضية ممتعة يا واتسون، أليست كذلك؟ بها نقاط تسرني، وأظنك توافقني على مقابلة السيد آرثر هاري بينر في المكتب المؤقت لشركة «فرانكو- ميدلاند للأدوات المنزلية»، ستكون تجربة ممتعة لكلينا.

فسألته:

– ولكن كيف سنفعل ذلك؟

قال هول بيكروفت مبتهجًا:

– أوه، الأمر في غاية السهولة. أنتما صديقان لي تبحثان عن عمل، وما الذي يمكن أن يكون طبيعيًّا أكثر من أن أحضركما إلى المدير العام للشركة؟

قال هولمز:

– هو كذلك. أود أن ألقي نظرة على ذلك الرجل، وأرى ما إذا كان بإمكاني استنتاج أي شيء من لعبته الصغيرة. ما الصفات التي لديك، يا صديقي، والتي من شأنها أن تجعل خدماتك ذات قيمة كبيرة؟ أم هل من الممكن أن...

ثم أخذ يقضم أظفاره ويحدق بهدوء من النافذة، ولم ينطق بكلمة واحدة حتى وصلنا إلى نيو ستريت.

في السابعة من مساء ذلك اليوم، وبينما كنا نسير نحن الثلاثة في شارع كوربوريشن إلى مكاتب تلك الشركة، قال عميلنا:

– لا فائدة من وجودنا على الإطلاق قبل موعدنا. إنه يأتي فقط لرؤيتي –على ما يبدو– لأن المكان يظل مهجورًا حتى الساعة التي يحددها لمقابلتي.

فعلق هولمز:

– هذا يفسر شيئًا ما.

فصاح الكاتب:

– يا إلهي! ألم أخبركما؟ ها هو يسير أمامنا هناك.

وأشار إلى رجل صغير الحجم، أشقر الشعر، حسن الملبس، يهرول مسرعًا في الجانب الآخر من الطريق. وبينما نراقبه، نظر نحو غلام يصيح مناديًا على أحدث طبعة من الصحف المسائية، فركض صاحبنا بين سيارات الأجرة والحافلات، واشترى واحدة منه، ثم أمسكها في يده، واختفى عبر الباب.

صاح هول بيكروفت قائلًا:

– ها هو يصعد إلى مكاتب الشركة هناك، تعاليا معي، وسأسوي كل شيء بسهولة بقدر الإمكان.

تبعنا قائدنا، وصعدنا خمسة طوابق، حتى وجدنا أنفسنا خارج باب نصف مفتوح، أتى صوت من الداخل يأمرنا بالدخول، عندما نقره عملينا. دخلنا إلى غرفة خالية من الأثاث، كما وصفها «هول بيكروفت» تمامًا، على الطاولة المنفردة جلس الرجل الذي رأيناه في الشارع، وصحيفته المسائية مفتوحة أمامه، فلما اتجه ببصره نحونا، بدا لي أنني لم أشاهد في حياتي كلها وجهًا كوجهه، إذ اكتست ملامحه بشيء يتجاوز الحزن إلى الهلع الذي قليلًا ما يصيب الرجال. كان العرق يلمع فوق جبينه، وقد شحبت وجنتاه بلون أبيض باهت كلون بطن السمكة، وجحظت عيناه كعيني حيوان بري مسعور. نظر إلى

كاتبه كما لو أنه فشل في التعرف عليه، واستطعت أن أرى الدهشة التي ارتسمت على وجه قائدنا، إن هذا لم يكن بأي حال من الأحوال المظهر المعتاد لرب عمله.

فصاح:

– تبدو مريضًا يا سيد بينز!

أجاب الآخر وهو يلعق شفتيه الجافتين قبل أن يتحدث، محاولًا بذلك استعادة رباطة جأشه:

– نعم، لست بصحة جيدة. مَن هذان السيدان اللذان أحضرتهما معك؟

قال قائدنا ببراعة:

– هذا السيد هاريس، من بيرموندسي، والآخر هو السيد برايس، من سكان هذه المدينة. هما صديقاي من ذوي الخبرة، لكنهما متوقفان عن العمل منذ وقت قريب، ويأملان أنه ربما تجد فرصة عمل لهما في الشركة.

لاح شبح ابتسامة على وجهه، وهتف قائلًا:

– ممكن جدًّا ممكن جدًّا من المؤكد أننا سنتمكن من فعل شيء لكما. ما اختصاصك يا سيد هاريس؟

قال هولمز:

– أنا محاسب.

– آه نعم، نحن بحاجة إلى شيء من هذا القبيل. وأنت يا سيد برايس؟

قلت:

– أنا كاتب.

– لي أمل كبير في أن يكون بمقدور الشركة أن تستوعبكما. سأخبركما بمجرد أن نصل إلى أي نتيجة. والآن، أتوسل إليكم أن ترحلوا، بحق الله اتركوني وشأني!

لفظ هذه العبارة الأخيرة بطريقة كما لو أن القيد، الذي كان من الواضح أنه فرضه على نفسه، قد انفكَّ فجأة وبالكامل.

قال بيكروفت:

– نسيت يا سيد بينر، أنا هنا بناء على موعد لتلقي بعض التوجيهات منك.

استأنف الآخر بنبرة أكثر هدوءًا:

– بالتأكيد يا سيد بيكروفت، بالتأكيد. يمكنك الانتظار هنا لحظة، ولا يوجد سبب يمنع أصدقاءك من الانتظار معك. سأكون في خدمتك بالكامل خلال ثلاث دقائق، إن صح لي أن أعتدي على صبرك لهذه المدة.

نهض في شيء من التهذيب، منحنيًا لنا وهو يعبر بابًا في الجانب البعيد من الحجرة، وأقفله خلفه.

فهمس هولمز:

– ماذا الآن؟ هل أفلت منا؟

أجاب بيكروفت:

- مستحيل.

- وما الذي يجعله مستحيلًا؟

- لأن هذا الباب يؤدي إلى حجرة داخلية.

- ألا يوجد بها مخرج؟

- أبدًا.

- وهل بها أثاث؟

- كانت خاوية بالأمس.

- إذن، ماذا بحق السماء يمكنه أن يفعل فيها؟ يوجد شيء لا أفهمه في هذا الموضوع. إذا وُجِد يومًا رجلٌ جعله الفزع ثلاثة أرباع مجنون، فإن اسم هذا الرجل هو «بينر»، ما الذي يجعله يرتجف؟

اقترحت:

- ربما يشك أننا مفتشون.

قال بيكروفت:

- هو كذلك.

هز هولمز رأسه، وقال:

- لم يمتقع لونه في وجودنا، كان شاحبًا في الأساس عندما دخلنا الغرفة، من الممكن أنه...

قوطعت كلماته بصوت طرق قوي يأتي من اتجاه الباب الداخلي.

فصاح الكاتب:

- لماذا، بحق الشيطان، يطرق بابه هو نفسه؟

ومرة أخرى سمعنا صوت الطرق، ولكنه هذه المرة كان أعلى من السابق. فحدقنا جميعًا في ترقُّب إلى الباب المغلق. بإلقاء نظرة خاطفة على هولمز، رأيت وجهه جامدًا، وقد انحنى إلى الأمام في انفعال شديد. وفجأة جاء صوت غرغرة وحشرجة وصوت طرق على الأخشاب، فقفز هولمز مذعورًا عبر الغرفة ودفع الباب. كان مقفلًا من الداخل؛ فحذونا حذوه واندفعنا جميعًا نحو الباب وألقينا ثقلنا عليه، فتهشمت إحدى مفصلاته، ثم تهشمت الأخرى، وسقط الباب على الأرض محدثًا ضجيجًا، فاندفعنا عابرين حطامه إلى الحجرة الداخلية، ووجدناها خاوية.

ولم تمضِ لحظة حتى أدركنا خطأنا، ففي إحدى الزوايا، وتحديدًا الزاوية الأقرب للغرفة التي تركناها، كان هناك باب ثانٍ، فقفز هولمز نحوه وجذبه، فانفتح. وجدنا على الأرض معطفًا وصدرية، ومن خطاف خلف الباب، يتدلى جسم المدير العام لشركة فرانكو ميدلاند للأدوات المنزلية، مشنوقًا بحمالات ملابسه. كانت ركبتاه مرفوعتان، يتدلى رأسه بزاوية مروعة على جسده، وكان تأرجح عقبيه هو الذي أحدث على الباب القرقعة التي اندلعت في أثناء حديثنا. وفي لحظة طوقتُ خصره، ورفعته إلى أعلى، في حين فكَّ هولمز وبيكروفت الأربطة المرنة التي اختفت بين ثنيات جلده، ثم حملناه إلى الغرفة

الأخرى، حيث رقد بوجه في لون الوحل، يحرك شفتيه الأرجوانيتين للداخل والخارج مع كل نفس، ولو تأخرنا خمس دقائق، لصار حطامًا مروعًا.

سأل هولمز:

– ما رأيك فيه يا واتسون؟

انحنيت فوقه وفحصته، كان نبضه ضعيفًا ومتقطعًا، لكن تنفسه صار أطول، وكان هناك ارتعاش بسيط في جفنيه؛ ما أظهر خطًا رفيعًا أبيض لمقلتيه تحتهما.

قلت:

– لسَعَهُ الموت، ولكنه سيعيش. فقط افتحا تلك النافذة وناولاني إناء الماء ذاك.

فحللت ياقته، وسكبت الماء البارد على وجهه، ورفعت ذراعيه وخفضتهما حتى استنشق نفسًا طويلًا وطبيعيًا، فقلت وأنا أبتعد عنه:

– إنها مسألة وقت الآن.

وقف هولمز بجانب الطاولة، داسًّا يديه عميقًا في جيبي بنطاله، وذقنه على صدره، ثم قال:

– أعتقد أنه يجب علينا استدعاء الشرطة الآن، أود أن أقدم لهم قضية كاملة عندما يأتون.

صاح بيكروفت وهو يحك رأسه:

– إنه لغز غامض بالنسبة إليَّ، ما الذي جعلهم يأتون بي إلى هنا طوال تلك المسافة؟ وبعد ذلك...

فقال هولمز في نفاد صبر:

– عجبًا! الأمر واضح بما فيه الكفاية، إن هذه الحركة الأخيرة الفجائية هي التي أوضحت كل شيء.

– إذن، هل تفهم الباقي؟

– أظن هذا واضحًا تمامًا، ماذا تقول يا واتسون؟

هززت كتفي، وقلت:

– يجب أن أعترف بأنني لا أمتلك أي تخمين بشأن هذا الأمر.

– أوه، بالطبع إذا تتبعت الأحداث من البداية، ستجد أنها تشير إلى نتيجة واحدة فقط.

– ماذا تستنتج منها؟

– حسنًا، الأمر كله يتوقف على نقطتين؛ الأولى هي كتابة بيكروفت طلبًا دَخَلَ بموجبه في خدمة هذه الشركة المزعومة، ألا ترى ما يدل عليه هذا؟

– أخشى أنني لا أفهم النقطة.

– حسنًا، لماذا أرادوا منه أن يفعل ذلك؟ ليس من باب الأعمال التجارية، فهذه الترتيبات عادة ما تكون شفهية، ولم يكن هناك سبب يجعل هذا استثناءً. ألا ترى يا صديقي الصغير، أنهم كانوا متلهفين جدًّا بذلك للحصول على نموذج من خط يدك، ولم يكن لديهم طريقة أخرى للقيام بذلك؟

– ولماذا؟

– هكذا بالضبط، لماذا؟ عندما نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال، نكون قد أحرزنا بعض التقدم في مشكلتنا الصغيرة. لماذا؟ يمكن أن يكون هناك سبب واحد فقط. أراد شخص ما أن يتعلم محاكاة خطك، وكان عليه الحصول على نموذج منه. والآن إذا انتقلنا إلى النقطة الثانية، فسنجد أن كلًا منهما يلقي الضوء على الآخر. هذه النقطة هي الطلب الذي تقدم به بينر وإصراره على ألا تستقيل من منصبك، وتترك مدير هذه الشركة المهمة ينتظر قدوم السيد «هول بيكروفت»، الذي لم يسبق له رؤيته، في المكتب عند صباح الاثنين.

صاح بيكروفت:

– يا إلهي! كم كنت خنفساء عمياء!

– والآن، أنت تفهم النقطة المتعلقة بخط اليد، لنفترض أن شخصًا ما تقدم ليشغل مكانك، وكان خطه يختلف عن الخط الذي كتبت به طلب التقدم لهذه الوظيفة الشاغرة، بالطبع كانت اللعبة ستنتهي. لكن في الوقت الفاصل، تعلَّم ذلك الوغد تقليدك، ومن ثم كان مركزه مضمونًا، إذ لم تقع عين أي شخص عليك في المكتب من قبل.

صاح بيكروفت:

– نعم، ما من أحد رآني، ولا فرد واحد.

– جيد جدًّا، بالطبع كان من الأهمية القصوى منعك من التفكير في ذلك الأمر مرة أخرى، وكذلك منعك من الاتصال بأي شخص قد يخبرك أن شخصًا آخر انتحل اسمك وخطك، يعمل في مكتب «موسون»، لذلك أعطوك مقدمًا لراتبك، وأرسلوك بعيدًا عن لندن، حيث كلفوك بعمل كافٍ يمنعك من العودة إلى لندن واكتشاف لعبتهم.. هذا واضح جدًّا.

– ولكن لماذا يتظاهر هذا الرجل بأنه أخوه؟

– حسنًا، هذا واضح جدًّا أيضًا؛ يبدو ظاهريًّا أنهما اثنان لا ثالث لهما، أحدهما ينتحل شخصيتك في المكتب، والآخر هو الذي قام بدور تعيينك. ثم وجد أنه لن يستطيع إيجاد مَن يمثل دور مدير الشركة بغير إشراك شخص ثالث في المؤامرة، وهذا ما لم يرِده قط، فغيَّر شكله قدر الإمكان واثقًا بأنك ستعزو الشبه إلى تشابه الأسرة. ولكن ملاحظتك للسن المحشوة بالذهب بهذه الطريقة هي التي أثارت الشكوك، ولولاها ما كنتَ لترتاب في الأمر أبدًا.

هز «هول بيكروفت» يديه في الهواء، وصاح قائلًا:

– يا إلهي! يا رحيم! ما الذي كان يفعله هذا المنتحل لشخصيتي هناك في مكتب «موسون» وأنا مخدوع هنا؟ ماذا علينا أن نفعل يا سيد هولمز؟ أخبرني ماذا عليَّ أن أفعل رجاءً.

– يجب أن ترسل إلى «موسون».

– يغلق «موسون» أبوابه في الثانية عشرة ظهرًا في أيام السبت.

– لا بأس، قد يكون هناك حارس أو بواب.

– آه نعم، إنهم يحتفظون بحارس دائم هناك بسبب قيمة الأوراق المالية التي يمتلكونها. أتذكر أني سمعت الناس يتحدثون عن ذلك في المدينة.

– جيد جدًّا، سنرسل لهم برقية، ونرى ما إذا كان كل شيء على ما يرام، وإذا كان لديهم كاتب باسمك يعمل هناك، سيصبح هذا في غاية الوضوح، ولكن الشيء غير الواضح هو: لماذا أسرع هذا الوغد، بمجرد أن أبصرنا، بالخروج على الفور من الغرفة وشنق نفسه؟

فصاح صوت خلفنا يقول:

– الصحيفة!

كان الرجل جالسًا ممتقع اللون، ويرتجف خوفًا لسبب واضح في عينيه، ويداه تفركان بعصبية على الشريط الأحمر العريض الذي ما زال يحيط برقبته.

صاح هولمز في نوبة من الإثارة:

– الصحيفة! بالتأكيد! كم كنت غبيًّا. ركزت على أمر زيارتنا له، ولم يطرأ على بالي أمر الصحيفة إطلاقًا.. من المؤكد أن السر هنا.

فنشرها فوق الطاولة، وصاح صيحة انتصار، انفجرت من شفتيه، فقال:

– انظر إلى هذا يا واتسون، هذه صحيفة لندنية، طبعة مبكرة من أعداد «Evening Standard»، هذا ما نريده. انظر إلى العناوين الرئيسة: جريمة في المدينة، جريمة قتل في مؤسسة «موسون وويليامز»، محاولة سطو ضخمة، القبض على المجرم. نحن جميعًا حريصون بالقدر نفسه على سماعها، لذا يرجى قراءتها لنا بصوت عالٍ.

بدا من موقع الخبر في الصحيفة أنه كان الحدث الوحيد المهم في المدينة، وسارت روايته على هذا النحو:

«وقعت محاولة سطو متهورة، انتهت بقتل رجل والقبض على الجاني، بعد ظهر اليوم في المدينة. فمنذ زمن بعيد، ومؤسسة «موسون وويليامز» الدار المالية الشهيرة، تتقبل ودائع وصل إجمالي قيمتها مؤخرًا أكثر من مليون جنيه إسترليني. وقد كان المدير يدرك تمامًا المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه المصالح العظمى المعرضة للخطر، حيث استخدم خزائن من أحدث ما وصل إليها فن صناعة الخزائن، وعيَّن لحراستها حارسًا مسلحًا ليلًا ونهارًا، داخل المبنى. ويبدو أن موظفًا جديدًا يُدعى «هول بيكروفت» عُيّن في الأسبوع الماضي، ولم يكن هذا الموظف سوى اللص والمزيف الشهير بيدنجتون» الذي لم يخرج من السجن إلا مؤخرًا هو وأخوه بعد أن قضيا مدة خمس سنوات من السجن مع الأشغال الشاقة. وببعض الوسائل، التي لم تتضح بعد، فقد نجح في الفوز، تحت اسم مستعار، بهذا المنصب الرسمي في المكتب، الذي استخدمه للحصول على قوالب لمختلف الأقفال، ومعرفة شاملة بمكان حجرة الودائع والخزائن.

جرت العادة في مؤسسة «موسون» أن يغادر الكتبة في الظهر، أيام السبت. ففوجئ الرقيب طوسون، من شرطة المدينة، برجل يحمل حقيبة قماشية ويهبط الدرج، بعد مرور عشرين دقيقة على الساعة الواحدة ظهرًا. فأثيرت شكوكه، واتبع ذلك الرجل، ونجح بمساعدة الشرطي بولاك، وبعد مقاومة

شديدة، في إلقاء القبض عليه. اتضح على الفور أن عملية سطو جريئة وضخمة قد ارتكبت. تبين فيما بعد أنها تتضمن ما يقرب من مئة ألف جنيه من أسهم السكك الحديدية الأمريكية، وكمية كبيرة من أسهم المناجم والشركات الأخرى، وجدت كلها داخل تلك الحقيبة. عند معاينة المبنى، عُثِر على جثة الحارس مطوية وقد دُفعت إلى أكبر الخزائن، وما كانت لتُكتشف قبل صباح يوم الاثنين لولا الإجراء الفوري للرقيب طوسون. تحطمت جمجمة الرجل بضربة من الخلف على رأسه بقضيب حديدي. لا شك في أن بيدنجتون قد استطاع دخول المبنى ثانية من خلال التظاهر بأنه نسي شيئًا ورجع ليأخذه، فقتل الحارس، وسرعان ما استولى على الخزينة الكبيرة، وفر بغنيمته. لم يظهر شقيقه، الذي يعمل معه عادة، في هذه العملية حسب ما أفضت إليه التحقيقات حتى الوقت الحالي، وتبذل الشرطة تحريات نشطة لمعرفة مكانه».

قال هولمز، وهو يلقي نظرة خاطفة على الرجل المكوم بجوار النافذة:

– حسنًا، بوسعنا أن نوفر على الشرطة متاعب البحث عنه. إن الطبيعة البشرية مزيج غريب يا واتسون، فها أنت ترى أنه حتى الشرير والقاتل يمكن أن يثير مثل هذه العاطفة لدرجة أن ينتحر شقيقه، أو يحاول الانتحار، عندما يعلم أن حبل المشنقة سيلتف حول رقبته. ومع ذلك، ليس لدينا خيار فيما يتعلق بعملنا. سأبقى أنا والطبيب هنا لحراسته، وأنت يا سيد بيكروفت، فلتخطر الشرطة إذا تكرمت.

مغامرة سفينة غلوريا سكوت

قال صديقي شيرلوك هولمز، عندما كنا نجلس في إحدى ليالي الشتاء بجوار المدفأة:

– لديَّ بعض الأوراق هنا، وأعتقد يا واتسون أنها تستحق بعضًا من وقتك لإلقاء نظرة عليها. إنها الوثائق المتعلقة بقضية «غلوريا سكوت» الغريبة، وهذه هي الرسالة التي قضت على قاضي الصلح «تريفور»، فمات رعبًا عندما قرأها.

بعد ذلك، أخرج من الدرج لفة أسطوانية صغيرة ملطخة، وفك رباطها، وأعطاني ملاحظة صغيرة مكتوبة على عجل في نصف ورقة من أوراق السجلات الرمادية. تقول تلك الملاحظة:

«تسير عملية توريد لَحْم الطَّرائد إلى لندن سيرًا مستقرًّا. طُلب من هدسون؛ رئيس الحرس، تلقي جميع الطلبات الخاصة بصائدات الذباب[2]، والحفاظ على حياة دجاجات الدرّاج الخاصة بك».

عندما رفعت بصري بعد قراءة هذه الرسالة المبهمة، رأيت هولمز يضحك ملء شدقيه لِما ارتسم على وجهي من تعبيرات. قال:

– تبدو متحيرًا قليلًا.

– لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لرسالة كهذه أن تثير الرعب، تبدو لي أنها طلاسم، ولا شيء أكثر.

– ربما، وبالرغم من ذلك تبقى حقيقة أن قارئها، الذي كان رجلًا عجوزًا ونشيطًا، قد انهار تمامًا بسببها كما لو كانت سلاحًا فتاكًا.

قلت:

– إنك تثير فضولي، لكن لماذا قلت للتو إن أسبابًا خاصة جدًّا تدفعني إلى دراسة هذه القضية؟

– لأنها كانت القضية الأولى التي عملت فيها على الإطلاق.

لقد حاولت كثيرًا أن أستنبط من رفيقي ما الشيء الذي حوَّل ذهنه أولًا في اتجاه البحث الإجرامي، لكنني لم أجده قط في مزاج ملائم للمصارحة أو حس الدعابة. أما الآن، فقد جلس على مقعده ذي المتكأين ونشر الوثائق على ركبتيه، ثم أشعل غليونه وجلس لبعض الوقت يدخِّن ويقلب أوراقه. ثم سألني:

– ألم تسمعني من قبل أتحدث عن «فيكتور تريفور»؟ لقد كان الصديق الوحيد الذي تعرفت إليه خلال العامين اللذين قضيتهما في الكلية، لم أكن قط رجلًا اجتماعيًّا يا واتسون، دائمًا ما كنت مولعًا بالانعزال في غرفتي والعمل على أساليب التفكير الصغيرة الخاصة بي، ولذلك، لم أختلط كثيرًا بزملاء الدراسة. وباستثناء مبارزة السيوف، والملاكمة، لم أكن أتمتع بذوق رياضي في الأنشطة المختلفة، كما أن مجال دراستي، كان يختلف تمامًا عن مجال دراسات زملائي الآخرين، لذلك لم يكن بيننا أدنى قدر من نقاط التواصل. «تريفور» كان هو الرجل الوحيد الذي عرفته، وذلك فقط من خلال حادث كلبه الذي عض كاحلي ذات صباح وأنا في طريقي إلى الكنيسة. كانت طريقة غير شاعرية لعقد صداقة، ولكنها كانت فعالة، فقد وضعت الأربطة حول قدمي، وبقيت غير قادر على الوقوف، ولازمت الفراش لمدة عشرة أيام، ظلّ خلالها «تريفور» يزورني ليطمئن عليَّ. في البداية، اقتصرت محادثاتنا على دردشات قصيرة، لكن سرعان ما طالت مدتها مع تكرار زياراته، وقبل نهاية الفصل الدراسي كنا أصدقاء مقربين. كان

صديقًا مخلصًا، يشع حماسًا وطاقة، على عكسي تمامًا في معظم النواحي، ولكننا وجدنا بيننا بعض المواضيع المشتركة، التي يتمثل إحداها في أنه كان بلا أصدقاء مثلي. وفي النهاية، دعاني إلى منزل والده في قرية دونيثورب، في مقاطعة نورفولك، فقبلت ضيافته لمدة شهر من الإجازة الطويلة. كان من الواضح أن تريفور الأب رجل ثري، ذو مكانة اجتماعية مرموقة، حيث كان قاضي صلح، وصاحب أملاك في دونيثورب، وهي قرية صغيرة، تقع مباشرة شمال بحيرات لانغمير في ريف برودز. المنزل كان عبارة عن مبنى قديم الطراز، مُترامي الأَطْراف، سقوفه من أخشاب البلوط والقرميد الأحمر، يمكنك الوصول إليه عبر طريق بديع تحفّه أشجار الزيزفون، وبجواره أراضي تنعم بمستنقعات ممتازة لصيد البط البري، ومجاري مياه جيدة لصيد الأسماك. أما داخل البيت، فقد احتلت مكتبة صغيرة وحافلة بالكتب المختارة بعناية أحد أركانه، وقد أخذوها –كما فهمت– من الساكن السابق لهذا البيت. واحتل المطبخ الذي يديره طباخ ماهر، ركنًا مميزًا آخر. لذلك من الصعب ألا يستمتع المرء بقضاء شهر لطيف هناك، إلا إذا كان رجلًا يصعب إرضاؤه.

كان «تريفور» الأب أرمل، وصديقي هو ابنه الوحيد، وإن كنتُ قد سمعتُ بأنه كانت لديه ابنة، لكنها ماتت بمرض الدفتيريا في أثناء زيارتها برمنجهام. أثار الأب اهتمامي كثيرًا؛ كان رجلًا قليل الثقافة، غير أنه كان يتمتع بقوة كبيرة من الناحية الجسدية والذهنية، فهو لا يكاد يعرف أي كتاب، لكنه سافر بعيدًا وزار الكثير من بقاع العالم، وهو يتذكر كل ما تعلمه. أما عن شكله، فهو عريض المنكبين، قوي البنية، ذو شعر أشيب، ووجه أسمر لفحته الشمس، وعينين زرقاوين حادتين لدرجة الشراسة.

في إحدى الأمسيات، بعد أن مضى على مكوثي هناك مدة وجيزة، كنا جالسين نحتسي زجاجة من النبيذ الحلو بعد تناول العشاء، عندما بدأ الشاب «تريفور» يتحدث عن عاداتي في الملاحظة والاستدلال التي كنتُ قد شكلت بالفعل في ذلك الوقت نظامًا لها، على الرغم من أنني لم أكن أعرف بعد قيمة الدور الذي ستلعبه في حياتي. ومن الواضح أنه جال بذهن الرجل العجوز أن ابنه يبالغ في وصفه لواحد أو اثنين من أعمالي البطولية المتواضعة. فقد هتف وهو يضحك:

– هيّا، تعال الآن يا سيد هولمز، فأنا أشكّل موضوعًا ممتازًا لهوايتك تلك، هذا إذا كنت تستطيع استنتاج أي شيء مني.

فأجبته قائلًا:

– أخشى ألّا أستنتج الكثير، فقد أقول إنك أمضيت الشهور الاثني عشر الماضية في خوف من أن تتعرض لاعتداء أو هجوم.

تلاشت الضحكة عن شفتيه، وأخذ يحدق إليَّ في ذهول شديد، ثم قال:

– حسنًا، هذا صحيح تمامًا.

ثم استدار نحو ابنه وأكمل:

– أتعلم يا «فيكتور» أنه عندما شتتنا عصابة الصيد غير المشروع تلك، أقسموا على ذبحنا، وقد تعرض السير «إدوارد هولي» للهجوم بالفعل، ومنذ ذلك الحين وأنا على أهبة الاستعداد، وإن كنت لا أعرف كيف توصلت إلى معرفة ذلك يا سيد هولمز.

فأجبته قائلًا:

– أنت تملك عصا ضخمة جدًّا، وقد لاحظت من النقش الذي عليها أنها لم تكن لديك قبل أكثر من عام. ولكنك تكلفت عناء إحداث ثقب في رأسها، وسكب الرصاص المنصهر فيه لجعلها سلاحًا فتاكًا، ومن البديهي أنك لن تتخذ مثل هذه الاحتياطات ما لم تكن تخشى خطرًا ما.

سأل مبتسمًا:

– هل من شيء آخر؟

– لقد مارست الملاكمة كثيرًا في شبابك؟

– هذا صحيح أيضًا، ولكن كيف عرفت؟ هل رأيت في أنفي اعوجاجًا؟

– لا، بل أذنيك؛ ففيهما شيء من الغلاظة والفلطحة اللتين تميزان الرجل الملاكم.

– أما من شيء آخر؟

– لقد بذلتَ جهدًا كبيرًا في أعمال الحفر، كما يظهر من تصلب جلد يديك.

– صنعت كل أموالي من الحفر والتنقيب عن الذهب.

– وكنتَ في نيوزيلندا.

– أصبت ثانية.

– وزرتَ اليابان.

– هذا صحيح تمامًا.

– وقد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بشخص كانت الأحرف الأولى من اسمه «ج.أ.»، الذي أصبحتَ بعد ذلك حريصًا على نسيانه تمامًا.

وقف السيد «تريفور» ببطء، وثبت عينيه الكبيرتين الزرقاوين عليَّ في نظرة غريبة شرسة، وبعد ذلك مال إلى الأمام ووقع مغشيًّا عليه بين قشور البندق المتناثرة فوق مفرش الطاولة. ولتتصور يا واتسون كيف صُدمنا أنا وابنه بذلك. بيد أن تلك النوبة لم تدم طويلًا، إذ أفاق عندما حللنا ياقته، ورششنا الماء على وجهه، فتنفس عميقًا مرة أو مرتين، ثم استوى جالسًا.

قال وهو يتكلف ابتسامة:

– آه أيها الأولاد، أرجو ألّا أكون قد أخفتكم، فبالرغم من أنني أبدو قويًّا فإن قلبي ضعيف بعض الشيء، ولا يتطلب الأمر الكثير من الانفعال حتى يطيح بي أرضًا. لا أعرف كيف تمكنت من معرفة ذلك يا سيد هولمز، لكن يبدو لي أنك تتفوق على جميع المخبرين؛ الحقيقين منهم والخياليين. هذا هو طريق حياتك يا بُني، ولتأخذها نصيحة من رجل عنده خبرة كبيرة في هذه الحياة.

وقد كانت هذه النصيحة، ومعها كلمات التقدير المبالغ فيه لقدراتي، التي استهلها بها –إذا كنت ستصدقني يا واتسون– هي أول شيء جعلني أشعر بأن ما كان حتى ذلك الوقت هو مجرد هواية يمكن أن يتحول إلى مهنة.

ومع ذلك، فقد شغلني مرض مضيفي المفاجئ في تلك اللحظة عن التفكير في أي شيء آخر، فقلت له:

– آمل أني لم أقل شيئًا آلمك.

تحدث بطريقة شبه مازحة، لكن مع نظرة من الفزع ما زالت كامنة في عمق عينيه:

– حسنًا، لقد تطرقت بالتأكيد إلى نقطة حساسة. هل يمكنني أن أسألك كيف عرفت كل ذلك؟ وإلى أي مدى تصل معرفتك؟

قلت:

– إن الأمر في منتهى البساطة، فعندما كشفت عن ذراعك لتسحب تلك السمكة إلى القارب، رأيت وشمًا لحرفي الألف والجيم في مفصل مرفقك، كانا ما يزالان على درجة من الوضوح لقراءتهما، على الرغم من المحاولات التي بُذلت لمحوهما، من مظهرهما المطموس وتصبُّغ الجلد حولهما. فيتجلى إذن، أنهما كان حرفين مهمين جدًّا بالنسبة إليك، وإن كنت قد حاولت نسيانهما بعد ذلك.

فصاح وهو يتنهد بارتياح:

– يا لعينك الثاقبة! إن الأمر كما تقول تمامًا، لكننا لن نتحدث عن ذلك. من بين كل الأشباح، فإن أشباح عشاقنا القدامى هي الأسوأ. والآن فلنذهب إلى غرفة البلياردو، وندخن سيجارًا في هدوء.

منذ ذلك اليوم، وبالرغم من كل مودته، كان يوجد دائمًا شيء من الشك في تصرفات السيد «تريفور» نحوي. حتى إن ابنه قد لاحظ ذلك، وعلق قائلًا:

– لقد سلكت منعطفًا مع الحاكم، جعله لا يتأكد مرة أخرى مما تعرفه عنه وما لا تعرفه.

أنا متأكد من أنه لم يقصد إظهار ذلك، لكن الأمر تمكن من تفكيره بقوة لدرجة أنه تجلى في كل تصرفاته. وأخيرًا، اقتنعت بأنني أشكل مصدر عدم ارتياح له، فقررت إنهاء زيارتي. لكن في اليوم نفسه، قبل أن أغادر، حدث أمر كانت له نتائج بالغة الأهمية بعد ذلك.

كنا نجلس نحن الثلاثة فوق مقاعد الحديقة، ننعم بأشعة الشمس ونبدي إعجابنا بالمناظر الطبيعية في برودز، عندما خرجت الخادمة لتقول إن رجلًا على الباب يريد رؤية السيد تريفور. سألها مضيفي:

– ما اسمه؟

– لم يذكر اسمه.

– ماذا يريد إذن؟

– يقول إنك تعرفه، وإنه يريد أن يتحدث إليك لحظة فحسب.

– أدخليه إلى هنا إذن.

وبعد ذلك بمدة وجيزة، دخل رجل ضئيل الجسم، ذابل الوجه، متثاقلًا في مشيته في شيء من التبختر. كان يرتدي سترة مفتوحة، مع بقعة من القطران على كمِّيه، وقميصًا مخططًا باللونين الأحمر والأسود، وبنطالًا من قماش قطني خشن، وحذاءً طويل الرقبة، ثقيلًا وباليًا. أما وجهه، فكان نحيلًا، أسمر اللون، يعلو المكر سيماءه، مع ابتسامة ثابتة تظهر خطًّا غير منتظم من أسنانه الصفراء. وظهرت التجاعيد على يديه نصف المغلقتين بالطريقة المميزة للبحّارة. وبينما هو قادم يترنح فوق الحشائش، سمعتُ

السيد «تريفور» يصدر صوتًا يشبه الزمجرة، وقفز من كرسيه، وركض إلى البيت، وعاد بعد برهة. فشممت رائحة البراندي القوية عندما مر بجانبي.

قال:

– حسنًا يا صديقي، ما الذي يمكنني عمله لك؟

وقف البحار ينظر إليه وقد تغضن جبينه، وبالابتسامة نفسها الدائمة على وجهه، سأل:

– ألا تعرفني؟

قال السيد تريفور بنبرة دهشة:

– يا إلهي! أنت هدسون بالتأكيد!

قال البحار:

– نعم، أنا هدسون يا سيدي. لقد مرت ثلاثون سنة أو أكثر منذ آخر مرة رأيتك فيها، وها أنت في بيتك، وما زلتُ أنا أشقى لأحصل على اللحم المملح، من برميل السوائل الخشبي على سطح السفينة.

صاح السيد تريفور قائلًا:

– ويحك يا رجل! ستجد أنني لم أنسَ الأيام الخوالي.

ثم قال شيئًا وهو يتجه نحو البحار بصوت خافت، تابع بعده بصوت عالٍ قائلًا:

– اذهب إلى المطبخ، وستجد الطعام والشراب، ليس لديَّ شك في أنني سأجد لك عملًا.

قال البحار وهو يلمس مقدمة رأسه:

– شكرًا لك يا سيدي، لقد أنهيت للتو عامين من العمل على متن سفينة شحن، حيث كان هناك نقص في الأيدي العاملة، في رحلة تسير بسرعة ثمانية أميال بحرية في الساعة، ولذلك أنا في حاجة إلى الراحة. وقد فكرت أنه ربما يمكنني الحصول عليها عندك أو عند السيد بيدوس.

صاح تريفور:

– آه، وهل تعرف أين هو السيد بيدوس؟

قال الرجل بابتسامة شريرة:

– فليباركك الله يا سيدي، أنا أعرف مكان جميع أصدقائي القدامى.

ثم هرول خلف الخادمة إلى المطبخ.

تمتم السيد تريفور بشيء لنا بخصوص كونه رفيقًا في السفينة لهذا الرجل عندما كان يحفر بحثًا عن الذهب. ثم تركنا في الحديقة، وذهب إلى الداخل. وعندما دخلنا المنزل بعد ذلك بساعة، وجدناه ممددًا في حالة سُكْر على أريكة غرفة الطعام. تركت الحادثة بأكملها انطباعًا سيئًا في ذهني، ولم أشعر بالأسف في اليوم التالي على مغادرة دونيثورب، إذ شعرت أن وجودي لا بد وأنه كان مصدر إحراج لصديقي. حدث كل هذا خلال الشهر الأول من الإجازة الطويلة. عدت بعد ذلك إلى غرفتي في لندن، حيث أمضيت سبعة أسابيع في إجراء بعض التجارب في الكيمياء العضوية.

وفي أحد الأيام، حين كان الخريف في أواخره، والإجازة توشك على الانتهاء، تلقيت برقية من صديقي

يتوسل إليَّ فيها أن أعود إلى دونيثورب، ويقول إنه في حاجة ماسة إلى نصيحتي ومساعدتي. بالطبع تركت كل شيء وسافرت إلى الشمال مرة أخرى. قابلني بالعربة عند المحطة، ولمحت آثار قسوة الشهرين الماضيين عليه؛ فقد أصبح نحيلًا مهمومًا، وفقد شخصيته المرحة المبهجة التي كانت تميزه.

كانت الكلمات الأولى التي نطق بها:

– الحاكم يحتضر.

صرخت:

– مستحيل! ما المشكلة؟

– سكتة دماغية أو صدمة عصبية. لقد كانت حالته حرجة طوال اليوم، وأشك في أننا سنجده حيًّا.

ذُعرت، كما قد تظن يا واتسون، لسماع هذا الخبر غير المتوقع، وسألته: وما سبب ذلك؟

– آه، هذا هو بيت القصيد. اصعد ويمكننا التحدث في أثناء القيادة. هل تتذكر ذلك الشخص الذي جاء في المساء قبل مغادرتك لنا؟

– نعم، أذكره جيدًا.

– هل تعرف من الذي أدخلناه إلى منزلنا في ذلك اليوم؟

– ليست لديَّ أي فكرة.

فصاح قائلًا:

– لقد كان الشيطان يا هولمز.

حملقت فيه مذهولًا.

– نعم، لقد كان الشيطان نفسه. لم ننعم بساعة واحدة من الراحة منذ ذلك الحين.. ولا ساعة واحدة. لم يرفع الحاكم رأسه قط منذ ذلك المساء، والآن سُحبت الحياة منه وتحطم قلبه، كل ذلك بسبب هدسون اللعين هذا.

– ما القوة التي يمتلكها إذن؟

– آه، هذا ما أنا مستعد لأن أدفع عمري ثمنًا لأعرفه. كيف يمكن أن يسقط الحاكم العجوز الطيب، المحسن، في براثن مثل هذا الخسيس! لكنني سعيد لأنك أتيت يا هولمز. أنا أثق كثيرًا بحكمك وتقديرك، وأعلم أنك ستنصحني بالأفضل.

اندفعنا على طول الطريق الريفي الأبيض الزلق، والبحيرات الضحلة ممتدة أمامنا متلألئة تحت الضوء الأحمر لغروب الشمس. كنت أستطيع رؤية المداخن العالية، وسارية العلم المميزة لمنزل المالك عبر البستان الموجود على يسارنا.

قال رفيقي:

– عيَّن والدي ذلك الرجل بستانيًّا، وبعد ذلك -بما أن ذلك لم يرضِه- رُقِّي ليصبح رئيسًا للخدم، وبدا وكأن المنزل تحت رحمته، ليتجول فيه ويفعل ما يشاء. شكَت الخادمات من مضايقاته لهن وهو ثمل وشَكَين من كلماته البذيئة، فرفع الأب أجورهن جميعًا ليعوضهن من تلك المضايقات. كان هذا الرجل

يأخذ قارب أبي وأفضل بندقياته ويذهب في رحلات صيد صغيرة، يفعل كل هذا وعلى وجهه علامات السخرية والخبث والوقاحة، لدرجة أنني كنت سأوسعه ضربًا عشرين مرة لو كان رجلًا في مثل سني. أقول لك يا هولمز، لقد اضطررتُ إلى إحكام سيطرتي على نفسي طوال هذا الوقت، والآن أسأل نفسي ما إذا كان ما فعلته هو التصرف الصحيح أم لا. حسنًا، سارت الأمور معنا من سيئ إلى أسوأ، وأصبح هذا الحيوان هدسون أكثر وأكثر تدخلًا، حتى إنه ردَّ، مؤخرًا، ذات يوم، بوقاحة على أبي في حضوري، فما كان مني إلا أن أخذته من كتفيه ودفعته خارج الغرفة. فانسل بعيدًا بوجه غاضب وعينين حقودتين تنذران بتهديدات أكثر مما يمكن أن يفعل لسانه. لا أعرف ما الذي حدث بين الأب المسكين وبينه بعد ذلك، لكن أبي جاء إليَّ في اليوم التالي وسألني عما إذا كنت أمانع في الاعتذار لهدسون. فرفضت، كما يمكنك أن تتخيل، وسألت أبي كيف يمكنه السماح لمثل هذا الصعلوك بأخذ مثل هذه الحريات معه ومع أسرته؟ فقال:

– آه يا ولدي، من الأفضل أن أتحدث، لكنك لا تعرف مركزي، ولا بد أن تعرف يا فيكتور، سأخبرك بكل شيء، وليحدث ما يحدث. إنك لا تفكر في أذى والدك المسكين، أليس كذلك يا فتى؟

قال هذا وهو في غاية التأثر، ثم أغلق على نفسه المكتب طوال اليوم، حيث استطعت أن أراه من خلال النافذة وهو مشغول بالكتابة.

وفي ذلك المساء، حدث ما بدا لي أنه خلاص كبير، لأن هدسون أخبرنا أنه سيغادرنا. دخل إلى غرفة الطعام عندما كنا نجلس بعد تناول العشاء، وأعلن نيته بصوت أجش لرجل نصف مخمور، وقال:

– لقد سئمت من نورفولك، وسأذهب إلى السيد بيدوس في هامبشاير، وأجرؤ على القول إنه سيُسَرُّ كثيرًا برؤيتي كما حدث معك يا سيدي.

فقال أبي، بلطف تسبب في غليان دمي:

– أرجو ألا ترحل وأنت غاضب منّا يا هدسون.

قال عابسًا وهو ينظر ناحيتي:

– لكنني لم أحصل على اعتذار.

قال أبي مستديرًا إليَّ:

– فيكتور، ستُقِرُّ بأنك قد عاملت هذا الزميل المحترم معاملة خشنة.

أجبته:

– على العكس من ذلك، أعتقد أننا قد أظهرنا صبرًا غير عادي تجاهه.

زمجر قائلًا:

– أوه، أتظن ذلك؟ حسنًا جدًّا يا صديقي. سنرى بشأن ذلك!

ثم خرج من الغرفة مترنحًا، وبعد نصف ساعة غادر المنزل، تاركًا والدي في حالة من التوتر الشديد. وليلة بعد أخرى سمعته وهو يجوب غرفته قلقًا، وعندما بدأ يستعيد ثقته بنفسه، نزلت الضربة أخيرًا.

سألته متلهفًا:

– كيف؟

– بأكثر الطرق غرابة؛ إذ وصلت رسالة إلى أبي مساء أمس، تحمل طابع بريد من فوردينغ بريدج. قرأها والدي وأمسك رأسه بكلتا يديه، وبدأ يدور حول الغرفة في دوائر صغيرة، كرجل فقد صوابه. وعندما جذبتُه أخيرًا إلى الأريكة، كان فمه وجفناه في حالة تشنج إلى جانب واحد، فأدركت أنه قد أصيب بجلطة دماغية. جاء الدكتور فوردهام على الفور، ووضعناه في الفراش، لكن الشلل انتشر في كل جسده، ولم يُظهر أي علامة على استعادة وعيه مرة أخرى، ولا أعتقد أننا سنجده ما يزال على قيد الحياة عند وصولنا.

صحت قائلًا:

– إنك تخيفني يا تريفور! إذن ما الذي احتوته تلك الرسالة لتسبب مثل هذه النتيجة المروعة؟

– لا شيء.. وهذا هو الجزء الذي يصعب تفسيره؛ كانت الرسالة سخيفة وتافهة. ولكن يا إلهي، حدث ما كنت أخشاه!

وبينما كان يقول ذلك، درنـا حول منعطف الطريـق المؤدي للبيت، وأبصرنا الضوء الخافت الدال على إسـدال كل سـتائر البيت. وحين اندفعنا إلى الباب، تشـنج وجه صديقي من الحزن؛ إذ خرج إلينا رجل يرتدي الأسود، فسأله تريفور:

– متى حدث ذلك يا دكتور؟

– بعد أن انصرفت مباشرة تقريبًا.

– هل استعاد وعيه؟

– للحظة قبل أن يموت.

– هل ترك لي أي رسائل؟

– لقد قال فقط إن الأوراق في الدرج الخلفي للخزانة اليابانية.

صعد صديقي مع الطبيب إلى الغرفة التي يرقد فيها أبوه ميتًا، في حين بقيت أنا في حجرة المكتب، أقلب الأمر برمته مرات ومرات في رأسي، وأنا أشعر بالكآبة كما لم أشعر بها في حياتي من قبل. فما هو ماضي تريفور؟ وما الذي يجعل ملاكمًا ومسافرًا ومُنقِّبًا عن الذهب يضع نفسه تحت رحمة هذا البحار ذي الوجه الحاد؟ ولماذا غُشيَ عليه عند الإشارة إلى الأحرف الأولى نصف الممسوحة على ذراعه؟ وما السبب في موته رعبًا عندما تلقى رسالة من فوردينغهام؟ ثم تذكرت أن فوردينغهام تقع في هامبشاير، وأن السيد بيدوس، الذي ذهب البحار لزيارته وابتزازه على الأرجح، يعيش أيضًا في هامبشاير. يوجد احتمالان للرسالة إذن؛ الأول أنها من هدسون البحار يخبره فيها أنه أفشى السر الآثم الذي يبدو أنه موجود، والثاني أنها كانت من السيد بيدوس، يحذر فيها شريكه القديم من أن السر على وشك الافتضاح. إلى هذا الحد، يبدو الأمر واضحًا بدرجة كافية. ولكن كيف يمكن أن تكون هذه الرسالة تافهة وغريبة، كما وصفها الابن؟ لا بد أنه أخطأ في قراءتها. إذا كان الأمر كذلك، فلا بد أنها مكتوبة بإحدى الشفرات السرية البارعة التي يدل معناها على شيء، في حين أنها تعني شيئًا آخر. يجب أن أطلع على

هذه الرسالة، وإذا كان فيها أي معنى خفي، فمن المؤكد أنني أستطيع اكتشافه. جلست مدة ساعة أفكر في الأمر في الظلام، حتى جاءتني أخيرًا إحدى الخادمات بمصباح، وبعدها مباشرة جاء صديقي تريفور شاحبًا، لكنه كان متماسكًا، وكان يمسك بنفس هذه الأوراق التي أضعها على ركبتي الآن. جلس قبالتي، وسحب المصباح إلى حافة الطاولة، وناولني ملاحظة قصيرة مكتوبة بخط سيئ -كما ترى- على ورقة من أوراق السجلات الرمادية، كتب فيها:

«تسير عملية توريد لَحْم الطَّرائد إلى لندن سيرًا مستقرًا. طُلب من هدسون؛ رئيس الحرس، تلقي جميع الطلبات الخاصة بصائدات الذباب، والحفاظ على حياة دجاجات الدراج الخاصة بك».

أجرؤ على القول إن علامات الحيرة ارتسمت على وجهي مثل وجهك الآن عندما قرأت هذه الرسالة لأول مرة. ثم أعدت قراءتها بعناية شديدة، ولكنها كانت مشفرة كما توقعت، ولا بد أن معنًى خفيًا قد دُفن وراء هذا المزيج الغريب من الكلمات. أو ربما كانت هناك دلالات متفق عليها مسبقًا لبعض العبارات مثل «صائدات الذباب» و«دجاجات الدراج» وفي هذه الحالة يكون المعنى اعتباطيًّا ولا يمكن استنتاجه بأي شكل من الأشكال. ومع ذلك، لقد كرهت أن أصدق أن الأمر كذلك، ويبدو أن وجود كلمة هدسون يدل على أن موضوع الرسالة يتعلق بالموضوع الذي سبق أن خمنت احتمالاته، وأنها من بيدوس وليس من البحار. لقد جربت قراءتها عكسيًّا، ولكن التركيبة لم تكن مشجعة. ثم جربت تبديل الكلمات، ولكن دون جدوى، إذ لم تلقِ الكلمات أي ضوء على المعنى.

وبعد ذلك بلحظة صار مفتاح اللغز في يدي، إذ وجدت أنني لو قرأت كلمة وتركت اثنتين، بدءًا من الأولى، لاتضحت الرسالة وأدت معنى يدفع تريفور الأب إلى اليأس. كانت الرسالة تحمل تحذيرًا قصيرًا ومقتضبًا، كما قرأته الآن لرفيقي: «اللعبة انتهت، هدسون كشف كل شيء، اهرب وانجُ بحياتك»[3].

دفن فيكتور تريفور وجهه في كفيه المرتجفتين، وقال:

– أعتقد أنها لا بد أن تكون كذلك. إن هذا أسوأ من الموت، لأنه يعني العار أيضًا. ولكن ما معنى «رئيس الحرس» و«دجاجات الدراج»؟

– إنها لا تعني شيئًا للرسالة، ولكنها قد تعني لنا الكثير، إذا لم تكن لدينا وسائل أخرى لاكتشاف شخصية المرسل. يمكنك أن ترى أنه بدأ بكتابة الكلمات التي يريدها: اللعبة.. انتهت.. إلخ، تاركًا بينها فراغات، وبعد ذلك، كان عليه، أن يملأ كل مساحة بأي كلمتين وذلك لإتمام الشفرة التي اتُّفِق عليها مسبقًا. كان من الطبيعي أن يستخدم الكلمات الأولى التي تطرأ على ذهنه، وإذا كان هناك الكثير من الكلمات التي تشير إلى الطيور والصيد، فهذا يجعلنا نحصر احتمالاتنا بين أنه من هواة الصيد أو المهتمين بتربية الطيور. هل تعرف أي شيء عن هذا المدعو بيدوس؟

قال:

– الآن وبعد أن ذكرت اسمه، أتذكر أن أبي المسكين قد اعتاد أن يتلقى منه دعوات للصيد في محمياته كل خريف.

قلت:

– إذن من دون شك، هو من كتب الرسالة. يبقى لنا فقط أن نكتشف ما السر الذي يبدو أن بحار هدسون قد حمله ليهدد به هذين الرجلين الثريين والمحترمين.

صاح صديقي:

– مع الأسف يا هولمز، أخشى أن تكون في السر خطيئة ما تجلب الخزي! ولكني لن أخفي عنك أي أسرار. هاك التصريح الذي صاغه والدي عندما علم أن الخطر من هدسون بات وشيكًا، وجدته في الخزانة اليابانية كما قال للطبيب. خذه واقرأه لي، لأنني لا أمتلك القوة ولا الشجاعة للقيام بذلك بنفسي.

هذه هي الأوراق ذاتها يا واتسون، التي أعطاها لي تريفور، وسوف أقرؤها لك، كما قرأتها له في حجرة المكتب في تلك الليلة. وكما ترى، مكتوب على الأوراق في الخارج عنوان: «بعض تفاصيل رحلة السفينة غلوريا سكوت، منذ مغادرتها فالموث في الثامن من أكتوبر عام 1855، إلى أن تحطمت عند خط عرض 15 درجة وعشرين دقيقة شمالًا، وخط طول 25 درجة وأربع عشرة دقيقة غربًا في السادس من نوفمبر». والأوراق في هيئة خطاب نصه كما يلي:

«ابني العزيز جدًّا..

الآن، بعد أن بدأ العار يظلم على السنوات الأخيرة من حياتي، يمكنني أن أكتب بكل صدق وأمانة أن الخوف من القانون ليس هو ما يحزنني ويحطم قلبي، ولا الخشية من فقدان منصبي في المقاطعة، أو حتى سقوطي في أعين كل من عرفوني؛ لكن التفكير في أنك ستخجل مني.. أنت يا من تحبني، ومن لم يكن لديك من الأسباب –كما آمل– إلا ما يدفعك إلى احترامي. ولكن، إذا نزلت الضربة التي ظلت معلقة فوقي إلى الأبد، فعندئذٍ يجب أن أتمنى أن تقرأ هذا، حتى تعرف مني مباشرة إلى أي مدى كنت ملومًا. ومن ناحية أخرى، إذا سار كل شيء على ما يرام (وهو ما قد يمن عليَّ به الله القادر على كل شيء!)، ثم حدث لأي سبب أن هذه الأوراق لم تُتلَف ووقعت بين يديك، فإني أستحلفك بكل ما هو مقدس لديك، وبذكرى أمك العزيزة، وبالحب الذي كان بيننا، أن تلقي بها في النار، وألا تفكر بها مرة أخرى.

إذا ما وقعت عيناك على هذا السطر، فاعلم أنني قد فُضحت بالفعل، وألقي القبض عليَّ، أو من المرجح –نظرًا إلى ضعف قلبي كما تعرف– أن أكون قد متُّ وتوقفت عن الكلام إلى الأبد. في كلتا الحالتين مضى وقت الكتمان، وكل كلمة أقولها لك هي الحقيقة الكاملة، وأقسم على ذلك، كما أتمنى الرحمة من الله.

إن اسمي –يا ولدي العزيز– ليس تريفور. فقد كنت أدعى جيمس أرميتاج في أيام شبابي، ويمكنك الآن أن تفهم الصدمة التي تعرضت لها قبل أسابيع قليلة عندما خاطبني صديقك الجامعي بكلمات بدا أنها تفضح سري. وقد دخلت إحدى المؤسسات المصرفية في لندن باسم أرميتاج، وبه أيضًا، أُدنت بخرق قوانين وطني، وحُكم عليَّ بالنفي خارج البلاد. لا تفكر فيَّ بقسوة يا بني. لقد كان دَيْن شرف –كما يسمى– كان عليَّ أن أدفعه، واستخدمت نقودًا لم تكن ملكي للقيام بذلك، وأنا على يقين من قدرتي على إعادتها قبل أن يكتشف أحد فقدانها. لكن سوء الحظ كان يلاحقني؛ فالأموال التي اعتمدت عليها لم تصل إليَّ قط، وكشف فحص مبكر للحسابات عن هذا العجز. وكان من الممكن التعامل مع القضية بتساهل أكثر، لكن القوانين كانت تطبق بدرجة أكثر قسوة منذ ثلاثين عامًا مما هي عليه الآن، وفي عيد

ميلادي الثالث والعشرين وجدت نفسي مقيدًا بالسلاسل كمجرم مع سبعة وثلاثين مدانًا آخر، وزُجَّ بنا في الطابق الأوسط من سفينة غلوريا سكوت المتجهة إلى أستراليا.

حدث ذلك في عام 1855 عندما كانت حرب القرم في أوجها، حيث أصبحت سفن نقل المساجين القديمة تستخدم إلى حد كبير وسائلَ نقل حربية بالبحر الأسود. لذلك، اضطرت الحكومة إلى استخدام سفن أصغر وأقل ملاءمة لنقل سجنائها. وكانت سفينة غلوريا سكوت تستخدم في تجارة الشاي الصيني، لكنها كانت قديمة الطراز، ثقيلة المقدمة، عريضة الجوانب، وقد تفوقت عليها السفن الشراعية الحديثة. كانت حمولتها خمسمئة طن، وإلى جانب السجناء البالغ عددهم ثمانية وثلاثين، كانت تحمل ستة وعشرين من طاقمها، وثمانية عشر جنديًّا، وقبطانًا، وثلاثة مساعدين، وطبيبًا، وكاهنًا، وأربعة حراس. أي كان بداخلها ما يقرب من مئة روح عندما أبحرنا من فالماوث.

كانت الفواصل بين زنزانات المحكوم عليهم، بدلًا من أن تكون من خشب البلوط السميك كما هو معتاد في سفن نقل المساجين، رفيعة وضعيفة للغاية. وكان السجين المجاور لزنزانتي، في مؤخرة السفينة، من الذين لاحظتهم بوجه خاص عندما أُقتَدنا إلى رصيف الميناء. كان شابًّا ذا وجه خالٍ من الشعر، وأنف طويل ورفيع، وفكين بارزين. كان يمشي بخُيَلاء رافعًا رأسه دائمًا في الهواء، وقد تميز بطوله الفارع. لا أعتقد أن أيًّا من رؤوسنا كان سيوازي كتفه، وأنا على يقين من أن طوله لم يكن ليقِلَّ بأي حال عن ستة أقدام ونصف. كان من الغريب وسط العديد من الوجوه الحزينة والمرهقة أن ترى وجهًا مليئًا بالنشاط والعزيمة. وكان ذلك بالنسبة إليَّ كمصدر الدفء في عاصفة ثلجية، ولذلك فقد كنت سعيدًا عندما اكتشفت أنه جاري، وأصبحت أكثر سعادة عندما سمعت همسة بالقرب من أذني في جوف الليل، ووجدت أنه تمكن من شق فتحة في اللوح الخشبي الفاصل بيننا.

قال:

– مرحبًا يا عزيزي! ما اسمك ولماذا أنت هنا؟

فأجبته، وسألته بدوري عن اسمه.

قال:

– أنا جاك برندرغاست، وأقسم بالله إنك سوف تتعلم أن تبارك اسمي قبل أن تنهي حديثك معي.

تذكرت سماعي قضيته، لأنها كانت قد أحدثت ضجة كبيرة في جميع أنحاء البلاد قبل بعض الوقت من إلقاء القبض عليَّ. لقد كان رجلًا من عائلة طيبة ومقتدرة، ولكن لديه عادات شريرة لا يمكن إصلاحها، وقد حصل، من خلال نظام غش ذكي، على مبالغ ضخمة من المال من كبار تجار لندن.

قال بفخر:

– ها، ها! أراك تتذكر قضيتي!

– أتذكرها جيدًا بالفعل.

– إذن، ربما تتذكر شيئًا غريبًا فيها؟

– ما هو ذلك؟

– أنني حصلت على ربع مليون جنيه تقريبًا، أتعرف ذلك؟

– هكذا قيل.

– ولكن لم يستعيدوا منها شيئًا، أليس كذلك؟

– صحيح.

– إذن، أين تعتقد وجود الرصيد؟

– ليست لديَّ أي فكرة.

صاح قائلًا:

– إنه بين سبابتي وإبهامي. أقسم بالله إن عندي من الأموال أكثر من شعر رأسك. وإذا كان لديك المال –يا بني– وتعرف كيف تتعامل معه وتوزعه، يمكنك فعل أي شيء. حسنًا، لا يمكن أن تعتقد أن الرجل الذي يمكنه فعل أي شيء، سيجلس حتى تبلى ملابسه في هذه الزنزانة ذات الرائحة الكريهة الناشئة عن بقايا الفئران والخنافس في نعش عتيق لسفينة صينية. لا يا سيدي، مثل هذا الرجل سوف يعتني بنفسه وسوف يعتني بأصدقائه. يمكنك الاعتماد عليه في ذلك، والوثوق بأنه سيسحبك خارج هذا المكان.

كان هذا أسلوبه في الحديث. في البداية اعتقدت أنه لا يعني شيئًا، ولكن بعد مدة، عندما اختبرني وجعلني أقسم بكل ما هو مقدس.. سمح لي أن أفهم أنه توجد بالفعل مؤامرة للسيطرة على السفينة. دبرها عشرة من السجناء قبل أن يصعدوا على متنها، وكان بريندرغاست هو القائد، وكان ماله هو القوة المحركة.

قال:

– لي شريك جيد ونادر، ومخلص تمامًا. لديه النقود، هل تستطيع أن تخمن أين هو في هذه اللحظة؟ إنه كاهن هذه السفينة، الكاهن ولا أقل منه! صعد على متن هذه السفينة مرتديًا معطفًا أسود، وكل أوراقه صحيحة ومعه ما يكفي من الأموال لشراء هذه السفينة بكل ما فيها، إن أفراد الطاقم كلهم معه جسدًا وروحًا. لقد اشترى إخلاصهم؛ اشتراهم بالجملة! وقد فعل ذلك قبل أن يوقِّعوا الدخول إلى السفينة. ومعه أيضًا اثنان من الحراس والمساعد الثاني، ويمكنه أن يحصل على القبطان نفسه إذا اعتقد أنه ذو فائدة.

سألت:

– وماذا سنفعل إذن؟

قال:

– وماذا تعتقد؟ سنجعل معاطف بعض هؤلاء الجنود أكثر حمرة مما جعلها الخياط؛ سنلطخها بالدم.

قلت:

– ولكنهم مسلحون.

– ونحن أيضًا سنكون كذلك يا بني، يوجد حزام من الأسلحة لكل فرد منّا، وإذا لم نتمكن من حمل هذه السفينة، مع وجود الطاقم على ظهورنا، فقد حان الوقت لإرسالنا جميعًا إلى مدرسة داخلية للفتيات الصغيرات! لتتحدث إلى جارك على اليسار الليلة، وترى ما إذا كان يمكن الوثوق به.

فعلت ذلك، ووجدت جاري الآخر رفيقًا شابًا في موقعي نفسه إلى حد كبير، وكانت جريمته التزوير. كان اسمه إيفانز، لكنه غيَّره بعد ذلك مثلي، وهو الآن رجل ثري ومشهور في جنوب إنجلترا. أبدى استعداده التام للانضمام إلى المؤامرة، بعدِّها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أنفسنا، وقبل أن نعبر الخليج لم يكن هناك سوى اثنين من السجناء اللذين لم يكونا على علم بالأمر. كان أحدهما ضعيف العقل، ولم نجرؤ على الوثوق به، والآخر كان يعاني اليرقان، ولا يمكن أن يفيدنا بأي شيء.

منذ البداية لم يكن شيء يمنعنا من الاستيلاء على السفينة. كان الطاقمُ مجموعةً من الحراس، اُختيروا خصيصى من أجل هذه المهمة. وأما الكاهن المزيف فكان يأتي إلى زنازيننا لتقديم الموعظة، حاملًا حقيبة سوداء، من المفترض أن تكون مليئة بالمنشورات الدينية، حتى إنه لم يأتِ اليوم الثالث إلا وقد خبأ كل واحد منّا مبردًا وحزامًا من الأسلحة، ورطلًا من البارود، وعشرين طلقة تحت سريره. كان اثنان من الحراس من عملاء بريندرغاست، وكان رفيقه الثاني هو يده اليمنى. ولم يبقَ ضدنا سوى القبطان واثنين من المساعدين وحارسين والملازم مارتن وجنوده الثمانية عشر والطبيب. وبالرغم من قوة مركزنا، فقد عقدنا العزم على عدم إهمال أي احتياطات، والقيام بهجومنا فجأة في الليل. إلا أن الهجوم جاء أسرع مما توقعنا، وبهذه الطريقة.

في إحدى الأمسيات، بعد انطلاقنا بنحو ثلاثة أسابيع، نزل الطبيب ليرى أحد السجناء المرضى، وبينما هو يفحصه، وضع يده عند مؤخرة سريره فأحس بهياكل المسدسات. ولو صمت الطبيب، لكان من الممكن أن ينسف كل خططنا، لكنه كان شابًا عصبيًّا صغيرًا، لذلك أطلق صرخة مفاجَأة وشحب وجهه، فعرف السجين ما حدث فقبض على الطبيب وكممه قبل أن يتمكن من تحذير الآخرين، ثم قيده إلى السرير، وفتح الباب المؤدي إلى سطح السفينة، فاندفعنا منه جميعًا على عجل. وأطلقنا الرصاص على الحارسين، فقتلناهما، وكذلك فعلنا بجندي برتبة عريف جاء يركض ليستطلع الأمر. كان عند باب حجرة القيادة جنديان آخران، وبدا أن أسلحتهما ليست معبأة بالرصاص، لأنهما لم يطلقا الرصاص علينا مطلقًا، فأطلقنا نحن الرصاص عليهما في أثناء محاولتهما استخدام الحربة. ثم اندفعنا إلى مقصورة القبطان، ولكن عندما فتحنا الباب سمعنا انفجارًا يأتي من الداخل، وهناك انكفأ القبطان ورأسه مضرجٌ بالدماء فوق مخطط المحيط الأطلسي الذي كان مثبتًا على المنضدة، وقد وقف الكاهن بجواره، والدخان يخرج من مسدسه. قيَّد أفرادُ الطاقم المساعدين، وبدا أن العمل بأكمله قد سُوِّي.

وتجمعنا في الغرفة الواسعة بجوار كابينة القبطان، حيث أخذنا نتقلب على الأرائك، ونتبادل أطراف الحديث، إذ كنا تحت تأثير الانفعال بأننا أصبحنا أحرارًا مرة أخرى. كانت هناك خزانات في كل مكان، فتح ويلسون، الكاهن المزيف، واحدة منها، وسحب دزينة من نبيذ الشيري البني. كسرنا أعناق الزجاجات، وأفرغنا محتوياتها في الكؤوس، وبينما نحن نتجرع الشراب، سمعنا فجأة ودون سابق إنذار قرقعة البنادق في آذاننا، وامتلأ المكان بالدخان لدرجة أننا لم نستطع رؤية ما هو أبعد من الطاولة.

وبعد أن انقشع الدخان، واتضحت الرؤية، شاهدنا خرابًا في المكان؛ كان ويلسون وثمانية آخرون يتلوون فوق بعضهم بعضًا في الطابق العلوي، وقد اختلط الدم بالنبيذ فوق الطاولة، الأمر الذي ما زال يصيبني بالغثيان حتى الآن، عندما أفكر به. لقد أذهلنا المشهد لدرجة أنني أعتقد أنه كان ينبغي لنا التخلي عن مؤامرتنا لولا بريندرغاست الذي صرخ هائجًا واندفع نحو الباب كالثور يتبعه كل من كان حيًّا منّا. ركضنا، وهناك عند مؤخرة السفينة أبصرنا الملازم وعشرة من رجاله. كانت النوافذ فوق طاولة غرفتنا مفتوحة بعض الشيء، فأخذ الجنود يطلقون الرصاص علينا من خلالها. وقد هجمنا عليهم قبل أن يتمكنوا من إعادة تحميل بنادقهم بالبارود، فوقفوا أمامنا بشجاعة، لكن اليد العليا كانت لنا، وفي غضون خمس دقائق انتهى كل شيء. يا إلهي! هل يوجد في العالم كله مجزرة مثل مجزرة تلك السفينة؟! كان بريندرغاست مثل الشيطان الهائج، أخذ يلتقط الجنود بيديه كما لو كانوا أطفالًا ويلقي بهم في البحر أحياء أو أمواتًا. وكان هناك رقيب أصيب بجروح بالغة واستمر مع ذلك في السباحة مدة طويلة تثير الدهشة، حتى أطلق أحدهم النار على رأسه من باب الرحمة. وعندما انتهى القتال، لم يبقَ من أعدائنا على قيد الحياة سوى الحراس والمساعدين والطبيب.

وقد نشأ نزاع كبير عليهم؛ إذ كان كثير منا سعداء بما يكفي لاستعادة حريتنا مرة أخرى، ومع ذلك، لم تكن لدينا رغبة في أن توصم نفوسنا بالقتل. فقد كان إطلاق الرصاص على الجنود المسلحين شيئًا، والقتل بدم بارد شيئًا آخر. قال ثمانية منا؛ خمسة مساجين وثلاثة بحارة، إنهم ضد تنفيذ ذلك. ولكن ما من شيء كان يمنع بريندرغاست ومَن معه عن التقدم، فقال إن فرصتنا الوحيدة للنجاة تكمن في القيام بعمل نظيف، لن نترك أحدًا شاهدًا علينا. وكدنا -نحن المعارضين- أن نتقاسم مصير الأسرى، لكنه قال في النهاية، إن بوسعنا المغادرة على متن أحد القوارب إن شئنا. فرحبنا بالعرض، لأننا سئمنا بالفعل هذه الأعمال المتعطشة للدماء، ورأينا أنه سيكون هناك ما هو أسوأ قبل تنفيذ ذلك. فزودونا بملابس بحارة، وقارورة مياه وبرميلين، واحد فيه خردة والآخر فيه طعام، وأعطونا بوصلة، وألقى لنا بريندرغاست خريطة، وأخبرنا أن نتصرف كبحارة ناجين من السفينة التي تحطمت في عرض البحر عند خط عرض 15 درجة وعشرين دقيقة شمالًا، وخط طول 25 درجة وأربع عشرة دقيقة غربًا، ثم قطع حبل القارب وتركنا نذهب.

وصلنا الآن إلى الجزء الأكثر إثارة للدهشة في قصتي يا بني العزيز. كان البحارة قد سحبوا عارضة الشراع الأمامية إلى الخلف في أثناء الانتفاضة، وحين تركناهم عادوا ونشروها ثانية، وحيث كانت هناك رياح خفيفة آتية من الشمال والشرق، أخذت السفينة تبتعد عنا ببطء. وأخذ قاربنا يتهاوى صعودًا وهبوطًا على صفحات من الأمواج الممتدة الناعمة، وكنت أنا وإيفانز أكثر من في القارب تعليمًا، فجلسنا ندرس الخريطة لنستطيع تحديد موقعنا ونخطط إلى أي الشواطئ يجب أن نصل. لقد كان سؤالًا جيدًا، حيث كان ساحل رأس فيردز على بعد نحو خمسمئة ميل إلى الشمال منا، والساحل الإفريقي على بعد نحو سبعمئة ميل إلى الشرق. وإجمالًا، عندما هبَّت الرياح من الشمال، رأينا أن سيراليون قد تكون أنسب ما نتجه نحوه، فأدرنا مقدمة القارب في هذا الاتجاه، حيث بدت السفينة في ذلك الوقت مجرد شبح على ميمنتنا. وفجأة عندما نظرنا إليها، رأينا سحابة كثيفة سوداء من الدخان تتصاعد منها، وتخيم كشجرة وحشية على أفق السماء. وبعد بضع ثوان، سمعنا صوت انفجار يدوِّي في آذاننا كالرعد،

ومع تلاشي الدخان لم نجد أي علامة على غلوريا سكوت. في لحظة، أدرنا مقدمة القارب مرة أخرى وجدَّفنا بكل قوتنا إلى المكان الذي كان الضباب لا يزال يحيط به فوق الماء ليشير إلى مكان هذه الكارثة.

مرت ساعة طويلة قبل أن نصل إلى المكان، وفي البداية خفنا أن نكون قد وصلنا متأخرين عن إنقاذ أي شخص. أظهر لنا قارب محطم وعدد من الصناديق وشظايا الساريات التي ترتفع وتهبط مع الأمواج مكان غرق السفينة، لكن لم تكن هناك أي علامة على وجود حياة، وقد ابتعدنا في حالة من اليأس عندما سمعنا صرخة استغاثة، ورأينا على مسافة ما قطعة من الحطام مع رجل ممدد فوقها. وعندما سحبناه على متن القارب، أثبت أنه بحار شاب يحمل اسم هدسون، كان محترقًا ومرهقًا لدرجة أنه لم يستطع تقديم أي تقرير عما حدث حتى صباح اليوم التالي.

يبدو أنه بعد مغادرتنا، شرع بريندرغاست وعصابته في إعدام الخمسة الأسرى المتبقين. أُطلِق الرصاص على الحارسين وأُلقيَا في البحر، وكذلك المساعد الثالث. ثم نزل بريندرغاست بين السطحين وقطع رقبة الطبيب المسكين بيديه. لم يبقَ سوى المساعد الأول، الذي كان رجلًا جريئًا ونشيطًا. فعندما رأى ذلك السجين يقترب منه بالسكين الملطخة بالدماء في يده، فك قيوده، التي كان قد ابتكر طريقة ما لفكها، واندفع إلى أسفل سطح السفينة واقتحم المخزن الخلفي. عشرات المساجين الذين نزلوا بمسدساتهم بحثًا عنه، عثروا عليه ومعه علبة كبريت في يده، جالسًا بجانب برميل مفتوح من البارود، كان ذلك البرميل واحدًا من مئة أخرى محمولة على متن السفينة، وأَقسم أنه سيفجر كل شيء، إذا تعرض له أحد بأي شكل من الأشكال. حدث الانفجار لاحقًا، على الرغم من اعتقاد هدسون أنه نجم عن رصاصة طائشة أطلقها أحد المساجين وليس بسبب كبريت مساعد القبطان. ليكن السبب ما يكون، فقد كانت تلك نهاية غلوريا سكوت ونهاية المتمردين الذين استولوا عليها.

هذا باختصار، يا ولدي العزيز، هو تاريخ ذلك العمل الفظيع الذي شاركت فيه. وفي اليوم التالي، انتشلتنا سفينة «هوتسبير» المتجهة إلى أستراليا، التي لم نجد صعوبة في إقناع قبطانها بأننا ناجون من سفينة ركاب غرقت. أما سفينة النقل غلوريا سكوت فسجلتها وزارة البحرية على أنها فقدت في عرض البحر، ولم تتسرب أي كلمة عن مصيرها الحقيقي. وبعد رحلة بحرية مريحة، رست السفينة «هوتسبير» بنا في ميناء سيدني، حيث غيَّرنا أنا وإيفانز أسماءنا وشققنا طريقنا إلى مواضع الحفر بحثًا عن الذهب، حيث لم نواجه صعوبة في التخلص من هوياتنا السابقة بين الحشود التي تجمعت من جميع الدول. لا أحتاج إلى سرد البقية. فقد جمعنا ثروة هائلة، وسافرنا، وعدنا إلى إنجلترا كمستعمرين ثريين، واشترينا العقارات الريفية. لأكثر من عشرين عامًا عشنا حياة سلمية ومفيدة، وكنا نأمل أن يدفن ماضينا إلى الأبد. ويمكنك أن تتصور مشاعري عندما جاء إلينا ذلك البحار اللعين، حيث تعرفت فيه على الفور إلى الرجل الذي انتُشل من الحطام. لقد تعقبنا بطريقة ما، وقرر أن يعيش على مخاوفنا. ستفهم الآن كيف أنني جاهدت للحفاظ على السلام معه، وسوف تتعاطف معي إلى حد ما في المخاوف التي ستقع عليَّ، بعدما انتقل من عندي إلى ضحيته الأخرى وهو يهدد ويتوعد».

وكتب في آخر الخطاب عبارة بيد مهزوزة، بالكاد استطعنا قراءتها، وكانت كلماتها:

«كتب لي بيدوس بالشفرة ليخبرني أن «هـ» قد باح بكل شيء. فليرحم الله أرواحنا».

كانت تلك هي الرواية التي قرأتها في تلك الليلة على صديقي تريفور، وأعتقد يا واتسون، أنها كانت درامية في ظل تلك الظروف. وقع الرجل الطيب فريسة للحزن، وانكسر قلبه، ورحل إلى مزارع الشاي في تيراي، حيث سمعت أنه نجح وجمع ثروة كبيرة. أما بالنسبة إلى البحار وبيدوس، فلم أسمع أي شيء عنهما مرة أخرى بعد ذلك اليوم الذي كُتب فيه خطاب التحذير. كلاهما اختفى تمامًا وبالكامل. لم تُقدَّم أي شكوى إلى الشرطة، ويبدو أن بيدوس قد أخطأ في فهم التهديد على أنه سيفضحه. لقد شوهد هدسون يتربص في المكان، وكانت الشرطة تعتقد أنه تخلص من بيدوس واستولى على أمواله. بالنسبة إليَّ أعتقد أن الحقيقة كانت عكس ذلك تمامًا. فالاحتمال الأكبر أن يكون بيدوس وسط شعوره باليأس والتعرض للخيانة، قد انتقم من هدسون، وهرب من البلاد بكل ما استطاع الوصول إليه من أموال.

هذه هي الحقائق المتعلقة بالقضية يا دكتور واتسون، وإذا رأيت أنها تفيد مجموعتك، فهي تحت أمرك، بكل رحابة صدر.

فصيلة من الطيور تتبع رتبة العصفوريات.

كلمات اللغز متوافقة في حلها مع ترتيب كلمات نص الرسالة الإنجليزي الأصلي وليس المُترجَم:

"**The** supply of **game** for London **is** going steadily **up**,' it ran. 'Head-keeper **Hudson**, we believe, **has** been now **told** to receive **all** orders for **fly**-paper and **for** preservation of **your** hen-pheasant's **life**."

مغامرة تراث أسرة موسغريف

كان الشيء الشاذ الذي كثيرًا ما أذهلني في شخصية صديقي شيرلوك هولمز، أنه على الرغم من كونه أدق البشر تفكيرًا وأكثرهم منهجية، وعلى الرغم من لياقة ملابسه وبساطتها، فإنه كان واحدًا من أكثر الرجال غير المنظمين لأدواتهم وأمتعتهم الشخصية، وكان أكثر مَن يربك رفيقه في المسكن. وهذا لا ينفي أنني، أنا نفسي، لست مثاليًّا في هذه الناحية بالذات. لقد جعلني العمل القاسي في أفغانستان أكثر تراخيًا بما لا يليق برجل الطب. ولكن يوجد حدود لكل شيء؛ فعندما أجد رجلًا يضع السيجار في دلو الفحم، والتبغ في الخف الفارسي ناحية أصابع القدم، ويثبت رسائله التي لم يرد عليها بسكين الجيب في مركز رف موقده الخشبي، عندئذٍ أبدأ في الكشف عن صفاتي الحميدة. لطالما عددت أن التمرين بالمسدس يجب أن يكون -بوضوح- هواية تُمارس في الهواء الطلق؛ وعندما يجلس هولمز، في واحدة من شطحات مزاجه الغريب، على مقعده ذي المتكأين، يعبث في زَنْد مسدسه الدقيق ومائة خرطوشة، ثم يشرع في تزيين الجدار المقابل له بالحروف الوطنية، يصنعها بثقوب الرصاص، وحينها أشعر شعورًا قويًّا بأن جو حجرتنا ومظهرها لم يتحسنا بهذه النقوش إطلاقًا.

كانت غرفتنا دائمًا ما تمتلئ بالمواد الكيميائية، وببقايا أدلة الجرائم التي دأبت على التجول في أماكن غير محتملة، كالظهور في طبق الزبدة أو حتى في الأماكن التي نادرًا ما نحتاج إليها، غير أن أوراقه كانت جوهر عملي. فقد كان يخشى من إتلاف الوثائق، خاصة تلك التي ترتبط بإحدى قضاياه السابقة، ومع ذلك لم يكن سوى مرة واحدة في كل عام أو عامين، يحشد طاقته لتدوينها وترتيبها، لأنه كما ذكرت في مكان ما في هذه المذكرات المفككة: أن ثورات انفعالاته الناتجة عن فعله البطولي في قضية لمع فيها اسمه، يتبعها مدة من الفتور، التي يقضي فيها وقتًا من الراحة مستلقيًا مع قيثارته وكتبه التي قلما تتحرك إلا من الأريكة إلى المنضدة. وهكذا تراكمت أوراقه شهرًا بعد شهر، حتى تكدس كل ركن من أركان الحجرة بحزم من المخطوطات التي لا يمكن أن تحرق مهما كانت الأسباب، والتي لا يمكن أن تنقل من مكانها إلا من قبل صاحبها. في إحدى ليالي الشتاء، بينما كنا نجلس معًا بالقرب من نار الموقد، جازفت واقترحت عليه، بما أنه قد انتهى من إلصاق المقتطفات في دفتره العادي، أن يقضي الساعتين التاليتين في ترتيب حجرتنا وجعلها أكثر ملائمة للمعيشة. لم يستطع أن ينكر عدالة طلبي، وهكذا ذهب إلى حجرة نومه بوجه مكتئب، ثم عاد منها وهو يسحب صندوقًا معدنيًا كبيرًا خلفه، ووضعه في منتصف أرضية الحجرة، وجلس القرفصاء على مقعد أمامه، وألقى غطاءه إلى الخلف. استطعت أن أرى أن ثلثه كان بالفعل مليئًا بحزم من الأوراق المربوطة بشريط أحمر في حزم منفصلة.

قال وهو ينظر إليَّ بعينين ماكرتين:

- هنا ما يكفي من القضايا يا واتسون، أعتقد أنك إذا عرفت كل ما لديَّ في هذا الصندوق، لطلبت مني إخراج بعضه بدلًا من وضع حزم أخرى فيه.

فسألته:

- هل يحتوي على سجلات قضاياك الأولى إذن؟ كم تمنيت أن أدون المذكرات عن تلك القضايا!

قال وهو يرفع حزمة تلو الأخرى بعناية ورفق:

– نعم يا ولدي، لقد اشتغلت على كل تلك القضايا في بدايات التحاقي بهذه المهنة، وقبل أن يأتي كاتب سيرتي الذاتية ويمجدني. لم تكلل جميع هذه القضايا بالنجاح يا واتسون، بل توجد بعض المشكلات البسيطة بينها. فهذه الحزمة تحتوي على سجل جرائم القتل في «تارلتون»، وهذه قضية «فامبيري» تاجر الخمور، وهذه مغامرة العجوز الروسية، وهذه القضية الفريدة للعكاز المصنوع من الألومنيوم، إضافة إلى سرد كامل لقضية «ريكوليتي» ذي القدم العوجاء وزوجته البغيضة. وهذه.. آه! هذه حقًّا، شيء عبارة عن بحث صغير.

أنزل ذراعه إلى قاع الصندوق، وأخرج صندوقًا خشبيًّا صغيرًا ذا غطاء منزلق، كالصناديق التي تحفظ فيها لعب الأطفال، وأخرج منه قصاصة ورق مجعدة، ومفتاحًا نحاسيًّا قديم الطراز، ووتدًا خشبيًّا وكرة متصلة به بخيط رفيع، وثلاثة أقراص معدنية قديمة صدئة.

فسألني مبتسمًا لِما رآه في وجهي من ملامح معبرة:

– حسنًا يا ولدي، ماذا تستنتج من هذه المجموعة؟

– إنها مجموعة غريبة.

– غريبة جدًّا، والأغرب قصتها التي لا بد أن تذهلك أكثر منها.

– إذن، فلهذه البقايا تاريخ؟

– نعم، لها تاريخ، جعلها هي نفسها، تاريخ.

– ماذا تعني بذلك؟

أخرج هولمز تلك البقايا واحدةً تلو الأخرى، ووضعها عند حافة المنضدة، ثم جلس على مقعده وأعاد النظر إليها، وفي عينيه بريق الرضا. وقال:

– هذا كل ما تبقى لي ليذكرني بتراث عائلة موسغريف.

سبق أن سمعته يذكر هذه القضية أكثر من مرة، رغم أنني لم أتمكن من معرفة التفاصيل، لذلك قلت له:

– يسعدني أن تطلعني على حكايتها.

فقال بمكر:

– وتترك القمامة لي؟ لن يتطلب الترتيب جهدًا كبيرًا يا واتسون. ولكن يسرني أن تضيف هذه القضية إلى سجلاتك، لأنها تشمل نقاطًا تجعلها فريدة من نوعها في السجلات الجنائية لهذا البلد أو –على ما أعتقد– وفي كل بلد آخر. فمجموعة أعمالي المتواضعة لا تكون كاملة إلا إذا تضمنت هذه القضية بالغة الغرابة.

قد تتذكر قضية سفينة «غلوريا سكوت»، ومحادثاتي مع الرجل التعيس الذي أخبرتك بمصيره، والذي حوَّل انتباهي إلى هذه المهنة فصارت كل حياتي. تراني الآن وقد أصبح اسمي معروفًا على نطاق واسع، وقد اعترف بي بوجه عام الجمهور والقوات الحكومية على حد سواء بصفتي أعمل في محكمة استئناف نهائية في القضايا المشكوك فيها. وحتى عندما عرفتني أول مرة؛ في وقت القضية التي أحييت

ذكراها بعنوان «دراسة في اللون القرمزي»، كنت قد أسست بالفعل شبكة عمل جديرة بالاعتبار، وإن لم تكن مثمرة. بالكاد تستطيع أن تدرك مدى صعوبة تأسيسها في البداية، وكم من الوقت كان عليَّ أن أنتظر قبل أن أنجح في إحراز أي تقدم.

عندما جئت إلى لندن لأول مرة، أقمت في شقة بشارع مونتاج، عند منعطف الطريق المؤدي إلى المتحف البريطاني، وبقيت هناك أستمتع بوقت فراغي في دراسة كل الفروع العلمية التي قد تجعلني أكثر كفاءة. بين الحين والآخر، كانت تقابلني بعض القضايا، التي تأتيني أساسًا عن طريق زملائي القدامى؛ إذ كثر الحديث عني وعن أساليبي خلال سنواتي الأخيرة في الجامعة. كانت الحالة الثالثة من هذه الحالات تتعلق بتراث عائلة موسغريف، وبفضل المتعة التي أثارتها تلك السلسلة الفريدة من الأحداث، والقضايا الكبيرة التي ثبت أنها على المِحَكّ، اتخذت خطوتي الأولى الواسعة نحو المكانة التي أحظى بها الآن. كان «ريجينالد موسغريف» طالبًا في كلِّيتي نفسها، تربطني به معرفة طفيفة. لم يكن يتمتع بشعبية كبيرة بين الطلاب الجامعيين، على الرغم من أنه بدا لي دائمًا أن ما يعدُّه الإنسان فخرًا، ما هو في الحقيقة سوى محاولة لتغطية عدم الثقة بالنفس. كان في مظهره رجلًا من النوع بالغ الأرستقراطية؛ نحيل الجسم، شامخ الأنف، واسع العينين، ومهذب الأخلاق. لقد كان في الحقيقة سليلًا لأسرة من أعرق الأسر في المملكة، وإن كان الفرع الذي نبت منه قد انفصل عن الجذع الأصلي الشمالي لأسرة «موسغريف» في وقت ما من القرن السادس عشر، وأسس نفسه في وسترن ساكس، حيث يحتمل أن يكون بيت «هيرلستون» هو أقدم البيوت المسكونة في المملكة. يبدو أنه يوجد شيء عن مسقط رأس هذا الرجل قد التصق به، لم أنظر قط إلى وجهه الحاد والشاحب، ولا إلى وضعية رأسه، دون أن أفكر في وجود علاقة بينه وبين المداخل المقنطرة الرمادية، والنوافذ المقسّمة، وكل الأطلال المهيبة للعهد الإقطاعي. انجرفنا مرة أو مرتين إلى الحديث، وأتذكر أنه أعرب أكثر من مرة عن اهتمامه الشديد بأساليبي في الملاحظة والاستدلال.

لمدة أربع سنوات لم أرَه ولم أسمع عنه شيئًا، حتى جاء ذات صباح إلى حجرتي في شارع مونتاج. كانَ قد تغير قليلًا، بدا في مظهر شاب أنيق، والحق يقال إنه كان أنيقًا في ملبسه دائمًا، وله الأسلوب الهادئ واللطيف نفسه الذي كان يميزه في السابق.

سألته بعد أن تصافحنا بحرارة:

– كيف تسير الأمور معك يا موسغريف؟

قال:

– ربما سمعت عن وفاة والدي المسكين. لقد مات قبل عامين، ومنذ ذلك الحين، تحملتُ مسؤولية إدارة ممتلكات هيرلستون، كما أنني عضو نائب عن منطقتي، لذا فإن حياتي مشغولة باستمرار. قد عرفتُ، يا هولمز، أنك اتجهت إلى استخدام تلك المواهب التي طالما أدهشتنا بها، في أغراض عملية.

قلت:

– نعم، لقد اعتدت أن أعيش بذكائي.

– يسعدني سماع ذلك، لأن نصيحتك في الوقت الحالي ستكون ذات قيمة كبيرة بالنسبة إليَّ، حدثت أمور غريبة جدًّا في هيرلستون، ولم تتمكن الشرطة من إلقاء أي ضوء على الأمر؛ إنها حقًّا قضية استثنائية وغير قابلة للتفسير.

يمكنك أن تتخيل مدى لهفتي إلى الاستماع إليه يا واتسون، لأن الفرصة التي كنتُ ألهث من أجلها طوال تلك الأشهر من التقاعس عن العمل بدت في متناول يدي. كنت أؤمن في أعماق قلبي أنه يمكنني النجاح حيث فشل الآخرون، وها هي الفرصة قد أتيحت لي لاختبار نفسي.

وعندها صحتُ قائلًا:

– أرجوك، أخبرني بالتفاصيل.

قال هولمز:

– جلس ريجينالد موسغريف قبالتي، وأشعل سيجارة قدمتها إليه، وقال:

– يجب أن تعلم، على الرغم من كوني عازبًا، أني ملزم بالاحتفاظ بعدد كبير من الخدم في هيرلستون، لأنه قصر قديم مترامي الأطراف، ويتطلب قدرًا كبيرًا من العناية. كما أنني أقيم دائمًا حفلات منزلية في شهور صيد الدراج. هناك ثماني خادمات، وخادمان، وكبير الخدم، وطاهٍ، وغلام صغير. وهذا بالطبع، بخلاف طاقم العمل المنفصل للحديقة والإسطبل.

من بين هؤلاء الخدم، كان «برونتون» كبير الخدم الذي قضى أطول مدة في خدمتنا، كان مُدرِّسًا شابًّا صغير السن ومتعثرًا في عمله، عندما تولى والدي أمره لأول مرة، وأخذه ليعمل كبيرًا للخدم عنده. لقد كان رجلًا نشيطًا، جميل المحيا وبهيَّ الطلعة، يتمتع بشخصية عظيمة، وسرعان ما أصبح محط اهتمام وتقدير الأسرة بأكملها. وعلى الرغم من أنه ظلّ معنا لمدة عشرين سنة، فإن عمره الآن لا يتجاوز الأربعين. يتمتع بمميزات شخصية ومواهب استثنائية؛ فهو يستطيع التحدث بعدة لغات والعزف على جميع الآلات الموسيقية تقريبًا. ومن المدهش أنه ظل قانعًا بمثل هذا العمل طوال العشرين سنة، ولكنه بدا مرتاحًا ولم يهدر طاقة في التفكير في تغيير عمله. وليكن في علمك أن كبير خدم هيرلستون هذا شخصية لا ينساها كل من زارنا.

لكن هذا النموذج المثالي له عيب واحد؛ فهو «دون جوان»[4]، وبوسعك أن تتصور أن دورًا كهذا ليس من الصعب لعبه في منطقة ريفية هادئة. عندما كان متزوجًا، كان منضبطًا حسن السلوك، ولكن منذ أن أصبح أرمل، لم يتوقف عن التسبب في المتاعب لنا. قبل بضعة أشهر، كنا نأمل أن تستقر أوضاعه مرة أخرى؛ إذ خطب «راشيل هاولز» خادمة المنزل الثانية، لكنه تركها وخطب «جانيت تريغيليس» ابنة رئيس شؤون الصيد. و «راشيل» هذه فتاة طيبة جدًّا، رغم تأصل طباع أهل «ويلز» فيها، فكانت مزاجية وسريعة الانفعال. أصيبت بحمى دماغية حادة[5]، فأخذت تدور وتطوف كشبح في أنحاء البيت، وظلت كذلك حتى أمس. كانت هذه أول مأساة في هيرلستون، ولكن حدثت مأساة أخرى محت السابقة عن عقولنا، بدأت بوصمة عار وطرد كبير الخدم برونتون.

إليك ما حدث: لقد قلت إن ذلك الرجل ذكي جدًّا؛ وهذا الذكاء المفرط تسبب في تدميره، إذ يبدو أنه ساقه إلى فضول لا يمكن إشباعه بشأن أشياء لا تهمه على الإطلاق. لم تكن لديَّ أي فكرة عن المدى الذي

سيحمله إليه هذا، حتى وقع حادث بسيط فتح عيني عليه.

أخبرتك أن القصر مترامي الأطراف، وفي أحد أيام الأسبوع الماضي، تحديدًا ليلة الخميس، أصابني أرق سلب النوم من عيني؛ إذ تناولت بحماقة كوبًا من القهوة الثقيلة بعد العشاء. وبعد أن ناضلت ضد هذا الأرق حتى الثانية صباحًا، أصبحت في حال ميؤوس منها، فقمت وأشعلت شمعة بِنِية إكمال رواية كنت قد بدأت في قراءتها وتركتها في حجرة البلياردو، لذلك ارتديت معطفي وذهبت لإحضارها.

من أجل الوصول إلى حجرة البلياردو، كان عليَّ أن أهبط سُلَّمًا، ثم أعبر ممرًا يؤدي إلى المكتبة وإلى حجرة الأسلحة. يمكنك أن تتخيل دهشتي عندما نظرت خلال الممر ورأيت بصيصًا من النور ينبعث من الباب المفتوح للمكتبة. كنت قد أطفأت المصباح وأغلقت الباب بنفسي قبل أن أنام. وبطبيعة الحال، اتجه تفكيري إلى وجود لصوص؛ فجدران الممرات في هيرلستون مزينة بالكثير من التحف والأسلحة الأثرية. فتناولت بلطة حربية من بين تلك الأسلحة، وتركت شمعتي خلفي، وتسللت على أطراف أصابع قدمي خلال الممر واختلست النظر من الباب المفتوح، ودهشت برؤية «برونتون» كبير الخدم، جالسًا في المكتبة وقد ارتدى ثيابه كاملة، مع قصاصة من الورق تبدو وكأنها خريطة نشرها فوق ركبتيه، وجبهته مائلة إلى الأمام فوق يده في تفكير عميق. وقفت وقد أخرس الذهول لساني أراقبه خلال الظلام، حيث ألقت شمعة رفيعة على طرف المنضدة ضوءًا ضعيفًا يكفي لأن يبيّن لي أنه كان مرتديًا ملابسه بالكامل. وفي أثناء استمراري في مراقبته، نهض من مقعده فجأة، وسار إلى مكتب في أحد جوانب المكتبة، ففتحه، وسحب أحد الأدراج، فأخرج منه ورقة، ثم عاد إلى مقعده وبسط الورقة بجانب الشمعة على طرف المنضدة، وبدأ في دراستها باهتمام شديد. فتغلب عليَّ سخطي أمام العبث بوثائق أسرتنا على هذا النحو، لدرجة أنني تقدمت خطوة إلى الأمام، فأحس بي «برونتون» ورفع بصره إلى أعلى، فأبصرني واقفًا في المدخل، فهبّ واقفًا على قدميه، وقد شحب وجهه من الهلع، ودس الورقة التي كان يدرسها في جيبه.

قلت:

– إذن، هذه هي الطريقة التي ترد بها على الثقة التي وضعناها بك! ستترك خدمتي غدًا.

فانحنى ونظر إليَّ نظرة رجل حُطِّم تمامًا، وتجاوزني دون أن ينبس ببنت شفة. كانت الشمعة لا تزال على المنضدة، فتطلعت على ضوئها لأرى الورقة التي أخذها «برونتون» من درج المكتب. ولدهشتي، لم يكن هناك أي شيء مهم على الإطلاق، مجرد نسخة من قائمة أسئلة وأجوبة من قديم الزمان تعرف باسم «تراث عائلة موسغريف»؛ إنها نوع من المراسم الخاصة بأسرتنا التي تعود لقرون ماضية، والتي يمر بها كل فرد من أسرة «موسغريف» عند بلوغه سن الرشد، شيء ذي أهمية خاصة، وربما يكون قليل الأهمية لعلماء الآثار، مثل شعارات النبالة والدروع المزركشة والأعلام الرمزية، ولكنها ليست ذات قيمة عملية على الإطلاق.

قلت:

– من الأفضل أن نعود إلى الورقة فيما بعد.

قال في شيء من التردد:

– إذا كنت تعتقد أنها ضرورية حقًّا. ولكي أستطرد في حديثي، أقفلت المكتب باستخدام المفتاح الذي تركه «برونتون» وعندما استدرت لأنصرف، فوجئت بأن كبير الخدم قد عاد، ووقف أمامي. قال صوت بُحَّ من عواطفه الثائرة:

– سيدي، سيد موسغريف! لا يمكنني احتمال العار يا سيدي، لطالما كنت فخورًا بما يزيد على مكانتي في الحياة، سيقتلني العار، وسيكون دمي على رأسك يا سيدي، سيكون كذلك بالفعل إذا دفعتني إلى اليأس. إذا لم تتمكن من إبقائي بعد ما حدث، فدعني بربك أقدم لك إخطارًا أني سأترك العمل وأغادر بعد شهر، كما لو كان بإرادتي الحرة. يمكنني تحمل ذلك يا سيد موسغريف، لكن لا يمكنني أن أحتمل أن أطرد أمام كل الناس الذين أعرفهم جيدًا.

قلت:

– أنت لا تستحق أي اعتبار «برونتون». كان سلوكك شائنًا جدًّا ومع ذلك، نظرًا إلى أنك قضيت وقتًا طويلًا في خدمتنا، فلا أرغب في إعلان عارك أمام الجميع، ولكن شهرًا كثير. اترك العمل بعد أسبوع وقدِّم السبب الذي تراه مناسبًا.

صاح بصوت يشوبه اليأس:

– أسبوع واحد فقط يا سيدي؟ أسبوعين، قل أسبوعين على الأقل!

كررت قولي:

– أسبوع واحد وحسب، وهكذا تكون قد عوملت بمنتهى التسامح.

فانسلَّ بعيدًا، وقد طأطأ رأسه حتى غرق في صدره، كرجل محطم، في حين أطفأت الضوء وعدت إلى حجرتي.

ظل «برونتون» مواظبًا تمامًا على عمله طوال اليومين التاليين، ولم أُلِّمح قط إلى ما حدث، وانتظرت بشيء من الفضول لأرى كيف سيغطي عاره. إلا أنه في الصباح الثالث لم يحضر كعادته بعد الإفطار لتلقي تعليماتي لهذا اليوم. وفي أثناء مغادرتي حجرة الطعام التقيت بالخادمة «راشيل هاولز»، وقد أخبرتك أنها قد تعافت مؤخرًا من مرضها، وبدت شاحبة جدًّا، فعارضتُ رجوعها إلى العمل قائلًا:

– يجب أن تلازمي فراشك، ولا تعودي إلى العمل إلا بعد أن تستعيدي قوتك.

نظرت إليَّ بتعبير غريب لدرجة أنني بدأت أشك أن المرض أفقدها صوابها، وقالت:

– أنا قوية جدًّا يا سيد موسغريف.

قلت:

– سنرى ماذا يقول الطبيب، يجب أن تتوقفي عن العمل الآن، وفي طريقك إلى الطابق السفلي من فضلك اتركي خبرًا لـ «برونتون» بأنني أرغب في رؤيته.

فقالت:

– كبير الخدم انصرف!

– انصرف! إلى أين انصرف؟

- انصرف دون أن يراه أحد، وليس موجودًا في حجرته. أوه، نعم، لقد انصرف! لقد انصرف!

قالت هذا وارتمت على الحائط تطلق صرخة في إثر صرخة من الضحك.

هرعتُ مذعورًا من هذا الهجوم الهستيري المفاجئ، إلى الجرس لاستدعاء المساعدة، فحُمِلَت الفتاة إلى حجرتها وهي ما تزال تصرخ وتبكي، في حين أخذت أستفسر عن «برونتون» الذي لم يكن هناك شك في اختفائه على الإطلاق؛ فسريره لم ينم فيه، ولم يره أحد منذ أن ذهب إلى حجرته في الليلة السابقة. ومع ذلك كان من الصعب معرفة كيفية مغادرته المنزل، حيث وجدت النوافذ وكذلك الأبواب مغلقة كما هي في الصباح. وكانت ملابسه وساعته وحتى نقوده موجودة في حجرته، غير أن البدلة السوداء التي اعتاد ارتداءها، لم تكن في الحجرة. وكذلك اختفى خُفّاه، بيد أن حذاءه تُرك وراءه. أين يمكن أن يكون ذلك الخادم «برونتون» قد ذهب في الليل؟ وماذا كان يمكن أن يحدث له الآن؟

بالطبع، فتشنا البيت بدءًا من القبو ووصولًا إلى العليّة، ولم نعثر على أي أثر له. إنه بيت قديم، متاهة متعددة الممرات، خاصة الجناح الرئيس، وهو الآن غير مأهول عمليًّا، لكننا فتشنا كل حجرة وكل قبو دون أن نكتشف أقل علامة تدل على ذلك الرجل المفقود. لم أستطع التصور أنه قرر المغادرة تاركًا وراءه كل ممتلكاته، ومع ذلك أين يمكن أن يكون؟ استدعيت الشرطة المحلية، لكن دون جدوى. وتحت هطْل المطر، فحصنا المروج الخضراء والممرات المحيطة بالبيت من جميع الاتجاهات في الليلة السابقة، ولكن دون جدوى. ظل الحال على ذلك النحو، حتى وقع حادث جديد صرف انتباهنا بعيدًا عن اللغز الأصلي.

على مدى يومين، تدهورت صحة «راشيل هاولز» وتكرر وقوعها فريسة للنوبات الهيسترية والهذيان، فاضطررنا إلى توظيف ممرضة لتجلس معها ليلًا. وفي الليلة الثالثة بعد اختفاء «برونتون» عندما وجدت الممرضة أن مريضتها تحظى بنوم جيد وهادئ، أغفت قليلًا وهي جالسة على المقعد، وعندما استيقظت في الصباح الباكر وجدت الفراش خاليًا، والنافذة مفتوحة، ولا أثر لوجودها. فأيقظوني في الحال، وانطلقت مع الخادمين على الفور في البحث عن الفتاة المفقودة. لم يكن من الصعب تحديد الاتجاه الذي سلكته، بدءًا من تحت نافذتها، يمكننا تتبع آثار أقدامها بسهولة عبر العشب إلى حافة البركة حيث اختفت الآثار بالقرب من الممر المرصوف بالحصى والمؤدي إلى الفناء. يبلغ عمق البركة ثمانية أقدام، وبوسعك أن تتصور مشاعرنا عندما رأينا أن آثار أقدام الفتاة المخبولة المسكينة اختفت عند حافتها.

وبالطبع، فتشنا البركة على الفور، وبدأنا العمل لاستعادة بقايا الجثة، ولكن لم نتمكن من العثور على أي أثر للجثة. إلا أننا أخرجنا إلى السطح شيئًا غير متوقع على الإطلاق، وجدنا كيسًا من قماش الكتان بداخله كتلة من المعدن صدئة ومتغيرة اللون، وعدة قطع من الحصى أو الزجاج باهت اللون. وهذا الشيء الغريب هو كل ما أمكننا الحصول عليه من البركة، وعلى الرغم من أننا قمنا بكل بحث واستفسار ممكن بالأمس، فإننا لا نعرف شيئًا عن مصير «راشيل هاولز» أو «ريتشارد برونتون». كما أن شرطة المقاطعة حائرة تمامًا، لذلك لجأت إليك يا سيد هولمز.

– يمكنك أن تتصور لهفتي يا واتسون، وأنا أستمع إلى هذا التسلسل الاستثنائي للأحداث، حاولت ربط خيوطه معًا، واستنباط خيط مشترك يمكن أن يقودنا إلى شيء. اختفى كبير الخدم، واختفت الخادمة، أحبت الثانية الأول، ولكن نشأ بعد ذلك سبب جعلها تمقته. كانت دماء أهل ويلز العصبيين وسريعي الانفعال تجري في عروقها، فثارت بعنف فور اختفائه، وألقت في البركة كيسًا يحتوي على بعض الأشياء الغريبة. كل هذه عوامل يجب أن ينظر إليها بعين الاعتبار، ومع ذلك ما من عامل منها يوصلنا إلى جوهر الموضوع. ما نقطة البداية لهذه السلسلة من الأحداث؟ هناك تكمن نهاية هذه السلسلة المعقدة.

فقلت:

– يجب أن أرى تلك الورقة يا موسغريف، التي ظن كبير خدمك أنها جديرة بدراسته لها، والمخاطرة بوظيفته من أجلها.

أجاب:

– إنها بالأحرى طقوس سخيفة، لكنها –على الأقل– لها قيمة كتراث يعود للعصور القديمة لأسرتنا، ولديَّ هنا نسخة من هذه الطقوس، وهي قائمة من الأسئلة والإجابات عنها، يمكنك أن تلقي نظرة عليها.

ناوَلَني هذه الورقة الغريبة، التي هي معي الآن يا واتسون، والتي تضم تعاليم غريبة يجب على كل شخص ينحدر من أسرة «موسغريف» أن يخضع لها عندما تؤول إليه ممتلكات العائلة. سأقرأ لك الأسئلة وأجوبتها كما هي بالضبط:

– مَن يملكها؟

– يملكها مَن ذهب.

– مَن سيحصل عليها؟

– مَن سيأتي.

– ماذا كان الشهر؟

– السادس من البداية.

– أين كانت الشمس؟

– فوق أشجار البلوط.

– أين كان الظل؟

– أسفل أشجار الدردار.

– كيف قيست؟

– شمالًا بمقدار عشرة وعشرة، وشرقًا بمقدار خمسة وخمسة، وجنوبًا بمقدار اثنين واثنين، وغربًا بواحد وواحد، وهكذا أسفل.

– ماذا ندفع مقابل ذلك؟

– كل ما نملك.

– لماذا ندفعه؟

– من أجل الثقة.

وقد أبدى «موسغريف» ملاحظته قائلًا:

– النسخة الأصلية ليس لها تاريخ، لكنها في تهجئة منتصف القرن السابع عشر. ومع ذلك، أخشى أن ذلك لن يفيدك كثيرًا في حل هذا اللغز.

قلت:

– على الأقل، هذا يعطينا لغزًا آخر، وهو أكثر تشويقًا من سابقه. قد يكون حل أحدهما مفتاحًا لحل الآخر. وأرجو أن تعذرني يا «موسغريف» إذا قلت إن كبير خدمك هذا رجل بالغ الذكاء، وذو بصيرة أوضح من بصيرة عشرة أجيال من سادته.

قال موسغريف:

– قلما أستطيع متابعتك، يبدو لي أن الورقة ليست ذات أهمية عملية.

– ولكنها تبدو لي عملية جدًّا، ويخيَّل إليَّ أن «برونتون» كانت له النظرة نفسها، ومن المحتمل أنه رأى تلك الورقة قبل تلك الليلة التي أمسكته فيها.

– هذا ممكن جدًّا، فلم نبذل أي جهد في إخفائها.

– لقد أراد ببساطة، كما يخيَّل إليَّ، أن ينعش ذاكرته في تلك الليلة. وكان معه نوع من الخرائط أو الرسوم، وأخذ يقارنها بتلك الورقة، فدسها في جيبه عندما باغتَّهُ.

– هذا صحيح، ولكن ما الذي يمكن أن يفعله بهذه الطقوس القديمة لأسرتنا، وماذا تعني هذه الخزعبلات؟

قلت:

– لا أعتقد أننا سنواجه صعوبة كبيرة في معرفة ذلك، ومن بعد إذنك، سنركب أول قطار إلى ساسكس، ونتعمق أكثر في هذه المسألة التي لا تحتمل الانتظار.

بعد ظهر اليوم نفسه كنا كلانا في «هيرلستون». ربما تكون قد شاهدت صورًا وقرأت أوصافًا لذلك المبنى العتيق الشهير، لذلك سأقتصر في روايتي على أنه مبني على شكل حرف «L»، تمثل الذراع الطويلة فيه المبنى الحديث، أما الذراع القصيرة فتمثل النواة العتيقة لهذا القصر، وهي التي نشأ منها الجزء الحديث. وقد نُقِشَ التاريخ 1607 وسط الباب ذي الزخرف العلوي الثقيل، لكن الخبراء اتفقوا على أن العوارض والحوائط المبنية بالحجارة أقدم من ذلك بكثير. كانت الجدران السميكة والنوافذ الصغيرة في هذا الجزء قد دفعت الأسرة في القرن الماضي إلى بناء الجناح الجديد، ويستخدم الجناح العتيق الآن مخازن وأقبية، وإن كانت نادرًا ما تستخدم. يحيط بالبيت متنزه رائع به أخشاب عتيقة، أما البركة التي أشار إليها مُوَكِّلِي، فتقع بالقرب من الطريق المشجر، على بعد نحو مئتي ياردة من هذا المبنى.

لقد كنت مقتنعًا بالفعل يا واتسون، أنه لا توجد هنا ثلاثة ألغاز منفصلة، بل لغز واحد فقط، وأنه إذا ما تمكنتُ من قراءة طقوس موسغريف قراءة صحيحة، سأمسك بيدي الدليل الذي سيقودني إلى الحقيقة فيما يتعلق بكل من كبير الخدم «برونتون» والخادمة «هاولز». لذلك وجهت كل طاقاتي لفهم هذه الطقوس. لماذا حرص كبير الخدم على معرفة تلك الصيغة؟ من الواضح أنه رأى فيها شيئًا فات كل تلك الأجيال من النبلاء الريفيين، كما توقع الحصول منها على منفعة شخصية. ماذا كانت تلك الطقوس وكيف أثرت في مصيره؟

ظهر لي بوضوح، من قراءة هذه الطقوس، أن تلك المقاسات لا بد أن تشير إلى بقعة بعينها يتعلق بها بقية ما جاء في هذه الورقة، وأنه إذا تمكنا من العثور على تلك البقعة، صرنا في مركز يوصلنا إلى كشف السر الذي وجد «موسغريف» العجوز أنه من الضروري تحنيطه في مثل هذه الصورة الغريبة. يوجد دليلان يمكننا البدء بهما: شجرة بلوط، وشجرة دردار. أما شجرة البلوط فلا اختلاف عليها، تقع أمام البيت مباشرة، على الجانب الأيسر من الطريق، وهي واحدة من أكثر الأشجار روعة التي رأيتها على الإطلاق.

فقلت بينما كنا نتجاوزها:

– هل كانت هذه الشجرة موجودة عندما وُضِع تراثكم؟

أجاب:

– كانت هناك أيام الغزو النورماندي في كل الاحتمالات، ويبلغ محيطها ثلاثة وعشرين قدمًا.

وهكذا ضمنتُ وجود إحدى النقاط التي أبحث عنها، وسألته:

– وهل لديكم أشجار دردار قديمة؟

– كانت هناك شجرة عتيقة جدًّا، لكن ضربها البرق قبل عشر سنوات وأحرقها، فقطعنا ما تبقى من جذوعها.

– أيمكنك أن تعرف مكانها السابق؟

– نعم، أعرف ذلك.

– ألا توجد أي أشجار دردار أخرى؟

– لا أشجار دردار قديمة، لكن لدينا الكثير من أشجار الزان.

– أريد أن أرى أين كانت.

صعدنا إلى العربة على الفور، وقبل أن نذهب إلى البيت، قادني مُوَكِّلي إلى مكانها، فرأيت آثار شجرة وسط الحشائش حيث كانت شجرة الدردار، كانت في منتصف المسافة تقريبًا، بين شجرة البلوط والبيت. وبدا أن تحقيقي يسير في الاتجاه الصحيح.

– أظن أنه من المستحيل معرفة مقدار ارتفاع شجرة الدردار؟

– يمكنني أن أذكره لك على الفور. كان ارتفاعها أربعة وستين قدمًا.

فقلت مندهشًا:

– وكيف عرفته؟

– عرفته من معلمي القديم الذي اعتاد أن يعطيني تمرينات في علم المثلثات، تلزمني في قياس الارتفاعات، فعندما كنت صبيًّا، قست ارتفاع كل شجرة وكل مبنى في مقاطعتنا.

وهكذا، حالفني الحظ بشكل لم أكن أتوقعه؛ فالمعلومات التي أحتاج إليها كانت تصل إليَّ بسلاسة كبيرة.

قلت:

– أخبرني، ألم يسألك كبير الخدم من قبل مثل هذا السؤال؟

نظر ريجنالد موسغريف إليَّ بدهشة، أجاب:

– أستطيع أن أتذكر الآن، لقد سألني برونتون عن ارتفاع الشجرة منذ بضعة أشهر؛ إذ حدث جدال بسيط بينه وبين السائس حولها.

كان هذا خبرًا رائعًا يا واتسون، لأنه أظهر لي أنني على الطريق الصحيح. نظرت، فوجدتُ الشمس منخفضة في السماء، فقدرت أنها في أقل من ساعة ستصبح فوق أغصان شجرة البلوط العتيقة مباشرةً. وبذلك أتمكن من تحقيق شرط من الشروط المذكورة في ورقة التراث. ويجب أن يعني ظل شجرة الدردار الطرف الأبعد للظل، وإلا فلماذا اختير الجذع ليكون مرشدنا؟ كان عليَّ في ذلك الوقت أن أجد موضع نهاية الظل عندما تظهر الشمس من شجرة البلوط.

– لا بد أن هذه كانت عملية صعبة يا هولمز، لا سيما وأن شجرة الدردار ليست هناك.

– حسنًا، على الأقل كنت أعلم أنه ما دام برونتون استطاع معرفة ذلك، فمن المؤكد أني سأعرفه أيضًا. علاوة على ذلك، لم تكن هناك صعوبة حقيقية. ذهبت مع موسغريف إلى مكتبه وقطعت هذا الوتد الخشبي، الذي ربطت به هذا الخيط الطويل وصنعت عقدًا على طوله؛ عقدة لكل ياردة. ثم أخذت قصبة سنارة صيد سمك وصل طولها إلى ستة أقدام بالضبط، وعدت مع مُوَكِّلي إلى حيث كانت شجرة الدردار، وكانت الشمس تكاد تلمس قمة شجرة البلوط، فثبَّتُّ القصبة من طرفها، وحددت اتجاه الظل، وقسته، فكان تسعة أقدام.

وبالطبع، صار القياس سهلًا، فإذا كانت قصبة طولها ستة أقدام تحدث ظلًا طوله تسعة أقدام، فإن شجرة طولها أربعة وستون قدمًا ستحدث ظلًا طوله ستة وتسعون قدمًا في الاتجاه نفسه. قستُ المسافة، التي أوصلتني تقريبًا إلى جدار المنزل، وغرست وتدًا في تلك البقعة. يمكنك أن تتخيل فرحتي يا واتسون، عندما رأيت على بعد بوصتين من الوتد انخفاضًا مخروطِيَّ الشكل في الأرض. كنت أعلم أن هذه هي العلامة التي رسمها «برونتون» في قياساته، وأنني ما زلت أحذو حذوه.

من نقطة البداية هذه، أخذت أخطو بعد أن حددتُ الجهات الأساسية ببوصلة أحملها دائمًا في جيبي. فعشر خطوات لكل قدم إلى الشمال أخذتني إلى اتجاه موازٍ لجدار البيت، فعينت هذه النقطة بوتد، ثم خطوت بعناية خمس خطوات إلى الشرق، واثنتين إلى الجنوب، فصرت عند عتبة الباب القديم نفسها. وتقدمت خطوتين غربًا لأصل إلى الممر المرصوف بالحجارة، إذن، فهذا هو المكان الذي حدده التراث.

لم أشعر مطلقًا بمثل قشعريرة خيبة الأمل هذه يا واتسون. بدا لي للحظة أن خطأ ما في حساباتي. سقطت أشعة الشمس الغاربة بالكامل على الممر، واستطعت أن أرى الأحجار الرمادية القديمة البالية بفعل الأقدام. كانت ملتحمة معًا تمامًا، وبالتأكيد لم تُحرَّك لسنوات طوال. لم يعمل «برونتون» هنا. فنقرت الأرض، فأحدثت رنينًا بطولها كله، ولم تكن هناك أي علامة على أي صدع أو شق. لكن لحسن الحظ، أخرج موسغريف، الذي بدأ في تقدير معنى إجراءاتي، والذي كان حينها متحمسًا مثلي، مخطوطته للتحقق من حساباتي.

فصاح:

– وأسفل! لقد نسيتَ جزء «وهكذا أسفل»!

ظننت أننا يجب أن نحفر، ولكنني عرفت لتوي أنني أخطأت فهم معناها، فصحت قائلًا:

– يوجد قبو تحت هذا المكان إذن؟

– نعم، وقديم قِدَم البيت. هنا، من خلال هذا الباب.

نزلنا سلمًا حجريًّا متعرجًا، وأضاء رفيقي فانوسًا كبيرًا معلقًا في الزاوية. وفي لحظة، اتضح لنا أننا وصلنا أخيرًا إلى المكان الحقيقي، وأننا لم نكن وحدنا مَن زار هذا المكان مؤخرًا. لقد استُخدِم لتخزين الأخشاب، لكن القطع الخشبية مختلفة الأحجام التي أُلقيت فوق أرضية القبو، أُزيحت جانبًا وكُدِّست، بحيث تترك مساحة خالية في المنتصف. في هذا الفضاء وجدنا غطاءً كبيرًا وثقيلًا من الحجر، وحلقة حديدية صدئة في منتصفه، حيث رُبِطت بكوفية راعٍ.

صاح مُوَكلي:

– يا إلهي! هذه كوفية «برونتون»، لقد رأيته يرتديها مرارًا، وأستطيع أن أقسم على ذلك. ماذا كان يفعل هنا ذلك النذل؟

بناءً على اقتراحي، استُدعي اثنان من رجال شرطة المقاطعة للحضور، ثم حاولت بعد ذلك رفع الغطاء الحجري عن طريق سحبه بالكوفية. لم أستطع سوى زحزحته قليلًا، وبمساعدة أحد الشرطيين نجحنا أخيرًا في رفعه، ووضعناه جانبًا. فإذا بهُوَّة مظلمة تحته، نظرنا فيها جميعًا، في حين ركع موسغريف على ركبتيه وأدلى الفانوس إلى أسفل الهُوَّة.

ظهرت أمامنا حجرة صغيرة، عمقها نحو سبعة أقدام، مربعة الشكل، طول ضلعها أربعة أقدام. في أحد جوانبها صندوق خشبي مصفح بالنحاس الأصفر، وقد فُتِحَ غطاؤه المفصلي لأعلى، وبه هذا المفتاح عتيق الطراز بارزًا من القفل. ويحيط بالصندوق من الخارج طبقة سميكة من الغبار، وقد أكل السوس الخشب، حتى نمت بداخله بعض الفطريات بفعل الرطوبة. وجدنا العديد من الأقراص المعدنية، من الواضح أنها عملات قديمة، مثل تلك التي معي هنا، متناثرة في قاع الصندوق، لكنه لم يحوِ شيئًا آخر.

إلى تلك اللحظة، لم تكن لدينا فكرة عن هذا الصندوق العتيق؛ إذ تسمرت أعيننا على الجثة القابعة بجانبه. كان جسم رجل يرتدي بدلة سوداء، وقد جلس على ركبتيه وجبهته غارقة في الصندوق، وذراعاه مطروحتان على جانبي الصندوق، سحبت هذه الوضعية كل الدم الراكد إلى وجهه. وما كان لأي فرد أن يتعرف عليه بملامحه المشوهة التي في لون الكبد. إلا أن دلائل مثل: طوله ولباسه وشعره، كانت كافية

ليتعرف عليه مُوَكلي. وعندما رفعنا الجثة خارجًا، تبيَّن أنها جثة كبير الخدم المفقود، ويعود تاريخ وفاته إلى بضعة أيام. لم تكن به جروح أو كدمات تُظهِر كيف واجه نهايته المروعة. وبعد أن نقلت الجثة خارج القبو، كنا لا نزال نواجه مشكلة كانت تقريبًا بصعوبة التي بدأنا بها. أعترف أني حتى هذا الحد يا واتسون، أعد نفسي أخفقت في التحقيق الذي أجريته. كنت أعتمد على حل المسألة بمجرد أن اكتشفت المكان المشار إليه في ورقة التراث؛ لكن يبدو أنني كنت بعيدًا عن معرفة ما كانت الأسرة قد أخفته بمثل هذه الاحتياطات المعقدة. صحيح أنني ألقيت الضوء على مصير «برونتون»، لكن يجب أن أبيّن كيف لقي هذا المصير الشنيع، وما الدور الذي لعبته الخادمة المختفية في هذا الأمر؟ جلست على برميلٍ صغير في الزاوية وفكرت في الأمر برمته بعناية.

أنت تعرف أساليبي في مثل هذه الحالات يا واتسون؛ أضع نفسي في مكان الرجل، وبعد أن قست ذكاءه لأول مرة، أحاول أن أتخيل كيف كنت سأتصرف في تلك الظروف نفسها. في هذه الحالة، بسَّط «برونتون» الأمر بذكائه المبهر، لذلك لم يكن من الضروري فرض أي فروض للمعادلة الشخصية، كما أطلق عليها علماء الفلك. كان يعلم أن شيئًا ذا قيمة قد أُخفي. لقد اكتشف المكان، ووجد أن الغطاء الحجري الذي يغطيه كان ثقيلًا جدًّا بحيث لا يستطيع الرجل تحريكه دون مساعدة. ماذا سيفعل بعد ذلك؟ لم يستطع الحصول على مساعدة من الخارج، حتى لو كان لديه شخص يثق به، دون فتح الأبواب والتعرض لخطر اكتشاف أمره. كان من الأفضل -إذا استطاع- أن يحصل على مساعدة من شخص داخل البيت. ولكن ممن يطلب هذه المساعدة؟ كانت تلك الفتاة مخلصة له. وإن الرجل ليجد دائمًا صعوبة في إدراك أنه خسر محبة امرأة، مهما يكن قد أساء معاملتها. فليحاول بشيء من الملاطفة جذب فتاته «هاولز»، ثم يستخدمها شريكةً له. فيأتيان معًا في أثناء الليل إلى القبو، ويشكِّلان قوة موحدة كافية لرفع هذا الغطاء الثقيل. وإلى هنا يمكنني أنا أتابع أفعالهما كما لو كنت قد رأيتهما بالفعل.

لكن بالنسبة إلى الاثنين، إحداهما امرأة، لا بد أن رفع هذا الحجر كان ثقيلًا عليهما؛ فأنا ورجل شرطة ساسكس قوي البنية لم نجده خفيفًا البتة. فماذا يفعلان ليتمكنا من رفع الغطاء؟ ربما ما كان يجب أن أفعله أنا لو كنت مكانهما. فنهضت من مقعدي، وأخذت أفحص بعناية قطع الخشب المختلفة التي تناثرت على جوانب أرضية القبو. وفي الحال توصلت إلى ما كنت أتوقعه؛ قطعة خشبية، يبلغ طولها نحو ثلاثة أقدام، وفي أحد أطرافها تسنين ملحوظ، في حين سُوِّيت جوانب عدة لقطع أخرى كما لو أنها ضُغطت بوزن ثقيل. ومن الواضح أنهما عندما سحبا الحجر إلى أعلى، غرزا بعض القطع الخشبية في الشق، حتى صارت الفتحة كبيرة بما يكفي ليزحف خلالها شخص. ثم حافظا على بقائها مفتوحة بقطعة من الخشب وُضعت بالطول، فضغط عليها الغطاء الحجري فأحدث بها تسنينًا عند الطرف السفلي. وإلى هذا الحد من التخيل، كنت لا أزال على أرض آمنة.

والآن كيف سأشرع في إعادة بناء مأساة منتصف الليل هذه؟ من الواضح أن شخصًا واحدًا فقط تمكن من الدخول إلى الهُوة، وكان ذلك «برونتون». ولا بد أن الفتاة بقيت خارج الفتحة، وانتظرته

أعلاه. بعد ذلك فتح «برونتون» الصندوق وعلى الأرجح سلمها محتويات الصندوق، حيث لم يُعثَر عليها، ثم، ماذا حدث؟

أي نار انتقام مشتعلة تلك التي انبثقت فجأة في روح هذه المرأة الكلتية[6] سريعة الانفعال عندما رأت الرجل الذي ظلمها، وربما ظلمها أكثر مما نظن؟ هل انزلقت قطعة الخشب صدفة، فوقع الغطاء في مكانه، وحبس «برونتون» داخل الهوّة التي أصبحت قبره؟ هل هي مذنبة بعدم إعلان مصيره؟ أم أن ضربة مفاجئة من يدها تسببت في إبعاد الدعامة وسقط الغطاء في مكانه؟ مهما كان الأمر، فإنني ما أزال أتخيل صورتها وهي ممسكة بكنزها الدفين وتتأرجح بجنون وهي تصعد الدرج المتعرج، والصرخات المكتومة تدوي في أذنيها، وطرقات اليدين المسعورتين على الغطاء الحجري الذي خنق حبيبها الخائن.

هذا هو سر وجهها الممتقع، وأعصابها المضطربة، ونوبات ضحكها الهستيري في صباح اليوم التالي. لكن ماذا كان في الصندوق؟ وماذا فعلت به؟ لا بد أنه كانت به قطعة من المعدن العتيق، والحصى الذي أخرجه عميلي من البركة. رمت كل ذلك هناك، في أول فرصة، لتزيل آخر أثر لجريمتها.

جلستُ بلا حراك لمدة عشرين دقيقة أفكر في الأمر. وما زال موسغريف واقفًا بوجه شاحب جدًّا، يهز فانوسه ويحدق إلى الهُوّة. ثم أمسك ببعض الأقراص المعدنية التي تناثرت في الصندوق، وقال:

– هذه عملات معدنية من عصر تشارلز الأول، وبذلك ترى أننا كنا على حق في تحديد تاريخ الطقوس!

طرأ على بالي فجأة المعنى المحتمل للسؤالين الأول والثاني من التراث، فهتفت قائلًا:

– ربما نجد شيئًا آخر لتشارلز الأول، دعني أرَ محتويات الكيس الذي أخرجته من البركة.

صعدنا إلى مكتبه، وعرض محتويات الكيس أمامي. واستطعت أن أفهم السبب في عدِّه إياها عديمة الأهمية عندما نظرتُ إليها؛ إذ كان المعدن أسود اللون تقريبًا، والأحجار عديمة البريق ومعتمة. ولكن عندما فركت إحداها بطرف كمي، توهجت في تجويف يدي المظلم كأنها شرارة. كانت القطعة المعدنية عبارة عن حلقة مزدوجة، ولكنها التوت وتغير شكلها.

قلت:

– يجب أن تضع في اعتبارك أن الحفل الملكي الذي أقيم في إنجلترا بعد وفاة الملك، والذي هرب حاضروه بعده مباشرة، ربما دفنوا كثيرًا من ممتلكاتهم الثمينة في مكان ما، مع نية العودة لأخذها في وقت السلم.

فقال صديقي:

– كان سلفي، السير رالف موسغريف، فارسًا بارزًا، واليد اليُمنى للملك تشارلز الثاني في تجوالاته.

قلت:

– آه، حقًّا! إذن، أعتقد أن هذا يمدنا بآخر حلقة كنا بحاجة إليها، والآن، لا بد أن أهنئك على امتلاكك قطعًا أثرية ذات قيمة حقيقية كبيرة، وإن كانت قيمتها التاريخية أعظم.

فقال مندهشًا:

– وما هذه الآثار إذن؟

– إنها ليست أقل من تاج ملوك إنجلترا القديم.

– التاج!

– بالضبط، تمعن فيما يقوله التراث: «ومن سيحصل عليها؟ من سيأتي». كان ذلك بعد إعدام تشارلز الأول، وهذا هو تشارلز الثاني، الذي كان قدومه متوقعًا بالفعل. وأعتقد أنه لا شك في أن هذا التاج المحطم والملتوي، قد أحاط فيما مضى، بجباه ملوك إنجلترا.

– وكيف جاء إلى البركة؟

– آه، هذا سؤال سيستغرق بعض الوقت للإجابة عنه.

وبهذا رسمتُ له سلسلة طويلة من التخمينات والإثباتات التي كنت قد بنيتها. كان الشفق قد اقترب والقمر يسطع في السماء قبل أن تنتهي روايتي.

فقال موسغريف:

– إذن، فكيف حدث أن تشارلز لم يحصل على تاجه عندما رجع؟

ثم وضع الآثار في كيسها القماشي.

– آه، ها أنت تضع إصبعك على نقطة واحدة، التي من المحتمل ألا تتضح أبدًا. ويحتمل أن يكون موسغريف الذي احتفظ بالسر قد مات في تلك المدة، ثم ترك هذا الدليل لخلَفه دون أن يوضح معناه. ومنذ ذلك اليوم إلى الآن، يسلم الأب هذا الدليل لابنه، حتى وقع أخيرًا في يد رجل كشف سره وفقد حياته في هذه المغامرة.

هذه هي قصة تراث موسغريف يا واتسون، وتحتفظ الأسرة الآن بالتاج في هيرلستون. ولو أن هناك إشكالًا قانونيًا، وسيضطرون إلى دفع مبلغ ضخم قبل السماح لهم باستعادة هذا التاج. وأنا على يقين من أنك إذا ذكرت لهم اسمي، فسيسرهم أن يطلعوك عليه. أما عن تلك المرأة، فلم يُسمع عنها شيء على الإطلاق، من المرجح أنها هربت من إنجلترا وحملت ذكرى جريمتها إلى أرض ما، فيما وراء البحار.

دون جوان أو دون خوان: شخصية أسطورية من الفولكلور الإسباني، اشتهر بعشقه وغوايته النساء.
كثيرًا ما استخدم هذا المصطلح في الأدب الفيكتوري، حيث يصف عادةً مرضًا قد يهدد الحياة، ناتجًا عن اضطراب عاطفي شديد.
الكلت أو السلت: هم أي مجموعة أوروبية تستخدم اللغة الكلتية التي تعد فرعًا من اللغات الهندية الأوروبية.

مغامرة إقطاعيي ريف ريغيت

مرّ بعض الوقت قبل أن يسترد صديقي السيد شيرلوك هولمز عافيته من الإجهاد الذي ناله بعد مجهوداته الهائلة في ربيع عام 1887. وما زالت قضية الشركة الهولندية الإندونيسية، والمخططات الضخمة لبارون موبرتيوس عالقة في أذهان الناس، ونظرًا إلى أن هذه القضية تتعلق بأمور سياسية واقتصادية فهذا يجعلها موضوعًا غير مناسب لهذه السلسلة من القصص القصيرة، وإن كانت قد أدت بطريقة غير مباشرة إلى مشكلة غريبة ومعقدة أتاحت لصديقي فرصة ليبرهن على قيمة سلاح جديد من بين الكثير من الأسلحة التي استخدمها لمحاربة الجريمة طوال حياته.

بالعودة إلى مُسوداتي، وجدت أنني في الرابع عشر من شهر أبريل تلقيت برقية من ليون أطلعتني على حالة هولمز المرضية في فندق دولونغ. وفي غضون أربع وعشرين ساعة، كنت معه في غرفته التي يرقد فيها مريضًا، شعرت بالارتياح بعدما عرفت أن أعراضه المرضية ليست خطِرة. ولكن بنيته الحديدية كانت قد انهارت تحت ضغط التحقيق الذي امتد لأكثر من شهرين، كان يعمل لما لا يقل عن خمس عشرة ساعة في اليوم، بل واستمر أكثر من مرة -كما أكد لي- في عمله لمدة خمسة أيام متتالية. وبسبب هذا الإجهاد، لم يستطع أي شيء، بما في ذلك ثمرات جهده في القضية، أن ينقذه من الآثار التي نتجت عن هذا الإجهاد الرهيب، وفي الوقت الذي كانت فيه شوارع أوروبا تهتف باسمه، وغرفته تزدحم ببرقيات التهنئة، وجدته فريسة لاكتئاب حاد. مع العلم أن نجاحه فيما فشلت به شرطة الدول الثلاث، وهزيمته واحدًا من أكثر المحتالين براعة في أوروبا، لم يكن كافيًا أيضًا لاستنقاذه من انهياره العصبي.

بعد مرور ثلاثة أيام، عدنا معًا إلى شارع بيكر، كان من الواضح أن صديقي يحتاج إلى بعض التغيير ليزداد تحسنه، وكنتُ شغوفًا بفكرة قضاء أسبوع من الربيع في الريف أيضًا. كثيرًا ما طلب مني صديقي القديم، الكولونيل هايتر، الذي خضعَ لرعايتي الطبية في أفغانستان، النزول عنده في زيارة. وفي المرة الأخيرة، أشار إلى أنه سيكون سعيدًا باستضافة صديقي أيضًا. احتاجت محاولات إقناعي له إلى القليل من الدبلوماسية، ولكن عندما أدرك هولمز أن توطيد أواصر هذه العلاقة مقتصر على العزّاب، وأنه سيحظى بأقصى درجات الحرية، وافق على خططي، وبعد أسبوع من عودتنا من ليون كنا تحت سقف الكولونيل هايتر الذي كان جنديًا عجوزًا حظي بفرصة زيارة الكثير من البقاع حول العالم، وسرعان ما اكتشف -كما توقعت- أنه وهولمز لديهما الكثير من القواسم المشتركة.

في مساء يوم وصولنا، كنا نجلس في غرفة الذخيرة بمنزل الكولونيل بعد العشاء، حيث تمدد هولمز على الأريكة، في حين تفحصت أنا وهايتر المستودع الصغير لأسلحته الشرقية، فقال فجأة:

- بالمناسبة، أعتقد أنني سأصطحب معي أحد هذه الأسلحة إلى الطابق العلوي تحسبًا لأي إنذار بالهجوم.

فتساءلت متعجبًا:

- إنذار بالهجوم؟!

- نعم، لقد انتشر الرعب في هذه المنطقة مؤخرًا. واقتُحِم منزل بيت العجوز أكتون؛ أحد أقطاب مقاطعتنا، يوم الاثنين الماضي. لم يحدث ضرر كبير، لكن اللصوص ما زالوا طلقاء.

سأل هولمز وهو يثبّت عينيه على الكولونيل:

– ألم يُعثر على دليل؟

– لا شيء حتى الآن. لكن هذه القضية ما هي إلا واحدة من جرائم ريفنا الصغير، وهي ولا شك صغيرة جدًّا بالنسبة إلى اهتمامك يا سيد هولمز، بعد نجاحك في تلك القضية العالمية العظيمة.

لوح هولمز بيده متجاهلًا المجاملة، على الرغم من أن ابتسامته أظهرت أنها أسعدته. وسأل:

– هل كان في البيت ما يثير الاهتمام؟

– لا أعتقد، فقد فتش اللصوص المكتبة، ولم يحصلوا إلا على القليل جدًّا، مقارنة بما بذلوا من مجهود. تسببوا في قلب المكان كله رأسًا على عقب، بُعثرت محتويات الأدراج، وفُتِّشت المطبوعات، وكانت النتيجة اختفاء مجلد نادر من مترجمات ألكسندر بوب للشاعر هوميروس، وشمعدانين مطليين، وثقل عاجي للرسائل، وبارومتر صغير من خشب البلوط، إضافة إلى كرة من الخيوط.

هتفتُ في دهشة:

– يا لها من تشكيلة عجيبة!

– يبدو أن اللصوص نهبوا كل ما استطاعوا الحصول عليه.

زمجر هولمز من موضعه على الأريكة وقال:

– يجب على شرطة المقاطعة أن تكون قد استنتجت شيئًا من هذا، فمن المؤكد والواضح أن...

ولكني رفعت إصبعي محذرًا وقلت:

– أنت هنا من أجل الراحة يا صديقي العزيز. فلتنعم بوقتك، لا تبدأ في حل قضية جديدة وأعصابك مرهقة.

هز هولمز كتفيه ورمق الكولونيل بنظرة استسلام مصطنعة، واتخذ الحديث مجرى أقل خطرًا.

ومع ذلك، كان الفشل مقدرًا لكل تحذيراتي الطبية؛ فمع صباح اليوم التالي كانت الرياح قد ذهبت بكلماتي كل مذهب، حيث فرضت القضية نفسها بطريقة تجعل من المستحيل تجاهلها، واتخذت زيارتنا للريف منعطفًا لم يكن أي منّا يتوقعه. كنا نتناول الإفطار عندما اندفع كبير الخدم إلى الداخل ضاربًا بقواعد اللياقة عرضَ الحائط، وقال لاهثًا:

– هل سمعت الأخبار يا سيدي؟ منزل عائلة كننغهام يا سيدي!

تجمدت يد الكولونيل في الهواء وهو يمسك بفنجان القهوة، وصاح قائلًا:

– سطو!

– بل قتل!

صفَّر الكولونيل وقال:

– يا إلهي! ومن قُتل إذن؟ جيه بي أم ابنه؟

– لا هذا ولا ذاك يا سيدي. لقد كان ويليام الحوذي، تلقى رصاصة اخترقت قلبه، ولم يرف له جفن بعدها.

– ومن أطلق عليه الرصاص؟

– اللص يا سيدي، وقد تمكن من الهرب بعد فعلته ولم يمسك به أحد. فقد اقتحم نافذة المخزن في الوقت الذي انقضَّ عليه ويليام محاولًا إنقاذ ممتلكات سيده، فقتله.

– في أي ساعة حدث ذلك؟

– الليلة الماضية يا سيدي، في نحو الساعة الثانية عشرة.

قال الكولونيل وهو يعود ليجلس بهدوء ويكمل إفطاره:

– آه، سنذهب إليهم بعد الإفطار إذن.

ثم أضاف بعد ذهاب كبير الخدم:

– إنه أمر سيئ، فالعجوز كننغهام من الرجال القياديين هنا، وهو شخص جدير بالاحترام. سيؤذيه جدًّا ما حدث، لأن القتيل قضى سنوات طويلة في خدمته، وكان خادمًا جيدًا. من الواضح أنهم الأوغاد نفسهم الذين اقتحموا منزل أكتون.

قال هولمز بتمعن:

– وسرقوا تلك المجموعة الفريدة جدًّا.

– تمامًا.

– همم! قد يبدو الأمر وكأنه أبسط شيء في العالم، لكنه أمر مثير للفضول بعض الشيء، أليس كذلك؟ فالمفترض أن تغير عصابة اللصوص، الذين يعملون في الريف، مكان عملياتها، لا أن تقتحم بيتين في المنطقة نفسها في غضون أيام قليلة. عندما تحدثت الليلة الماضية عن رغبتك باتخاذ الاحتياطات الأمنية، خطر ببالي أن هذه المنطقة هي آخر المناطق في إنجلترا التي يمكن أن تلفت انتباه اللصوص؛ ما يؤكد أنه لا يزال لديَّ الكثير لأتعلمه.

قال الكولونيل:

– لعله لص محليّ، وفي هذه الحالة سيكون مقصده منزل أكتون ومنزل كننغهام بالطبع، لأنهما يمتلكان أكبر أراضي المنطقة.

– وأغناها؟

– حسنًا، يجب أن تكون كذلك. ولكن كانت بينهما دعوى قضائية استمرت عدة سنوات، التي على ما أظن امتصت دم كليهما، فقد ادعى العجوز أكتون أحقيته في نصف ممتلكات كننغهام، وشمَّر المحامون عن سواعدهم للعمل على الأمر.

قال هولمز متثائبًا:

– إذا كان وغدًا محليًّا، فلا ينبغي أن يكون في إلحاق الهزيمة به صعوبة كبيرة. حسنًا يا واتسون، أنا لا أنوي التدخل.

قال الخادم وهو يفتح الباب:

– المفتش فورستر يا سيدي.

دخل شاب يتقد وجهه بالحماسة والذكاء، إلى الغرفة، وقال:

– صباح الخير يا كولونيل، آمل ألا أكون متطفلًا، لكننا سمعنا أن السيد هولمز موجود هنا.

أشار الكولونيل بيده تجاه صديقي، وانحنى المفتش قائلًا:

– اعتقدنا بأنك ربما يهمك التدخل في الأمر يا سيد هولمز.

قال هولمز ضاحكًا:

– الأقدار ضدك يا واتسون، كنا نتحدث عن الموضوع عندما أتيت أيها المفتش. ربما يمكنك تزويدنا ببعض التفاصيل.

قال هذا في حين كان يميل إلى الخلف في كرسيه بطريقة مألوفة لي، فعلمت أن القضية ميؤوس منها.

– لم يكن لدينا أي دليل في قضية أكتون، ولكن في هذه القضية لدينا الكثير لنعمل عليه، ولا شك أنها العصابة نفسها في الحالتين، كما أن الرجل قد شوهد.

– حقًّا؟!

– نعم يا سيدي، لكنه هرب في خفة غزال بعد سماع دوي الطلقة التي قتلت ويليام المسكين. رآه السيد كننغهام والسيد أليك كننغهام من نافذة غرفة النوم والممر الخلفي، على التوالي. كانت الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا عندما اندلع الإنذار، حيث كان السيد كننغهام قد ذهب إلى النوم لتوه، وكان السيد أليك يدخن الغليون، في ثوب نومه. وقد سمع كلاهما ويليام الحوذي وهو يصرخ طلبًا للمساعدة، فهرع السيد أليك ليستطلع الأمر، ووجد الباب الخلفي مفتوحًا، وعندما وصل إلى أسفل الدرج رأى رجلين يتصارعان معًا في الخارج. أطلق أحدهما رصاصة، والآخر خرَّ صريعًا، ثم ركض القاتل عبر الحديقة وقفز فوق السياج. أطلّ السيد كننغهام من نافذة غرفة نومه، ورأى الرجل وهو يشق الطريق ركضًا، لكنه غاب عنه في الحال. أما السيد أليك فتوقف ليرى ما إذا كان بإمكانه مساعدة الرجل المحتضر، وهكذا نجا الوغد. بخلاف حقيقة أنه كان رجلًا متوسط الحجم ويرتدي بعض الملابس القاتمة، ليس لدينا معلومات قطعية، لكننا نُجري تحقيقات نشطة، ولو كان القاتل غريبًا، فسنجده قريبًا.

– ما الذي كان يفعله ويليام هذا هناك؟ هل قال أي شيء قبل موته؟

– ولا كلمة واحدة، إنه يعيش في كوخ ريفي مع أمه، ولأنه كان خادمًا مخلصًا للغاية، فقد تصورنا أنه ذهب إلى المنزل بِنِية الاطمئنان على سلامة الأمور هناك. فقد وضعت حادثة اقتحام منزل أكتون الجميع في حالة من الحذر. لا بد أن السارق كان قد اقتحم الباب للتو حين فاجأه ويليام، لأننا وجدنا القفل قد فُتِح عنوة.

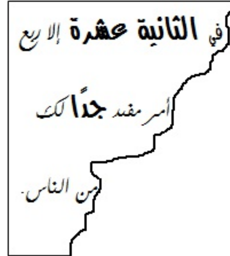
– هل قال ويليام أي شيء لأمه قبل الخروج؟

– إنها كبيرة في السن وصماء، ولا يمكننا الحصول على أي معلومات منها. لقد أفقدتها الصدمة صوابها، وقد فهمتُ أنها لم تكن ذات عقل متزن من قبل. ومع ذلك، هناك واقعة مهمة للغاية. انظر إلى هذا!

أخذ ورقة صغيرة منزوعة من دفتر ملاحظات وبسطها على ركبتيه وقال:

– لقد عثرنا على هذه الورقة بين سبابة القتيل وإبهامه، وتبدو أنها قصاصة من ورقة أكبر. ستلاحظ أن الساعة المذكورة فيها هي الوقت نفسه الذي لقي فيه الخادم المسكين حتفه. لدينا احتمالان؛ ربما انتزع القاتل بقية الورقة منه فتمزقت، أو ربما أخذ ويليام هذه القصاصة من القاتل، كما لو أنها موعد.

تناول هولمز القصاصة الورقية، التي احتوت على كلمات قليلة مبتورة بهذا الشكل:



وتابع المفتش:

– بافتراض أنه موعد، فهذا يجعلنا نتصور أن ويليام كيروان الخادم –على الرغم من أنه كان رجلًا أمينًا– ربما كان متحالفًا مع اللص، أو ربما التقى به هناك، وساعده في اقتحام الباب، وبعد ذلك حدث خلاف بينهما.

قال هولمز وهو يفحص الورقة بتركيز شديد:

– هذا الخط مثير للاهتمام. إن مياه هذه القضية أعمق بكثير مما كنت أتصور، ثم غرق في تفكير عميق محيطًا رأسه بكلتا يديه، في حين ابتسم المفتش لتأثير قضيته في رجل تحري لندن الشهير.

قال هولمز:

– ملاحظتك الأخيرة، فيما يتعلق بإمكانية وجود تحالف بين السارق والخادم، وأن الورقة هي رسالة ترتيب موعد كتبها أحدهما للآخر، هي افتراض عبقري وغير مستحيل كليًّا، ولكن هذا الخط يفتح...

غرق هولمز في التفكير مرة أخرى لعدة دقائق، وعندما رفع رأسه مرة أخرى، فوجئتُ بتورد خديه، وسطوع عينيه كما كان قبل مرضه، ثم هبَّ واقفًا على قدميه بكامل طاقته المعهودة وقال:

– أود أن أُلقي نظرة خاطفة على تفاصيل هذه القضية، يوجد شيء ما فيها يسحرني للغاية. إذا سمحتَ لي يا كولونيل، سأتركك وصديقي واتسون، وسأذهب مع المفتش لأتحقق من صحة حقيقة واحدة أو اثنتين من أفكاري، وسأكون معكما مرة أخرى بعد نصف ساعة.

انقضت ساعة ونصف قبل أن يعود المفتش بمفرده، وقال:

– إن السيد هولمز يتجول خارجًا في الحقل، ويريد أن نذهب نحن الأربعة إلى المنزل معًا.

– إلى منزل السيد كننغهام؟

– نعم يا سيدي.

– لماذا؟

هز المفتش كتفيه وقال:

– أنا لا أعرف تمامًا يا سيدي. وفيما بيننا.. أعتقد أن السيد هولمز لم يتغلب على مرضه بعد. لقد كان يتصرف بغرابة شديدة، كما أنه منفعل جدًّا.

قلت:

– لا داعي للقلق، فدائمًا ما وجدت الجنون في منهجه.

تمتم المفتش قائلًا:

– إنه يتحرق شوقًا ليبدأ، لذلك من الأفضل أن نخرج حالًا إذا كنتما مستعدين.

وجدنا هولمز يقطع الحقل ذهابًا وإيابًا، وقد التصقت ذقنه بصدره، ودُسَّت يداه في جيبي بنطاله. وعندما رآنا قال:

– الأمر يزداد إثارة يا واتسون، رحلتك إلى الريف قد حققت نجاحًا واضحًا، وحظيتُ بصباح فاتن.

قال الكولونيل:

– لقد كنت في موقع الجريمة، كما فهمت.

– نعم، لقد قمت أنا والمفتش باستطلاع صغير معًا.

– هل أحرزتما أي تقدم؟

– حسنًا، لقد رأينا بعض الأمور المثيرة للاهتمام. سأخبرك بما فعلناه ونحن نسير، في البداية، رأينا جثة هذا الرجل المسكين، وقد مات فعلًا متأثرًا برصاصة كما ورد في التقرير.

– هل كنت تشكك في ذلك؟

– أوه، من الأفضل اختبار صحة كل شيء، كما أن استطلاعنا لم يذهب سدى؛ أجرينا مقابلة مع السيد كننغهام وابنه، الذي استطاع أن يشير إلى المكان المحدد الذي اخترق منه اللص سياج الحديقة في أثناء هربه، وكان لذلك أهمية كبيرة.

– طبيعي.

– ثم ألقينا نظرة على والدة هذا المسكين. ومع ذلك، لم نتمكن من الحصول على أي معلومات منها، لأنها كبيرة في السن وصمّاء.

– وما نتيجة تحرياتك؟

– أسفرت تحرياتي عن القناعة بغرابة الجريمة، وربما تساعد زيارتنا الآن لبيت السيد كننغهام في جعلها أقل غموضًا. أعتقد أننا متفقون –أيها المفتش–على أن قصاصة الورق التي كانت في يد القتيل وتحمل ساعة موته نفسها لها أهمية بالغة.

– لا بد أنها تحمل مفتاحًا لحل اللغز يا سيد هولمز.

– إنها تحمل مفتاحًا بالفعل، فمن كتب هذه الملحوظة هو الرجل نفسه الذي أخرج ويليام من سريره في تلك الساعة. ولكن أين بقية تلك الورقة؟

قال المفتش:

– لقد فحصت مسرح الجريمة بعناية على أمل العثور عليها.

– لقد انتُزِعَت الورقة من يد القتيل. فلماذا حرص شخص ما على أخذها منه؟ لأنها تدينه. وماذا سيفعل بها؟ سيضعها في جيبه على الأرجح، دون أن يلاحظ أبدًا أن جزءًا منها قد تُرك في يد الجثة. إذا تمكنا من الحصول على بقية تلك الورقة، سنقطع شوطًا طويلًا في حل اللغز.

– نعم، ولكن كيف يمكننا الوصول إلى جيب المجرم قبل أن نقبض على المجرم نفسه؟

– حسنًا، لقد كان الأمر يستحق التفكير. وتوجد نقطة أخرى واضحة، أُرسِلت الورقة إلى ويليام، فالرجل الذي كتب رسالة الموعد لم يكن ليستطيع إعطاءها له، وإلا لاستطاع حينها إيصال رسالته شفهيًا بالطبع. من أحضر الرسالة إذن؟ هل أرسلت عبر البريد؟

قال المفتش:

– لقد قمت بالتحريات وعرفت أن ويليام تلقى رسالة عبر البريد بعد ظهر يوم أمس، وقد تخلص من الظرف.

صاح هولمز وهو يربت على ظهر المفتش قائلًا:

– ممتاز، لقد رأيتَ ساعي البريد إذن. إنه لمن دواعي سروري العمل معك. حسنًا، ها هو المنزل، وإذا كنت ستأتي معي يا كولونيل، سأريك مسرح الجريمة.

مررنا بالكوخ الريفي الجميل الذي كان يعيش فيه الرجل المقتول، وسرنا في شارع محاط بأشجار البلوط حتى وصلنا إلى منزل على طراز عصر الملكة آن القديم والجميل، يحمل تاريخ معركة مالبلاكيت على عتبة الباب. قادنا هولمز والمفتش حوله حتى وصلنا إلى البوابة الجانبية، التي تفصلها حديقة ممتدة عن السياج الذي يحدد الطريق، وكان هناك شرطي يقف عند باب المطبخ.

قال هولمز:

– افتح الباب أيها الشرطي. حسنًا، لقد كانت تلك هي الدرجات التي وقف عليها السيد كاننغهام الشاب ورأى الرجلين يتعاركان حيث نقف نحن، وكان السيد كاننغهام العجوز يقف عند تلك النافذة – الثانية على اليسار– ورأى القاتل يهرب عن يسار تلك الشجيرة، وكذلك فعل الابن. كلاهما متأكد من ذلك بسبب موقع الشجيرة. ثم ركض السيد أليك وركع بجانب القتيل. الأرض صلبة جدًّا كما ترى، ولا توجد آثار أقدام لترشدنا.

وبينما كان يتحدث، جاء رجلان عبر ممر الحديقة، من زاوية المنزل الخلفية. كان أحدهما رجلًا مُسنًّا، ذا وجه قوي الملامح، وعينين غائرتين. أما الآخر فكان شابًا جذابًا، تتناقض تعبيرات وجهه المشرقة وابتسامته الخلابة ولباسه المبهرج تناقضًا غريبًا مع الأمر الذي جئنا من أجله.

قال لهولمز:

– ما زلت تعمل على الأمر إذن؟ لقد اعتقدت أنكم، يا سكان لندن، لا تخطئون أبدًا. ولكن لا يبدو عليك أنك سريع جدًّا، في كل الأحوال.

قال هولمز بروح الدعابة:

– آه، يجب أن تمنحنا القليل من الوقت.

قال الشاب أليك كننغهام:

– ربما ستحتاج إلى الكثير منه، فلا أرى أن لديكم أي دليل على الإطلاق.

فأجابه المفتش قائلًا:

– لدينا دليل واحد فقط، لقد ظننا أنه إذا تمكنا من العثور فقط على... يا إلهي، سيد هولمز! ما المشكلة؟

كسا وجه صديقي المسكين فجأةً تعبير مروع، وغربت عيناه، وتغضنت ملامحه من الألم، وبتأوه مكبوت سقط بوجهه على الأرض؛ أصابنا الرعب من شدة النوبة وفجائية حدوثها، فحملناه إلى المطبخ، حيث استلقى على كرسي كبير، وهو يتنفس بصعوبة لبضع دقائق، وأخيرًا نهض مرة أخرى، وملامح الخجل تكسو وجهه اعتذارًا عن الضعف الذي بدا عليه، وأوضح:

– سيخبركم واتسون أنني في طور النقاهة من مرض شديد، ولذلك فأنا مُعرَّض لمثل هذه النوبات العصبية المفاجئة.

فسأل كننغهام العجوز:

– هل أوصلكم إلى المنزل بعربتي؟

– حسنًا، بما أنني هنا، توجد نقطة واحدة أود أن أتأكد منها. يمكننا بسهولة التحقق منها.

– ما هي؟

– حسنًا، من المحتمل أن وصول هذا الرجل المسكين ويليام، لم يكن قبل دخول اللص إلى المنزل، بل بعده. لكن أنت تعد أن اللص لم يدخل مطلقًا، على الرغم من أن قفل الباب قد فُتح عنوة.

قال السيد كننغهام بجدية:

– أعتقد أن هذا واضح تمامًا، لأن ابني أليك لم يكن قد ذهب إلى الفراش بعد، وكان سيسمع أي شخص يتحرك في المنزل بلا شك.

– أين كان يجلس؟

– كنت أدخن في غرفة ملابسي.

– أين هي نافذتها؟

– إنها الأخيرة إلى اليسار بجوار نافذة أبي.

– وكانت المصابيح مضاءة في غرفتيكما، بالطبع؟

– بلا شك.

قال هولمز مبتسمًا:

– توجد بعض النقاط المبهمة في هذا الأمر، أليس من الغريب أن تحدث سرقة، يقتحم فيها لص، يمتلك خبرة سابقة، منزلًا عمدًا في وقت يمكنه رؤية الأضواء، ومعرفة أن اثنين من أفراد العائلة ما زالا مستيقظين؟

– لا بد أن لديه يدًا ماهرة.

قال السيد أليك:

– حسنًا، لو لم تكن القضية غريبة، لما اضطررنا إلى طلب تفسير منك. ولكن فيما يتعلق بفكرتك أن الرجل قد سرق المنزل قبل أن يصطدم ويليام به، فأعتقد أنها فكرة سخيفة. ألم نكن سنجد المكان مبعثرًا وسنلاحظ غياب الأشياء التي سرقها؟

قال هولمز:

– هذا يعتمد على ماهية الأشياء، يجب أن تتذكر أننا نتعامل مع لص، وهو رجل غريب جدًّا، ويبدو أنه يعمل بطريقة خاصة. انظر –على سبيل المثال– إلى الكثير من الأشياء الغريبة التي سرقها من منزل أكتون، ماذا كانت؟ كرة من الخيط، وثقل عاجي للرسائل.. ولا أعرف ماذا سرق أيضًا.

قال العجوز كننغهام:

– حسنًا، نحن رهن إشارتك يا سيد هولمز، وأي شيء قد تقترحه أنت أو المفتش سننفِّذه بكل تأكيد.

قال هولمز:

– قبل كل شيء، أريدك أن تعرض مكافأة منك شخصيًّا، لأن المسؤولين قد يستغرقون بعض الوقت قبل أن يتفقوا على المبلغ، ومثل هذه الأمور يجب أن تتم من غير إبطاء. لقد دوَّنتُ الوثيقة، إذا كنتَ لا تمانع في توقيعها. أعتقد أن خمسين جنيهًا ستكون كافية.

قال العجوز وهو يأخذ الوثيقة والقلم الذي سلمه إليه هولمز:

– بل سأدفع خمسمئة جنيه عن طيب خاطر، وأضاف وهو يلقي نظرة سريعة على الورقة:

– لكن يوجد خطأ ما.

– لقد كتبتُها على عجل.

– أترى؟ لقد بدأت الكتابة قائلًا: «في نحو الساعة الواحدة إلا ربعًا صباح يوم الثلاثاء، تمت محاولة سطو، إلخ»، في حين حدث الأمر في الساعة الثانية عشرة إلا ربع في الحقيقة.

انزعجت جدًّا من هذا الخطأ، لأنني كنت أعرف المرارة التي سيشعر بها هولمز تجاه زلة من هذا النوع. كانت أهم مزاياه الدقة فيما يتعلق بالحقائق. لكن مرضه الأخير هزّه، وكانت هذه الحادثة الصغيرة كافية لتظهر لي أنه لم يعد إلى طبيعته بعدُ. بدا عليه الحرج للحظة، في حين رفع المفتش حاجبيه، وانفجر أليك كننغهام في الضحك. ومع ذلك، صحح الرجل المهذب العجوز الخطأ وأعاد الورقة إلى هولمز، ثم قال:

– اطبعها في أسرع وقت ممكن، أعتقد أن فكرتك ممتازة.

وضع هولمز الورقة بعناية في مفكرة جيبه، ثم قال:

– والآن، سيكون من الجيد حقًّا أن نفحص المنزل معًا ونتأكد من أن هذا اللص الغريب لم يأخذ معه أي شيء في النهاية.

قبل الدخول، فحص هولمز الباب الذي اقتُحِم، وكان واضحًا أن القفل قد دُفِع بإزميل أو سكين قوية، يمكننا رؤية العلامات على الخشب حيث أُدخِلت الأداة عنوة.

سأل هولمز قائلًا:

– ألا تستخدمون المزاليج؟

– لم نجدها ضرورية قط.

– هل تحتفظون بكلب حراسة؟

– نعم، لكنه مقيد بالسلاسل على الجانب الآخر من المنزل.

– متى ينام الخدم؟

– نحو العاشرة.

– أفهم من ذلك أن ويليام كان عادة ما ينام في تلك الساعة أيضًا.

– نعم.

– إنه لأمر غريب أنه في هذه الليلة بالذات ظلّ مستيقظًا. والآن، سأكون سعيدًا جدًّا إذا تكرمت وأخذتنا في جولة لنرى المنزل يا سيد كننغهام.

عبرنا من خلال ممر مرصوف بالحجارة، تتفرع منه المطابخ، وفي نهايته درج خشبي يؤدي مباشرة إلى الطابق الأول من المنزل، وينتهي عند المهبط المقابل لدرج آخر أكثر زخرفة يصعد من الصالة الأمامية، وعند هذا المهبط تفتح غرفة المعيشة وعدة غرف للنوم، من بينها غرفة السيد كننغهام وابنه.

سار هولمز بخُطًى مُتَّئِدة، ملاحظًا باهتمام الهندسة المعمارية للمنزل. وأدركتُ من تعبيرات وجهه أنه قد اشتم رائحة دليل قوي، ومع ذلك لم أستطع تصور الاتجاه الذي تقود إليه استدلالاته.

قال السيد كننغهام بشيء من نفاد الصبر:

– سيدي العزيز، إن هذا الأمر غير ضروري على الإطلاق، فها هي غرفتي في نهاية الدرج، وتليها غرفة ابني، وسأترك لك أن تحكم إن كان اللص يستطيع الدخول دون أن يزعجنا.

وقال الابن بابتسامة خبيثة:

– ربما يجب أن تعود أدراجك وتحاول العثور على دليل جديد.

– أرجو أن تسايرني قليلًا، فأنا أريد معرفة القدر الذي تكشفه نوافذ الغرف من المدخل، فهذه هي غرفة ابنك كما فهمت.

ثم دفع الباب ليفتحه قائلًا:

– وهذه –كما أظن– هي غرفة الملابس التي جلس فيها وهو يدخن حين سمعتم الإنذار. على أي مكان تطل نافذة هذه الغرفة؟

عبر هولمز الغرفة، ثم فتح الباب، وألقى نظرة سريعة على الغرفة الأخرى، فقال السيد كننغهام بنبرة لاذعة:

– آمل أن تكون راضيًا الآن؟

– شكرًا لك، أعتقد أنني رأيت كل ما تمنيت.

– حسنًا، إذا كان ذلك ضروريًّا حقًّا، فيمكننا الدخول إلى غرفتي أيضًا.

– أرجو ذلك إذا لم يكن في الأمر مشقة.

هز جيه بي كتفيه، وقادهم إلى غرفته الخاصة. كانت غرفة مؤثثة ببساطة كأي غرفة عادية، وفي أثناء مشينا عبرها في اتجاه النافذة، تأخر هولمز حتى صرنا أنا وهو في آخر المجموعة. بالقرب من قاعدة السرير، لاحظت وجود طاولة يعتليها طبق من البرتقال ودورق من الماء. ولدهشتي التي لا توصف، انحنى هولمز أمامي وتعمد الاصطدام بها لتسقط ويسقط كل ما عليها أمامي، تحطم الزجاج إلى ألف قطعة وتدحرج البرتقال في كل ركن من أركان الغرفة.

ثم هتف بصوت مسموع:

– ماذا فعلت الآن يا واتسون؟ انظر إلى الفوضى التي تسببت في حدوثها على السجادة!

انحنيت في شيء من الارتباك وبدأت في التقاط البرتقال، وفهمت –لسبب ما– أن صديقي يريدني أن أتحمل اللوم على ما حدث. فعل الآخرون الشيء نفسه، وأعادوا الطاولة على رجليها مرة أخرى. ثم دهش المفتش وهتف قائلًا:

– أين ذهب السيد هولمز؟ لقد اختفى!

قال الشاب أليك كننغهام:

– انتظروا هنا للحظة، أظن أن الرجل قد فقد صوابه، تعال معي يا أبي لنرى إلى أين ذهب.

هُرعا خارج الغرفة، في حين بقيتُ أنا والمفتش والكولونيل نحدق إلى بعضنا بعضًا. ثم قال المفتش:

– أنا أميل إلى الاتفاق مع السيد أليك، قد يكون هذا بتأثير المرض، ولكن يبدو لي أن...

وقوطعت كلماته بصرخة مفاجئة:

– النجدة! النجدة! أنقذوني.

أدركت بانفعال أن هذا هو صوت صديقي، هرعت بجنون من الغرفة إلى مصدر الصرخات المبحوحة والعاجزة التي كانت تأتي من الغرفة التي دخلناها في البداية. اندفعت إلى الداخل ومنها إلى غرفة الملابس بعد ذلك، حيث رأينا الأب والابن ينحنيان فوق شيرلوك هولمز المنبطح أرضًا، يضغط الابن بكلتا يديه على رقبته، في حين بدا العجوز يلوي أحد معصميه. وفي لحظة، قمنا نحن الثلاثة بإبعادهما عنه، ونهض هولمز بوجه شاحب مترنحًا على قدميه، وقد بدا عليه الإرهاق الشديد، ثم لفظ لاهثًا:

– اقبض على هذين الرجلين أيها المفتش.

– بأي تهمة؟

– تهمة قتل الحوذي ويليام كيروان.

فحدق المفتش إليه في ذهول، ثم قال أخيرًا:

– أوه، هيّا يا سيد هولمز، أنا واثق من أنك لا تعني ذلك حقًّا.

صرخ هولمز باقتضاب قائلًا:

– فلتنظر إلى وجهيهما يا صاح!

لم يحدث قط أن رأيت اعترافًا بالذنب أوضح من هذا على ملامح إنسان. بدا الرجل الأكبر سنًّا مذهولًا ومصابًا بالدوار مع تعبير ثقيل متجهم على وجهه الغارق في الذنب. وعلى الناحية الأخرى، سقط قناع الذكاء والمرح الذي كان يميز شخصية الابن، ولمعت ضراوة الوحش البري الخطِر في عينيه الداكنتين وتشوهت ملامحه الوسيمة. لم يقل المفتش شيئًا، ولكنه اقترب من الباب وأطلق صافرته، فجاءه اثنان من رجال الشرطة تلبية لندائه. وقال:

– ليس لديَّ أي بديل آخر يا سيد كننغهام. أنا على ثقة من أن هذا كله قد يكون خطأً سخيفًا، لكن يمكنك أن ترى.. آه، ما هذا؟ اتركه من يدك!

ثم ضرب بيده ضربة قوية، فأوقع المسدس الذي كان الشاب يعده للتصويب على الأرض. فوضع هولمز قدمه عليه بهدوء وقال للمفتش:

– احتفظ بهذا، فسوف يفيدك في المحكمة، ولكن هذه هي ما نريده حقًّا.

ورفع قطعة صغيرة من الورق المجعد، وعندها صاح المفتش قائلًا:

– بقية الورقة!

– تمامًا.

– وأين كانت؟

– في المكان الذي كنت متأكدًا من وجودها فيه، وسأوضح لك الأمر برمته في وقت لاحق. بإمكانك العودة يا كولونيل مع واتسون الآن، وسأكون معكما خلال ساعة على أبعد تقدير. يجب أن نتحدث أنا والمفتش مع السجينين، لكنكما ستريانني بالتأكيد مرة أخرى على الغداء.

حافظ شيرلوك هولمز على كلمته، وانضم إلينا في نحو الساعة الواحدة ظهرًا في غرفة التدخين الخاصة بالكولونيل، برفقة رجل محترم ومسن إلى حد ما، قُدِّم لي على أنه السيد أكتون الذي كان منزله مسرحًا لعملية السطو الأولى.

قال هولمز:

– أردت أن يكون السيد أكتون حاضرًا في حين أُوضِّح لكم هذه المسألة الصغيرة، لأنه من الطبيعي أن تثير هذه التفاصيل اهتمامه. أخشى، أيها الكولونيل العزيز أن تكون قد ندمت على الساعة التي قررت فيها استضافة شخص مثلي ينبئ ظهوره بالعواصف!

أجاب الكولونيل بحرارة:

– على العكس من ذلك، بل أَعُدُّه امتيازًا عظيمًا أن يُسمح لي بدراسة أساليب عملك، وأعترف أنها تجاوزت توقعاتي تمامًا، وأنني غير قادر البتة على تفسير نتائجك، فلم أرَ حتى الآن أثرًا لأي دليل.

– أخشى أن يُخيِّب توضيحي أملك، لكن لطالما كان من عادتي ألّا أخفي أيًّا من أساليبي، سواء عن صديقي واتسون أو عن أي شخص قد يثير الأمر اهتمامه. لكن أولًا، بما أنني تأثرت بالضربات التي تعرضتُ لها في غرفة الملابس، سيساعدني كأس من شرابك في استعادة حيويتي أيها الكولونيل. فلم تعد صحتي على ما يرام مؤخرًا.

– آمل أنك لم تُصَب بمزيد من تلك النوبات العصبية.

فضحك شيرلوك هولمز بحرارة وقال:

– سنتحدث في هذا الأمر حين يأتي دوره. سأقدم سردًا للقضية بترتيبها المناسب، لأظهر لكم النقاط المختلفة التي أرشدتني إلى قراري. ورجاءً قاطعني إذا تبدى لك عدم وضوح أي استنتاج.

إن من الأهمية القصوى في فن الاستنتاج أن تكون قادرًا على التمييز بين الحقائق الجوهرية، وتلك التي حدثت مصادفة، فهذه الأخيرة تبدد طاقتك واهتمامك بدلًا من التركيز على المهم. الآن، وفي هذه الحالة، لم يكن في ذهني أدنى شك منذ البداية أنه يجب البحث عن مفتاح الأمر برمته في قصاصة الورق التي عُثر عليها في يد القتيل.

وقبل الخوض في هذا، أود أن ألفت انتباهك إلى حقيقة أنه إذا كانت رواية أليك كننغهام صحيحة بأن المجرم فرَّ هاربًا بعد إطلاق النار على ويليام كيروان مباشرة، فمن الواضح إذن أنه لم يتمكن من انتزاع الورقة من يد القتيل، وإذا لم يكن هو من فعل ذلك، فلا بد أنه كان أليك كننغهام نفسه، لأنه بحلول الوقت الذي نزل فيه الأب العجوز إلى مسرح الجريمة كان العديد من الخدم قد وصلوا إلى المكان. نقطة بسيطة، لكن المفتش تغاضى عنها لأنه بدأ التحقيق بافتراض أن قطبي المقاطعة هذين لا علاقة لهما بالمسألة. وبهذه المناسبة يجب أن أؤكد حقيقةً مُهمةً جدًّا؛ لا ينبغي أن يضع أي منّا في عقله أحكامًا مسبقة، بل ينبغي أن نتبع الحقيقة بسلاسة أينما تأخذنا. في المرحلة الأولى من التحقيق، وجدت نفسي أتساءل قليلًا عن الدور الذي لعبه السيد أليك كننغهام. وهكذا قمت بفحص دقيق للغاية للقصاصة التي قدمها لنا المفتش. فبدا لي في الحال أنها تشكل جزءًا من وثيقة مهمة جدًّا ها هي ذي، ألا تلاحظون الآن دلالةً خاصةً حيال ذلك؟

قال الكولونيل:

– إن الكتابة لها شكل غير منتظم.

صاح هولمز قائلًا:

– سيدي العزيز، لا يمكن أن يكون في الأمر أدنى شك أنها قد كتبت بواسطة شخصين تبادلا كتابة الكلمات. عندما ألفت انتباهكم إلى حدة الحروف في بعض الكلمات، وأطلب منكم مقارنتها بالحروف نفسها في كلمات أخرى، فسوف تكتشفون الحقيقة على الفور. إن تحليلًا موجزًا جدًّا لهذه الكلمات سيمكنكم من القول بثقة تامة إن بعضها مكتوب بيد قوية وبعضها الآخر بيد أضعف.

صاح الكولونيل قائلًا:

– يا إلهي، إن الأمر واضح كالشمس! لماذا بحق السماء يكتب شخصان خطابًا بهذه الطريقة؟

– من الواضح أن المهمة حملت نيّات خبيثة، وأن أحد الرجلين لم يثق بالآخر، فقرر أن يكون لكل منهما نصيب متساوٍ في كل ما يحدث. ومن بين الرجلين، من الواضح أن صاحب الخط الأقوى هو زعيم العصابة.

كيف عرفت ذلك؟

– نستنتج ذلك بمقارنة خصائص خط أحدهما بخط الآخر، لكن لدينا أسباب أخرى أكثر تأكيدًا لصحة هذا الافتراض. إذا فحصت هذه القصاصة باهتمام، فستصل إلى استنتاج مفاده أن الرجل صاحب الخط الأقوى كتب كل كلماته أولًا، تاركًا فراغات ليملأها الآخر. ولم تكن هذه الفراغات كافية دائمًا، ويمكنكم أن تروا أن الرجل الثاني قد اضطر إلى ضغط إحدى الكلمات لتناسب الفراغ؛ ما يدل على أنه صاحب الخط الأضعف بالفعل. والرجل الذي كتب كل كلماته أولًا هو بلا شك من خطَّط للقضية.

صاح السيد أكتون:

– ممتاز!

قال هولمز:

– لكن ما زال الأمر سطحيًّا، ونصل الآن إلى نقطة مهمة؛ قد لا تدركون حقيقة أن استنتاج عمر الشخص من خطه هو أحد الأمور التي أثبت الخبراء دقتها الكبيرة. ففي القضايا العادية، يمكن للمرء أن يخمن العمر الحقيقي لشخص ما بدقة مقبولة. أقول في القضايا العادية، لأن المرض والضعف الجسدي يستنسخان علامات الشيخوخة، حتى لو كان المريض شابًّا. وفي هذه القضية، بالنظر إلى الخط الحاد والجريء لأحدهما، والمتذبذب إلى حد ما للخط الآخر، الذي لا يزال يحتفظ بوضوحه على الرغم من أن بعض الحروف فقدت رسمها الصحيح، يمكننا القول إن أحدهما شاب والآخر متقدم بالعمر وليس عاجزًا تمامًا.

فصاح السيد أكتون مرة أخرى:

– ممتاز!

– ومع ذلك، توجد نقطة أخرى أكثر دقة وأهمية. يوجد شيء مشترك بين الخطين؛ فهما لرجلين تجمعهما صلة دم. قد يكون الأمر أكثر وضوحًا بالنسبة إليكم في الأحرف اليونانية، ولكن بالنسبة إليَّ، توجد العديد من النقاط الصغيرة التي تشير إلى هذا التشابه. ليس لديَّ أدنى شك في إمكانية تتبع السلوك العائلي في هذين النموذجين من الكتابة، وأنا أقدم لكم الآن النتائج الرئيسة فقط لفحص الورقة، وإن كنت أجد فيها ثلاثة وعشرين استدلالًا آخر من شأنها أن تثير اهتمام الخبراء أكثر منكم. وكل هذه الاستدلالات عمقت في ذهني فكرة أن الأب كننغهام والابن قد كتبا هذا الخطاب.

كانت خطوتي التالية بعد أن وصلت إلى هذا القدر من الاستنتاج، هي دراسة تفاصيل الجريمة، ومعرفة إلى أي مدى ستساعدنا. صعدت مع المفتش إلى المنزل، ورأيت كل ما أمكنني رؤيته. كنت قادرًا على تقدير المسافة التي أطلق منها الرصاص على القتيل بأربع ياردات، لأنني لم أجد أي أثر أسود للبارود على ثيابه. من الواضح إذن، أن أليك كننغهام كذب عندما قال إن الرجلين كانا يتعاركان عندما انطلقت الرصاصة. ومرة أخرى، اتفق الأب مع الابن على المكان الذي هرب منه اللص إلى الطريق، وعند هذه النقطة، تصادف وجود خندق واسع ذي قاع رطب. نظرًا إلى عدم وجود أي علامات لآثار أقدام حول هذا الخندق، تأكدت تمامًا ليس فقط من كذب عائلة كننغهام مرة أخرى، ولكن من عدم وجود أي لص مجهول على الإطلاق.

والآن صار عليَّ أن أفكر في الدافع وراء هذه الجريمة الغريبة، وللوصول إلى هذا، سعيت أولًا وقبل كل شيء إلى حل سبب السطو الأول على منزل السيد أكتون. لقد فهمت –مما أخبرنا به الكولونيل– أنه توجد دعوى قضائية بينك يا سيد أكتون وعائلة كننغهام. وبالطبع، خطر لي على الفور أنهما قد اقتحما مكتبتك بقصد الحصول على بعض المستندات التي قد تكون ذات أهمية في هذه الدعوى القضائية.

قال السيد أكتون:

– هكذا تمامًا، لم يكن لديَّ أي شك في نيّاتهم؛ فأنا أملك حق المطالبة بنصف ممتلكاتهم الحالية، وإذا كان بإمكانهما العثور على ورقة معينة؛ التي لحسن الحظ كانت في خزانة المحامي الخاص بي، لكانا استطاعا بلا شك إنهاء القضية.

قال هولمز مبتسمًا:

– ها أنت ذا. لقد كانت محاولة خطِرة ومتهورة، يمكنني أن أتتبع فيها تأثير الشاب أليك. وعندما لم يجدا شيئًا حاولا صرف الشكوك عنهما بطريقة تبدو وكأنها عملية سطو عادية، ولهذا الغرض أخذا كل ما وقعت أيديهما عليه. كان كل ذلك واضحًا بما فيه الكفاية، ولكن تبقى الكثير من الأمور الغامضة. وكان أكثر ما أردته هو الحصول على الجزء المفقود من تلك الرسالة. كنت على يقين من أن أليك قد انتزعها من يد القتيل، ودسها في جيب معطفه. وفي أي مكان غير هذا يمكن أن يضعها؟ كان السؤال الوحيد هو ما إذا كانت لا تزال في جيبه. كان الأمر يستحق مجهودًا للعثور عليها، ولهذا ذهبنا جميعًا إلى المنزل. انضم إلينا السيد كننغهام وابنه –كما تتذكرون بلا شك– ونحن خارج باب المطبخ. وقد كان من المهم جدًّا ألا يُذكَّرا بوجود هذه الورقة، وإلا لسعيا إلى إتلافها على الفور. كان المفتش على وشك أن يخبرهما بالأهمية التي أوليناها لتلك الورقة، ولهذا سقطتُ في تلك النوبة، وبذلك غيَّرت مجرى المحادثة.

صاح الكولونيل ضاحكًا:

– يا إلهي! هل تعني أن تعاطفنا معك ضاع هباءً، وأن نوبتك كانت مزيفة؟

فصحت وأنا أنظر بدهشة إلى هذا الرجل الذي يحيرني دائمًا بمرحلة جديدة من دهائه:

– أؤكد لك بمهاراتي الطبية أنك قمت بهذا الدور على أكمل وجه!

فقال:

– إنه فن غالبًا ما يفيدني! عندما استفقت، تمكنت بحيلة فيها شيء من الإبداع من جعل العجوز كننغهام يكتب «الثانية عشرة» حتى أتمكن من مقارنة خطه فيها بالخط الذي في القصاصة.

علقت قائلًا:

– آه، كم كنتُ غبيًّا!

قال هولمز ضاحكًا:

– استطعت أن أرى تعاطفك مع ضعفي، وشعرت بالأسف لأنني تسببت لك بالألم. وبعد أن صعدنا إلى الطابق العلوي معًا، ثم دخلنا الغرفة، رأيت ثوب النوم معلقًا خلف الباب، فدبَّرت خطة قلب الطاولة، حتى أشغل انتباههما للحظة، ثم تسللت عائدًا لأفتش الجيوب. وتمكنت من الحصول على

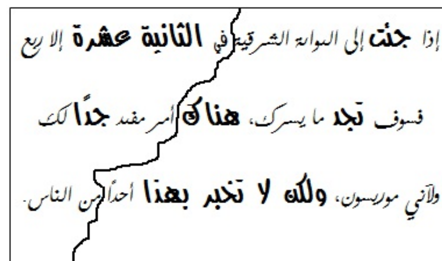
الورقة التي كانت –كما توقعت– في أحد الجيوب في الوقت الذي انقض عليَّ فيه الاثنان، وكانا سيقتلانني في ذلك الوقت لولا مساعدتكم السريعة والودية! ما زلت أشعر بقبضة الشاب حول رقبتي، وقد لوى الأب معصمي محاولًا سحب الورقة من يدي؛ فقد أدركا أني أعرف كل شيء عن الأمر، وكان هذا التحول المفاجئ من الإحساس بالأمان التام إلى الخوف المطلق هو ما دفعهما إلى اليأس والاستماتة في الدفاع عن نفسيهما.

تحدثت مع العجوز كننغهام بعد ذلك لأعرف دوافع الجريمة. وقد كان مذعنًا بما فيه الكفاية، أما ابنه فكان شيطانًا مثاليًا، وبدا على استعداد لتفجير دماغ أي أحد حتى نفسه لو استطاع الوصول إلى مسدسه. وعندما رأى كننغهام أن التهمة التي يواجهها خطِرة جدًّا، انهار واعترف بكل شيء. يبدو أن ويليام قد تبع سيِّديه سرًّا في الليلة التي أغارا فيها على منزل السيد أكتون، ومن ثم تمكن من السيطرة عليهما، وشرع في تهديدهما بكشف الأمر ليخضعهما لابتزازه. ولكن السيد أليك كان رجلًا خطِرًا لا يمكن اللعب معه لعبة كتلك. وقد كانت ضربة عبقرية من ناحيته أن يفكر في استغلال الذعر الذي هزّ الريف بسبب عملية السطو ليتخلص تخلصًا معقولًا من الرجل الذي يخافه. فنصبا لويليام الفخ وأطلقا الرصاص عليه، ولو أنهما حصلا على الورقة الكاملة وأعطيا مزيدًا من الاهتمام لبعض التفاصيل البسيطة، لكان من الممكن ألا تثار الشكوك حولهما أبدًا.

قلت:

– والرسالة القصيرة؟

وضع شيرلوك هولمز الورقة بجانب القصاصة المنزوعة منها وظهرت كاملة أمامنا.


إذا جئت إلى البوابة الشرقية في الثانية عشرة إلا ربع
فسوف تجد ما يسرك، هناك أمر مفيد جدًا لك
ولآني موريسون، ولكن لا تخبر بهذا أحدًا من الناس.

ثم قال:

– إنها كما توقعت تمامًا. وبالطبع، لا نعرف حتى الآن ما العلاقة التي قد تكون بين أليك كننغهام وويليام كيروان وآني موريسون. لكن النتائج تظهر أن الفخ قد نصب بمهارة. وأنا متأكد يا واتسون أنك مسرور بظهور آثار للوراثة في الحروف التي كتبها الأب وابنه، كما يعد غياب نقاط بعض الحروف في خط العجوز من أكثر السمات المميزة أيضًا. يبدو أن وقت الراحة الذي قضيناه في الريف قد حقق نجاحًا كبيرًا، وسأعود غدًا إلى شارع بيكر مليئًا بالنشاط.

مغامرة الرجل الأحدب

في ليلة من ليالي الصيف، بعد عدة أشهر من زواجي، كنت جالسًا بجوار موقدي أدخن آخر غليون لي في تلك الليلة، وأقاوم النعاس حتى أكمل قراءة رواية بعد يوم عمل شاق ومنهك. كانت زوجتي قد صعدت إلى الدور العلوي، وعلمتُ من صوت إغلاق الباب الرئيس أن الخدم أيضًا قد غادروا منذ مدة. وبينما أقوم من مقعدي لأفرغ الغليون من بقايا التبغ، سمعت صليل جرس الباب.

نظرت إلى الساعة، كانت الثانية عشرة إلا ربعًا، لا يمكن أن تكون هذه زيارة عادية في مثل هذا الوقت من الليل. ظننت أنه مريض، وستكون -على الأرجح- ليلة طويلة. ذهبت لأفتح الباب وأنا أقاوم التعب والنعاس، وتفاجأت عندما وجدت شيرلوك هولمز يقف أمامي.

قال:

- صديقي واتسون، كنت أتمنى أن أدركك قبل أن تنام.

- رفيقي العزيز، تفضل.

- تبدو عليك الدهشة، والارتياح أيضًا! ولا عجب في ذلك! همم! ما زلت تدخن تبغ الأركاديا الذي كنت تدخنه أيام العزوبة إذن! لا يمكن لأحد أن يخطئ في التعرف عليه من رماده المميز المبعثر على سترتك. من السهل معرفة أنك ترتدي زيًّا مخصصًا لعملك يا واتسون، لن ينخدع أي أحد في ذلك ما دمتَ تستمر في تعليق منديلك في كمك بهذه الطريقة.

- هل يمكن أن تتحملني الليلة؟

- بكل سرور.

- لقد أخبرتني أن لديك غرفة إضافية لشخص واحد، وأرى أنه ليس لديك زوار الليلة. شماعة قبعاتك تقول ذلك.

- سأكون مسرورًا إذا مكثت الليلة عندي.

- شكرًا، سأملأ أنا هذه الشماعة الخاوية إذن. آه، من المؤسف أن أرى أن عامل إصلاح كان في منزلك، فهم نذير شؤم. آمل ألا تكون المشكلة في مصارف المياه؟

- لا، في الغاز.

- آه! لقد ترك علامتين لمساميره على مشمَّع الأرضية في المكان الذي ينعكس عليه الضوء تمامًا. يمكنني أن أدخن غليونًا معك.

ناولته كيس التبغ وجلس على الكرسي المقابل لي. مكثنا لبعض الوقت ندخن في صمت، كنت على يقين أنه لن يأتي في مثل هذه الساعة إلا في أمرٍ ذي أهمية بالغة، لذلك انتظرت بصبر حتى يبدأ الحديث في الموضوع.

نظر إليَّ باهتمام شديد بعد القليل وبدأ حديثه قائلًا:

- أرى أنك مشغول بعملك هذه الأيام.

فأجبته:

- نعم، كان يومًا حافلًا، قد يكون الأمر تافهًا بالنسبة إليك، لكنني حقًّا لا أعرف كيف استنتجت ذلك.

ابتسم هولمز وقال:

– أنا محظوظ بمعرفة عاداتك يا عزيزي واتسون. عندما تكون دوريتك قصيرة تعود إلى المنزل سيرًا على الأقدام، وعندما تكون دوريتك طويلة تستقل سيارة أجرة. ولأني لاحظت أن حذاءك ليس متسخًا على الإطلاق، فلا يمكنني أن أشك في أن يومك في العمل كان مشغولًا بما يكفي ليبرر استقلالك سيارةَ الأجرة.

فصِحتُ قائلًا:

– ممتاز!

فرد قائلًا:

– بل في غاية البساطة. هذه إحدى المرات التي يمكن فيها للمحلل أن يبهر المستمع، لأن الأخير غفل عن النقطة الرئيسة التي بُني عليها الاستنتاج كله. ويمكن قول الشيء ذاته يا عزيزي واتسون عن الأثر الذي تتركه هذه القصص الصغيرة التي تنشرها. فأنت تزيد من بريقها باحتفاظك ببعض العناصر بين يديك التي لا تفصح عنها للقارئ. والآن أنا في الموقف نفسه لهؤلاء القراء، ففي يدي مجموعة من الخيوط في قضية من أغرب القضايا التي حيرت عقل إنسان على الإطلاق، وعلى الرغم من ذلك فأنا لا أملك المعلومة أو الاثنتين اللتين أحتاج إليهما لتكوين نظرية كاملة. لكنني سأحصل عليها!

لمعت عيناه وعلا خديه احمرارٌ طفيف، وللحظة رفع الغشاء الذي يخفي به طبيعته المتحمسة والشغوفة، لكن للحظة واحدة فقط. فعندما نظرت إليه مجددًا كان وجهه قد عاد إلى رباطة جأشه وبروده المعهودين. الصفات التي تجعل الكثيرين ينظرون إليه على أنه آلة وليس إنسانًا.

استكمل حديثه قائلًا:

– تُقدِّم القضية جوانب مثيرة للاهتمام، يمكنني أن أقول جوانب غير عادية حتى. لقد تقصيت الأمر بالفعل واقتربت –على ما أظن– من الحل. وسأكون ممتنًا جدًّا لمساعدتك إذا كان بوسعك أن تصاحبني في الخطوة الأخيرة.

– سيكون ذلك من دواعي سروري.

– هل يمكنك أن تذهب إلى ألدرشوت غدًا؟

– لا شك، يمكن لجاكسون أن يحل محلي.

– جيد جدًّا، أريد أن أتحرك في قطار الساعة 11:10 من ووترلو.

– هذا سيعطيني بعض الوقت.

– إذن، إذا كنت تستطيع مزيدًا من السهر، فسأخبرك بما حدث في القضية وما تبقى لنا لنفعله.

– كنت أشعر بالنعاس قبل أن تأتي. لكنني يقظ جدًّا الآن.

– سأختصر القصة بقدر استطاعتي دون أن أغفل أي جزء حيوي. من المحتمل أن تكون قد قرأت شيئًا ما عن هذا الأمر، إنه المقتل المزعوم للكولونيل باركلي، عضو كتائب المونستر الملكية في ألدرشوت، هذه هي القضية التي أحقق فيها.

– لم أسمع عنها شيئًا.

– لم تجذب انتباهًا كبيرًا بعد، إلا محليًا. الوقائع كلها حدثت منذ يومين فقط. وهي باختصار: كتائب المونستر الملكية –كما تعلم– من أشهر كتائب المشاة الإيرلندية في الجيش البريطاني. وفعلت المعجزات في حرب شبه جزيرة القرم، وفي مكافحة التمرد الكبير في الهند في 1857، ومنذ ذلك الوقت أثبتت تفوقها في كل الفرص الممكنة. كان جيمس باركلي هو قائدها حتى يوم الاثنين الماضي، محارب شجاع، بدأ رحلته جنديًّا ثم ترقى إلى ملازم لشجاعته خلال التمرد، ثم عاش ليصير قائدًا للكتيبة التي حمل فيها يومًا بندقية.

تزوج الكولونيل باركلي عندما كان نقيبًا، زوجته كانت تُدعى قبل زواجها الآنسة نانسي ديفوي، وهي ابنة نقيب سابق في الكتيبة نفسها، لذلك وجدا بعد زواجهما –إذ كانا صغارًا– بعض الصعوبات الاجتماعية عندما وجد كل منهما نفسه في بيئة جديدة كما يمكنك أن تتصور. لكن يبدو أنهما تأقلما بسرعة. السيدة باركلي كانت معروفة بين سيدات الكتيبة –على حد علمي–، كما حظي زوجها أيضًا بشعبية مماثلة بين زملائه الضباط. يمكنني أن أضيف أيضًا أنها كانت امرأة شديدة الجمال، وأنها حتى الآن بعد مرور ثلاثين عامًا على زواجها ما زالت آية في الجمال.

حياة الكولونيل الأُسرية يبدو أنها كانت سعيدة دومًا. الرائد ميرفي –الذي أخبرني بمعظم تفاصيل القضية– يؤكد لي أنه لم يسمع قط عن أي خلاف بين الزوجين. وبوجه عام فهو يعتقد أن باركلي كان مشغوفًا بزوجته أكثر مما كانت هي. كان ينزعج بحدة إذا غاب عنها أكثر من يوم. أما هي –في المقابل– على الرغم من تفانيها وإخلاصها فلم تكن تُظهِر حنانًا صارخًا. لكنهما كانا يشار إليهما في الكتيبة على أنهما الأسرة المثالية السعيدة. لم يكن في علاقتها أي شيء يُنبئ الناس بالمأساة التي كانت على وشك أن تقع.

يبدو أن الكولونيل باركلي كان رجلًا ذا صفات مميزة، فقد كان جذابًا وبشوشًا عندما لا يكون مزاجه عَكِرًا، لكن عندما لا يكون كذلك.. فقد أظهر في أكثر من موقف قدرة على ارتكاب أفعال عنيفة، وقدرة على الانتقام بشراسة. لكن هذا الجانب من طبيعته لا يبدو أنه أبداه لزوجته قط. حقيقة أخرى كانت تلفت انتباه الرائد ميرفي، وثلاث من الخمس ضباط الآخرين الذين تحدثت إليهم، أنه كان يعتريه في بعض الأوقات اكتئاب شديد. على حد تعبير الرائد، كانت الابتسامة تُمحى عن وجهه في بعض الأوقات، كأنها كانت تمحى بيد خفية وهو جالس مع بقية رفاقه من الضباط على طاولة الطعام في معسكر الكتيبة. لأيام متتالية، عندما تسيطر عليه هذه الحالة كان يغرق في حزن شديد، هذا ومسحة من التصديق بالخرافات كانتا الصفتين الغريبتين الوحيدتين لديه اللتين لاحظهما زملاؤه الضباط. هذه الصفة الأخيرة كانت تظهر في عدم رغبته في البقاء وحيدًا، خاصةً بعد مغيب الشمس. هذا الطبع الصبياني من رجل ناضج نضوجًا جليًّا، كان عادةً ما يُثير التعليقات ويفتح مجالًا للظنون.

تمركزت أول كتيبة من كتائب المونستر (وهي الكتيبة القديمة 117) في ألدرشوت لبضع سنوات. الضباط المتزوجون كانوا يعيشون خارج الثكنات، وكان الكولونيل طيلة هذه السنوات يسكن في منزل يُدعى لاشين، على بعد نحو نصف ميل من المعسكر الشمالي. يقف البيت بين حدائق خاصةٍ به، لكن

الجانب الغربي منه لا يبعد أكثر من ثلاثين مترًا عن الطريق الرئيس. طاقم خدم المنزل يتكون من سائق وخادمتين. هؤلاء مع سيدهم وسيدتهم كانوا القاطنين الوحيدين في المنزل لاشين. لم يكن لديهم أي أطفال، ولم يعتادوا أن يستقبلوا ضيوفًا مقيمين.

والآن ننتقل إلى الأحداث التي وقعت في لاشين بين الساعة التاسعة والعاشرة مساء الاثنين الماضي؛ كانت السيدة باركلي تنتمي إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية كما يبدو، تُشغِل الكثير من وقتها في مؤسسة القديس جورج، التي أُسِّست على أنها نقابة بجوار مصلى شارع وات، لتقدم للفقراء الملابس المستعملة. عُقِد اجتماع للنقابة في تلك الليلة في الساعة الثامنة، وقد أسرعت السيدة باركلي في تناول غدائها ذلك اليوم، حتى تتمكن من حضور ذلك الاجتماع. في أثناء خروجها من المنزل سمعها السائق تقول شيئًا معتادًا لزوجها قبل خروجها، وأنها أخبرته أنها لن تتأخر في العودة. ثم بعدها نادت الآنسة موريسون، الشابة التي تسكن في المنزل المجاور، وذهبتا معًا إلى اجتماعهما. استمر الاجتماع أربعين دقيقة، وفي الساعة التاسعة إلا ربعًا عادت السيدة باركلي إلى المنزل، وتركت الآنسة موريسون عند باب منزلها.

توجد غرفة تُستخدم صباحًا في لاشين، تلك الغرفة مقابلة للطريق، بها باب زجاجي كبير يؤدي إلى المرج، الذي يبلغ عرضه نحو ثلاثين مترًا، ولا يفصل بينه وبين الطريق الرئيس إلا سور قصير بسياج حديدي فوقه. تلك هي الغرفة التي دخلت إليها السيدة باركلي عند عودتها، لم تكن الستائر مغلقة، لأن الغرفة نادرًا ما يدخلها أحد مساءً، أشعلت السيدة باركلي المصباح بنفسها، ثم رنَّت الجرس وطلبت من جين ستيوارت -خادمة المنزل- أن تحضر لها كوب شاي، الأمر الذي كان على خلاف عاداتها المألوفة. كان الكولونيل يجلس في غرفة الطعام، لكن عندما علم أن زوجته قد عادت انضم إليها في الغرفة الصباحية. رآه السائق يَعبر الصالة ويدخل الغرفة، وكانت تلك آخر مرة يرى فيها حيًّا.

أُحضِر الشاي الذي طلبته إلى الغرفة بعد عشر دقائق، لكن الخادمة عندما اقتربت من الباب فوجئت بسماع صوت سيدها وسيدتها وهما يتشاجران باحتداد. طرقت الباب لكنها لم تتلقَ إجابة، حتى إنها حاولت فتح الباب، لكنها وجدته موصدًا من الداخل. كان من الطبيعي أن تجري لتنادي الطباخة، وجاء السائق والمرأتان ووقفوا في الصالة يستمعون إلى الخلاف الدائر، كلهم أجمعوا أنهم سمعوا صوتين فقط، صوت باركلي وزوجته. تعليقات باركلي كانت منهزمة وفجائية وبصوت منخفض، لذلك لم يكن أيٌّ منها مسموعًا لهم. أما السيدة فكانت على عكس ذلك، كان صوتها عنيفًا ومسموعًا بوضوح. كانت تكرر مرارًا: «أيها الجبان! ماذا يمكن أن يُفعَل الآن؟ ماذا يمكن أن يُفعَل الآن؟ رُدَّ إليّ حياتي! أنا لن أتنفس من الهواء الذي تتنفسه مجددًا! يا جبان! يا جبان!» هذه مقتطعات من محادثتهما التي انتهت بصرخة مروعة من الرجل، مع صوت سقوط، ثم صرخة ثاقبة من المرأة. عندما اقتنع السائق أن مأساة قد وقعت في الغرفة اندفع إلى الباب محاولًا فتحه بالقوة، في حين توالت الصرخات من الداخل. لم يستطع فتحه على أي حال ليدخل، وكانت الخادمتان مكبلتين بخوفهما، فلم تستطع أي منهما فعل شيء لمساعدته. ثم فجأة خطر بباله أن يدخل من الباب الخلفي، فجرى عبر الصالة وخرج من بابها إلى المرج الذي تطل عليه النوافذ الفرنسية الكبيرة. كان جزء من النافذة مفتوحًا -وهو أمر معتاد في الصيف

كما أظن–، عَبَر منه دون صعوبة إلى الغرفة. كانت سيدته قد توقفت عن الصراخ واستلقت فاقدة الوعي على كنبة، في حين كان سيده عند حافة المدفأة، إحدى رجليه مائلة على كرسي ورأسه على الأرض. كان الجندي سيئ الحظ ملقى على الأرض غارق في بركة من دمائه. وبطبيعة الحال كان أول ما فعله حينما اكتشف أنه لا يمكنه أن يفعل شيئًا لسيده أن حاول فتح الباب. ولكن هنا اكتشف صعوبة غريبة وغير متوقعة بالمرة. لم يكن المفتاح في الناحية الداخلية من الباب، ولم يستطع أن يجده في أي مكان في الغرفة. لذلك خرج مجددًا من النافذة واستدعى الشرطة ورجال الإسعاف. والسيدة التي تشير إليها أصابع الاتهام كانت قد نُقلت إلى غرفتها وهي لا تزال فاقدة الوعي. كان جسد الكولونيل حينها لا يزال على الأريكة. وقد فُحِص مسرح المأساة بعناية.

إصابة المحارب القديم المسكين كانت قَطْعًا متعرجًا في الناحية الخلفية من رأسه، تسببت فيه بكل وضوح ضربة قوية عنيفة بسلاح غليظ. ولم يكن من الصعب تخمين ماذا كان هذا السلاح، فعلى الأرض بجوار الجثة كانت توجد عصا فريدة الشكل، من خشب قاسٍ منحوت بيد من العاج. كان الكولونيل يقتني مجموعة متنوعة من الأسلحة من البلاد التي حارب فيها، ويظن رجال الشرطة أن هذه العصا من بين تذكاراته. ينكر الخدم رؤيتهم إياها من قبل، لكن يمكن ألا يكونوا لاحظوها قبل ذلك بين كل الأشياء الغريبة الموجودة في المنزل. لم يكتشف رجال الشرطة أي شيء آخر ذي أهمية في الغرفة، عدا الحقيقة التي لا يمكن تفسيرها، أنهم لم يجدوا المفتاح الضائع مع الضحية ولا مع السيدة باركلي، ولا في أي مكان آخر في الغرفة، واضطروا في النهاية إلى استدعاء صانع أقفال من ألدرشوت ليفتح الباب.

كانت هذه كل التطورات حتى صباح الثلاثاء، عندما ذهبت إلى ألدرشوت لأساعد رجال الشرطة في جهودهم بناءً على طلب الرائد ميرفي. أظن أنك ستوافقني بما تعرفه الآن على أنها قضية مثيرة، لكنني اكتشفت عندما ذهبت إلى هناك وعاينت المكان بنفسي، أنها في الحقيقة أكثر استثنائية مما تبدو عليه في البداية.

قبل أن أفحص الغرفة حققت مع كل فرد من الخدم على حِدة، لكنني لم أنجح في انتزاع شيءٍ غير الحقائق التي عرضتها عليك حتى الآن. لكن ستيوارت، الخادمة، تذكرت تفصيلة مهمة أخرى. تتذكر أنها عندما سمعت صوت الشجار ذهبت ثم عادت مع بقية الخدم. في المرة الأولى تقول إن صوت سيدها وسيدتها كانا منخفضين جدًّا، لدرجة أنها بالكاد كانت تستطيع سماعهما، وعرفت من الطريقة التي كانا يتحدثان بها، لا من كلامهما، أنهما يتشاجران. لكن عندما ضغطتُ عليها تذكرتْ أنها سمعت سيدتها تذكر الاسم «ديفيد» مرتين. هذه نقطة في غاية الأهمية، لأنها تقودنا إلى سبب الخلاف المفاجئ. اسم الكولونيل، كما تتذكر، هو جيمس.

يوجد شيء ما في القضية ترك انطباعًا عميقًا لدى الخدم ورجال الشرطة على السواء، وهو تشنج وجه الكولونيل. لقد كان وجهه –على حد تعبيرهم– يدل على أشد حالات الذعر والرعب التي يمكن أن تراها على وجه إنسان. أصيب أكثر من شخص بالإغماء لمجرد رؤيتهم وجهه؛ الأمر مروع لهذه الدرجة. من المؤكد أنه علم بمصيره قبل وقوعه، وأن ذلك سبَّب له ذعرًا رهيبًا. هذا بالطبع يناسب النظرية التي رسمها رجال الشرطة، إذا كان بمقدور الكولونيل أن يرى زوجته وهي تهاجمه محاولةً قتله. ولم تكن

حقيقة أن الجرح في مؤخرة رأسه اعتراضًا مفسدًا لهذه النظرية، فمن الممكن أن يكون قد استدار محاولًا أن يتجنب الضربة. ولم يتمكنوا من الحصول على أي معلومات من السيدة نفسها التي أصيبت بجنون مؤقت، نتيجة إصابتها بحمى دماغية حادة.

وعلمت من رجال الشرطة أن الآنسة موريسون التي خرجت مع السيدة باركلي تلك الليلة -كما تتذكر- أنكرت معرفتها أي شيء له صلة بالمزاج السيئ الذي عادت به رفيقتها في تلك الليلة.

بعد جمع كل هذه الحقائق، جلست أدخن محاولًا تحليلها، لأُفصِّل الحقائق الجوهرية في القضية عن تلك العارضة الموجودة بمحض الصدفة. لا يمكن أن يختلف اثنان على أن الحقيقة المحورية التي تميز القضية؛ هي اختفاء مفتاح الباب. لم يجده أحد في الغرفة حتى بعد البحث عنه بحثًا دقيقًا للغاية. لذلك لا بد أن يكون قد أُخِذَ منها. لكن لا يمكن أن يكون الكولونيل أو زوجته هو من أخذه خارج الغرفة، لذلك لا بد أن شخصًا آخر قد دخل الغرفة، وهذا الشخص الآخر لا يمكن أن يكون قد دخل إلا من النافذة. وبدا لي أن فحصًا دقيقًا للغرفة والمرج المقابل لها يمكن أن يقودنا إلى شيء ما عن ذلك الشخص الغامض.

أنت تعرف طرقي يا واتسون، لم أدخر جهدًا في هذا الاستقصاء. وانتهى الأمر بأن اكتشفت آثارًا بالفعل، لكنها كانت مختلفة تمامًا عما توقعت. كان هناك رجل في الغرفة، وقد عَبَر المرج قادمًا من الطريق. استطعت أن أجد خمسة آثار واضحة جدًّا لقدمه: أحدها في الطريق نفسه في النقطة التي تسلق منها السور القصير، واثنان في المرج، واثنان باهتان جدًّا على الألواح الخشبية المطلية بجوار النافذة التي دخل منها. من الواضح أنه اندفع هاربًا عبر الحديقة، لأن آثار أصابعه كانت أعمق كثيرًا من أثر كاحله. لكن لم يكن الرجل من فاجأني، بل رفيقه.

- رفيقه!

أخرج هولمز منديلًا ورقيًّا من جيبه وفرده على ركبته بحذر وسألني:

- ما قولك في هذا؟

كانت الورقة مغطاةً بآثار أقدام حيوان صغير، كان عليها آثار واضحة لخمس أصابع واضحة، وآثار لأظفار طويلة، كانت القدم كلها تبدو بحجم ملعقة تحلية. فقلت له:

- هذا كلب.

- هل سمعت من قبل في حياتك عن كلب يتسلق ستارة؟ لقد وجدت آثارًا دامغةً أن ذلك الحيوان فعل هذا.

- قرد إذن.

- لكن هذا ليس أثر قرد.

- ماذا يمكن أن يكون إذن؟

- ليس كلبًا ولا قطًّا ولا قردًا ولا أي حيوان آخر معتاد. حاولت أن أتصوره من القياسات التي استطعت الحصول عليها، ها هي أربعة آثار من أماكن كان يقف فيها ذلك الكائن ساكنًا بلا حركة.

يمكنك أن ترى أنها ليست أكثر من أربعين سنتيمترًا، من أقدامه الأمامية إلى الخلفية. أضف إلى ذلك طول عنقه، يمكننا أن نقول إن طول هذا الكائن ليس أقل من ستين سنتيمترًا، وربما أطول لو كان له ذيل. لكن الآن انظر إلى هذه القياسات الأخرى، هذه آثار للحيوان في أثناء الحركة، ويمكننا منها أن نعرف البعد بين خطواته، وفي كل منها نحو ثمانية سنتيمترات فقط. لدينا آثار إذن تشير إلى أن جسده طويل للغاية وأقدامه قصيرة جدًّا لم يكن كريمًا كفاية ليُخلِّف أي شعرات في المكان، لكن شكله العام لا بد أن يكون كما وضحتُ لك، ويمكنه أن يتسلق ستارة، وهو من آكلي اللحوم.

– ولكن ما علاقته بالجريمة؟

– هذا أيضًا لا يزال غامضًا بالنسبة إليَّ، لكننا علمنا الكثير عنه كما ترى. نعلم أن رجلًا وقف في الطريق يراقب الشجار الذي دار بين السيد باركلي وزوجته، وكانت الستارة مرفوعة والمصابيح مشتعلة. نعلم أيضًا أنه جرا عبر المرج، ودخل الغرفة ومعه حيوان غريب، وأنه إما أن يكون قد ضرب الكولونيل، وإما من المحتمل أيضًا –وعلى الدرجة نفسها– أن الكولونيل قد سقط من الذعر عندما رآه فقط، ولقى مصرعه عندما ارتطم رأسه بركن المدفأة.

– وأخيرًا، يوجد أمر مثير، ألا وهو أن المقتحم أخذ المفتاح معه قبل أن يخرج. فقلت له:

– اكتشافاتك جعلت الأمر مريبًا أكثر مما كان في البداية.

– أظن ذلك، لقد أظهرتُ بلا شك أن الأمر أعمق مما افترضتُ في البداية. احترتُ وتوصلت إلى أن عليَّ التفكير في الأمر من ناحية أخرى. لكن، حقًّا يا واتسون، لقد أيقظتك بما يكفي لهذه الليلة، ويمكن أن أخبرك بكل هذا غدًا في طريقنا إلى ألدرشوت.

– شكرًا لك، لقد انتهينا تقريبًا، أكمل من فضلك.

– من المؤكد أن السيدة باركلي عندما خرجت من المنزل في الساعة السابعة والنصف كانت على وئام مع زوجها. لم تكن قط –كما قلت من قبل– متفجرة الحنان، لكن السائق قد سمعها تتحدث مع الكولونيل بحميمية، ولكن عند عودتها ذهبتْ إلى أكثر غرفة تستبعد أن ترى فيها زوجها، وطلبت شايًا من الخادمة، كما ستفعل أي امرأة غاضبة، وفي النهاية عندما دخل عليها انفجرت فيه غاضبة وهي ترمي عليه التُّهم. لذلك يمكننا أن نستنتج أن شيئًا قد حدث بين السابعة والنصف، والتاسعة مساءً غيَّر مشاعرها تجاهه تمامًا. لكن الآنسة موريسون كانت معها خلال هذه الساعة. لذلك فمن المؤكد أنها تعرف شيئًا عما حدث على الرغم من إنكارها.

افتراضي الأول أن يكون بين تلك الشابة والجندي القديم محادثات قديمة مشبوهة، وأن الأولى اعترفت إلى رفيقتها في أثناء وقتها معها. هذا سيفسر عودتها الغاضبة، كما سيفسر أيضًا إنكار الفتاة معرفتها أي شيء مما حدث. ولن يكون أيضًا بعيدًا جدًّا عن معظم الكلام الذي سُمع في أثناء الشجار. لكن توجد الإشارة لديفيد، كما أن حب الكولونيل الواضح لزوجته ليس متسقًا مع هذا الافتراض. كما أن علينا أن نأخذ في الاعتبار الاقتحام الذي علمنا به للرجل الآخر. ولكن –من ناحية أخرى– ربما لا يكون لهذا الاقتحام أي صلة بما حدث. لم يكن من السهل أن أقرر كيف أستكمل التفكير في الأمر، لكنني على العموم استبعدت فكرة أن توجد علاقة بين الكولونيل والآنسة موريسون، لكنني الآن مقتنع أكثر من أي

وقت مضى أنها تحمل مفتاح القضية، لمعرفتها ما الأمر الذي حوَّل مشاعر السيدة باركلي إلى هذا البغض الشديد لزوجها.

لذلك سلكت الطريق الطبيعي في هذه الحالة، وتحدثتُ إلى الآنسة موريسون ووضحت لها أنني أعلم تمامًا أنها تعرف الحقيقة، وأعلمتها أن صديقتها السيدة باركلي يمكن أن تجد نفسها في المحكمة تواجه حكمًا بالإعدام، إذا لم تساعدها، وإذا لم تساعد في كشف ملابسات القضية.

الآنسة موريسون فتاة صغيرة بالغة الرقة، شقراء ولها عينان خجولتان، لكنهما لا تفتقران إلى الذكاء والبداهة؛ فقد جلست تفكر لبعض الوقت بعد أن تحدثتُ إليها، ثم التفتتْ نحوي بسرعة وبحزم، وقالت كلامًا مميزًا، سألخص لك المهم منه، قالت لي: «لقد وعدت صديقتي أنني لن أقول شيئًا عن ذلك الأمر، والوعد دَيْن. لكن إذا كان بإمكاني مساعدتها في مواجهة مثل هذه التهم التي ذكرتَها، خاصةً وأن المرض قد عقد لسانها ومنعها الكلام والدفاع عن نفسها –عزيزتي المسكينة– فأظن أنني في حِلٍّ من وعدي، سأقول لك بالضبط ما حدث مساء الاثنين؛ كنا في طريق عودتنا من اجتماع النقابة الذي كان في شارع وات، في نحو الساعة التاسعة إلا ربعًا عندما دخلنا شارع هدسون، وهو شارع رئيس هادئ هدوءًا ملحوظًا، يوجد به مصباح واحد على اليسار، وعندما اقتربنا من هذا المصباح رأيت رجلًا يقترب نحونا وظهره منحنٍ، يحمل شيئًا كصندوق على كتفه، كان يبدو أنه مشوه؛ إذ يحني رأسه، ويسير دون أن يفرد ركبتيه. كنا نمر بجواره عندما رفع وجهه نحونا ليرانا في ضوء المصباح الذي يضيء وجوهنا، وبينما كان ينظر إلينا توقف لوهلة ثم صرخ بصوت مروع:

– يا إلهي! إنها نانسي!

فشحب وجه السيدة باركلي وكأنها ميتة، وكانت ستقع على الأرض لولا أن ذلك المخلوق المروع سارع في الإمساك بها. كنت على وشك أن أستدعي الشرطة، لكنها فاجأتني وتحدثت معه بتهذيب. قالت له بصوت مرتعش:

– كنت أظن أنك ميت طوال ثلاثين عامًا يا هنري.

– لقد كنت بالفعل.

كان صوت الرجل وهو يرد عليها فظيعًا حقًّا، ووجهه مخيف وشديد السُمرة، عيناه تلمعان لمعةً ما زالت تحضرني في أحلامي، يخالط الشيب شعره ولحيته، وكان وجهه متجعدًا جدًّا كتفاحة ذابلة.

قالت لي السيدة باركلي:

– هل يمكنك أن تتقدمي عني قليلًا يا عزيزتي، أرغب أن أتحدث قليلًا مع هذا الرجل. لا يوجد أي داعٍ للقلق.

وحاولتْ أن تتحدث بثبات لتطمأنني، لكنها كانت لا تزال شاحبة للغاية، وبالكاد تستطيع أن تخرج الكلام من شفتيها المرتجفتين. لكنني فعلت ما طلبته مني وتركتهما يتحدثان معًا بضع دقائق، ثم قطعَت الشارع نحوي وعيناها مشتعلتان، ورأيت الرجل الأعرج واقفًا بجوار المصباح يلوح بيديه في الهواء، وهو يستشيط غضبًا. لم تنطق بأي كلمة حتى وصلنا إلى الباب، عندها أمسكتْ بيدي ورجتني ألا أخبر أي أحد عمّا حصل، وقالت لي موضحةً:

– إنه أحد معارفي القدامى، لكن الزمن جار عليه.

وعندما وعدتها ألا أخبر أحدًا قبَّلتني، ولم أرها ثانيةً منذ ذلك الحين.

هأنذا قد أخبرتك بالحقيقة كاملةً، وإن كنت قد أخفيتها عن رجال الشرطة فذلك فقط لأنني لم أعرف حينها حجم الخطر الذي يحدق بصديقتي العزيزة. أنا أعلم أن هذا الأمر لن يكون إلا في مصلحتها عندما يعرفه الجميع».

كانت هذه شهادتها يا واتسون. ويمكنك أن تتخيل كيف كانت بالنسبة إليَّ، كانت كضوء في ليلة مظلمة، كل الأشياء التي كانت مبعثرة وغير مترابطة من قبل بدأت تأخذ أماكنها الحقيقية، وأصبح لديَّ صورة ضبابية لتطور الأحداث كلها. خطوتي التالية –مما لا شك فيه– كانت العثور على الرجل الذي ترك هذا الأثر العميق في السيدة باركلي. وإذا كان لا يزال في ألدرشوت فلن يكون هذا أمرًا صعبًا. لا يوجد الكثير من المواطنين الذين تنطبق عليهم مثل هذه الأوصاف، ورجل بمثل هذه الإعاقة لا بد أن يلفت الأنظار. قضيت يومًا في البحث عنه، وبحلول المساء، هذا المساء يا واتسون، كنت قد عثرت عليه. اسمه هنري وود، يعيش في مسكن بالشارع نفسه الذي قابل فيه السيدتين. لم يمكث إلا خمسة أيام في هذا المكان. انتحلتُ شخصية موظف تسجيل وعرفت كل شيء عنه في أثناء حديثي مع صاحبة المسكن الذي يقطن فيه. هذا الرجل يكتسب رزقه من عمله مشعوذًا يؤدي بعض الخدع للجماهير، يتجول بين المطاعم ليلًا ويقدم عرضًا في كل منها، ويحمل معه حيوانًا في الصندوق أينما ذهب، ويبدو أنه يثير ذعر تلك السيدة بشدة. على حد قولها، فإنه يستخدم هذا الحيوان في بعض الخدع التي يقوم بها. هذا كل ما استطاعت المرأة أن تخبرني به. كما أنها أخبرتني أيضًا كم من العجيب أنه ما زال على قيد الحياة، فجسده منحنٍ بفظاعة. وأيضًا يتحدث أحيانًا لغة غريبة. وأنها في الليلتين الأخيرتين كانت تسمع صوته يئن وينتحب في غرفته في أثناء الليل. كانت حاله جيدة من ناحية المال، ولكنه كان قد أعطاها بعض العملات في وديعته، كانت تظنها أموالًا مهترئة. أرتني إياها يا واتسون، وقد كانت عملة هندية.

والآن يا رفيقي العزيز، أنت تعرف بالضبط ماذا سنفعل وتعرف لماذا أحتاج إليك. من الواضح جدًّا أنه تبعهما تلك الليلة من بعيد، بعد أن انطلقا، وأنه رأى الشجار الدائر بين الزوجين من النافذة، فهرع إليهما ودخل عليهما الغرفة، فأفلت حيوانه الذي يبقيه في الصندوق، هذا كله مؤكد، لكنه هو الشخص الوحيد في العالم الذي بإمكانه أن يخبرنا بالضبط ماذا حدث في تلك الغرفة.

– وأنت تنوي أن تسأله؟

– بالطبع، لكن في وجود شاهد.

– وهل أنا ذلك الشاهد؟

– إذا تكرمت، هذا إذا كان بإمكانه أن يوضح الأمر، أما إذا رفض.. فلن يكون بوسعنا إلا أن نقدم بلاغًا.

– ولكن كيف تعرف أنه سيكون هناك عندما نذهب؟

– يمكنك التأكد أنني أخذت احتياطاتي لأضمن ذلك؛ عيَّنتُ أحد الأولاد من شارع بيكر ليراقبه، يتبعه ذلك الفتى كظله، يذهب وراءه أينما ذهب. وسنجده في شارع هدسون غدًا يا واتسون، أما في الوقت

الحالي فسأكون أنا المجرم إذا أبقيتك مستيقظًا لوقت أطول من ذلك.

في ظهر اليوم التالي وجدنا أنفسنا في مسرح المأساة، وبناءً على تخطيطات رفيقي انطلقنا إلى شارع هدسون. على الرغم من قدرته الهائلة على إخفاء مشاعره، فإنني استطعت أن أرى بسهولة أن هولمز كان يخفي الإثارة التي يشعر بها، في حين كنت أنا أشعر بتلك الإثارة العارمة التي عادةً ما يكون لها طابع رياضي وذهني، والتي تعتريني دائمًا عندما أشارك صديقي في تحقيقاته. وبينما كنا ندخل في شارع يحده من جانبيه أبنية من الطوب كلها من طابقين فقط، التفتُّ إلى صديقي قائلًا:

– هذا هو الشارع، آه! وها هو سِمْسُون ليخبرنا بآخر الأخبار.

فصاح فتى عربي صغير يجري ناحيتنا:

– إنه في منزله يا سيد هولمز.

فقال له هولمز وهو يربت على رأسه:

– أحسنت يا سمسون.

ثم التفت إليَّ يحدثني قائلًا:

– هيا بنا يا واتسون. هذا هو المنزل.

وأرسل بطاقته مصحوبة برسالة كتب فيها للرجل أنه قد جاء لزيارته في أمر غاية في الأهمية، وخلال دقائق كنا نقف وجهًا لوجه مع الرجل الذي جئنا لرؤيته، وعلى الرغم من دفء الجو فإنه كان يجلس أمام موقده المشتعل، فكانت غرفته الصغيرة مثل الفرن. جلسَ الرجل ملتفًّا في كرسيه ومتكومًا بطريقة تعطي انطباعًا لا يمكن دفعه بأنه مشوه. لكن وجهه الذي أداره نحونا، على الرغم من كونه مجعدًا وأسمر اللون، فقد كان حتمًا وجهًا وسيمًا يومًا ما. نظر إلينا في ريبة وبعينين متشائمتين، ودون أن ينطق أشار إلى كرسيين.

قال هولمز بلطف:

– سيد هنري وود، القادم من الهند، كما أعتقد، لقد أتيت لأتحدث معك عن ذلك الأمر الصغير بخصوص موت الكولونيل باركلي.

– وماذا يمكنني أن أعرف أنا عن أمر كهذا؟

– هذا ما جئت لأتأكد منه، فكما تعرف –تقريبًا– إذا لم نصحح الأوضاع في ذلك الأمر فإن السيدة باركلي، صديقتك القديمة، ستكون متهمة بالقتل.

صاح الرجل بعنف:

– أنا لا أعرف مَن أنت! ولا كيف عرفت كل ما تعرفه الآن، ولكن هل تقسم لي أن ما تقوله لي الآن حقيقي؟

– بالتأكيد، وهم فقط في انتظار أن تعود إلى رشدها لكي يعتقلوها.

– يا إلهي! هل أنت نفسك من رجال شرطة؟

– لا.

- وما شأنك بالأمر إذن؟

- من واجب كل رجل أن يحرص على تحقيق العدالة.

- يمكنك أن تثق بكلامي، هي بريئة.

- إذن أنت مذنب.

- لا، أنا لست مذنبًا.

- من قتل الكولونيل جيمس باركلي إذن؟

- قتلته العناية الإلهية، لكن اعلم أنني لو ضربته على رأسه وقتلته -كما كنت أنوي أن أفعل- لكان هذا أقل ما يستحقه مني. إذا لم يقتله ضميره من شعوره بالذنب كنت على الأغلب سأتحمل ذنب قتله. تريد أن أخبرك بالقصة! حسنًا، أنا لا أعرف لماذا لا أخبرك، فلا يوجد أي سبب يدعوني إلى الخجل منها.

هكذا بدأت حكايتي يا سيدي. لم أكن طوال حياتي كما تراني الآن، ظهري محني كالجمل، وضلوعي كلها ملتوية. في يوم من الأيام، كان العريف هنري وود أذكى رجل في الكتيبة 117. كنا في الهند حينها، في المعسكرات في بورتي. باركلي -الذي مات منذ عدة أيام- كان رقيبًا في سَرِيَّتي نفسها، أما جميلة الكتيبة، آه، بل أجمل من نَبَضَ قلبها بالحياة، نانسي ديفوي، ابنة رقيب الشرف، فكان يوجد رجلان يحبانها، وكانت هي تحب رجلًا واحدًا، وستبتسم عندما تنظر إلى هذا الشيء المسكين المتكوم أمام النار، وتسمعني أقول لك إنها أحبتني أنا لوسامتي.

حسنًا، على الرغم من أنها كانت تحبني، فإن أباها كان مُصممًا على زواجها من باركلي؛ فقد كنتُ شابًا طائشًا أرعن، في حين كان الآخر متعلمًا، وقد حصل بالفعل على وسام الحرب. لكن الفتاة أصرَّت على الزواج بي أنا، وكنت سأتزوجها عندما اندلع التمرد واستعرت النار في الهند كلها.

احتُجِزنا في بورتي، الكتيبة كانت مكونة من سريتنا، ونصف سرية مدفعية، وسرية من السيخ، والعديد من المدنيين، وفوج من النساء. كان عشرة آلاف من الثوار يحاصروننا، وكانوا متحمسين جدًّا في حصارهم كمجموعة من الكلاب حول قفص فئران. وفي الأسبوع الثاني تقريبًا نفد مخزوننا من المياه. وكان السؤال هنا ما إذا كنا سنستطيع اللحاق بقافلة الكولونيل نيل الذي كان يتحرك إلى شمال الهند، فلم يكن لدينا أي أمل في القتال في ظل وجود النساء والأطفال، لذلك تطوعتُ أنا للخروج إلى الكولونيل نيل، لإخباره بالخطر الذي يحدق بنا. قُبِلتُ لهذه المهمة، وتحدثت في الأمر مع الرقيب باركلي، الذي كان من المفترض أنه يعرف الطرق هناك أكثر من أي شخص آخر، والذي رسم لي طريقًا يمكنني إذا سرت فيه أن أتخطى صفوف المتمردين. وفي الساعة العاشرة من مساء الليلة نفسها خرجتُ في رحلتي. كانت حياة آلاف الناس تقع على عاتقي، لكنني كنت أفكر في حياةٍ واحدة عندما قفزت من فوق السور في تلك الليلة.

كان طريقي يقودني في مجرى مائي جاف، وكنا نأمل أنه سيغطيني من جنود العدو، لكن ما إن وصلت إلى حافة ذلك المجرى حتى قابلت ستة منهم، كانوا قابعين على الأرض في الظلام منتظرين وصولي. وفي لحظة واحدة ضربوني على رأسي وقيدوا يديّ وقدميّ، لكن الضربة الحقيقية كانت لقلبي لا

لرأسي. فقد استطعت أن أفهم من كلامهم، بعد أن حاولت الاستماع إليهم بقدر ما استطعت، أن رفيقي الذي رسم لي الطريق، هو ذاته الذي سلمني إليهم من خلال إخبار خادم هندي، لأسقط في أيدي العدو.

حسنًا، ما من داعٍ لأن أدخل في تفاصيل هذا الجزء من الحكاية، الجزء المهم أنكم تعرفون الآن ما يمكن لجيمس باركلي أن يفعل. استطاع «نيل» فكَّ حصار بورتي في اليوم التالي، لكن المتمردين أخذوني معهم في أثناء انسحابهم. ومن يومها لم أرَ وجهًا إنجليزيًّا مرة أخرى، إلا بعد مرور بضعة أعوام. عُذِّبت كثيرًا، وحاولت الهرب، ليعتقلوني من جديد وأُعذَّب من جديد. يمكنكما أن تريا بأعينكما الحالة التي أصبحتُ عليها. بعضهم هرب إلى نيبال وأخذوني معهم، وحين وصلنا إلى دارجيلنج قتل أهلُ التلال المتمردين الذين كنت معهم، واحتفظوا بي عبدًا لهم، حتى تمكنت من الهرب، ولكن بدلًا من أن أتحرك إلى الجنوب، كنت مضطرًا أن أتحرك ناحية الشمال، حتى وجدت نفسي في أفغانستان. وهناك تجولت لسنوات عديدة، قبل أن أعود أخيرًا إلى بونجاب، حيث عشت بين السكان الأصليين للمنطقة، واكتسبت عيشي بأداء بعض الخدع التي تعلمتها. ما الذي كان سينفعني حينها وأنا مُعاق تعيس إن عدت إلى إنجلترا، أو عُرِفت ثانية بين زملائي؟ حتى رغبتي في الانتقام لم تكن لتدفعني إلى العودة لإنجلترا. كنت أُفضِّل أن تظن نانسي وبقية رفقائي أن هنري وود مات كما عرفوه، على أن يعرفوا أني ما زلت على قيد الحياة، ويروني منحنيًا أعرُجُ على عصا كالشمبانزي. لم يشكّوا قط في موتي، ولم أرد أن يشكوا فيه قط. سمعت أن باركلي تزوج نانسي، وأنه كان يترقى بسرعة في الكتيبة، لكن حتى ذلك لم يجعلني أتحدث.

لكن عندما يكبر المرء يشتاق إلى دياره. لسنوات ظللت أحلم بحقول إنجلترا الخضراء الزاهية وشجيراتها. وفي النهاية قررت أن أعود قبل وفاتي. ادخرت ما يكفي من المال للعودة، ثم جئت إلى هنا، حيث يوجد الجنود، لأنني أعرفهم وأعرف كيف يمكن إضحاكهم، وبذلك أستطيع أن أكسب ما يكفي للعيش.

علق شيرلوك هولمز قائلًا:

– روايتك مثيرة للغاية. لقد سمعت بالفعل عن لقائك بالسيدة باركلي، وتعرفكما على بعضكما، ثم بعد ذلك –على حسب تصوري– تبعتها إلى المنزل ورأيت الشجار الذي دار بينها وبين زوجها من خلال النافذة، الذي واجهته فيه بما فعله بك بلا ريب، فغلبتك مشاعرك وجريت عبر المرج واقتحمت المنزل.

– بالفعل يا سيدي. وبمجرد أن رآني ارتسمت على وجهه نظرةٌ لم أرَ مثلها على وجه رجل من قبل قط، وسقط على الفور برأسه على المدفأة، لكنه كان ميتًا قبل أن يسقط؛ قرأت الموت في وجهه بكل وضوح، كما أقرأ الكتب في ضوء النار. مجرد رؤيته إياي كانت كفيلة بقتله، كانت رصاصة في قلبه المذنب.

– ثم؟

– ثم سقطت نانسي مغشيًّا عليها، فالتقطتُ مفتاح الباب من يدها، وكنت سأفتح الباب وأطلب المساعدة، إلا أنني فكرت في اللحظة الأخيرة أنه من الأفضل أن أترك كل شيء كما هو؛ فهذا الأمر كله كان سيُوجَّه ضدي، وعلى أي حال كان أمري كله سيكشف إذا قُبِض عليَّ، ومن عجلتي وضعت المفتاح في

جيبي وأسقطت عصاي في حين كنت أطارد تيدي الذي صعد فوق الستارة. وبعدما أعدته إلى صندوقه الذي خرج منه، جريت بأسرع ما لديَّ.

فسأل هولمز:

– مَن تيدي؟

مال الرجل بجوار الكرسي وأخرج شيئًا يشبه القفص من الركن. وفي لحظتها خرج حيوان جميل، لونه بني يميل إلى الحُمرة، كان رفيعًا نحيلًا، وله أقدام قصيرة وأنف رفيع طويل، وعينان حمراوان مميزتان جدًّا، من أجمل العيون التي رأيتها لحيوان على الإطلاق. فصِحتُ عندما رأيته:

– إنه نمس!

– حسنًا، هكذا يسميه البعض، في حين يسميه آخرون بأسماء أخرى. صائد الثعابين هو الاسم الذي أُطلِقه عليه، وتيدي بارع جدًّا في ذلك الأمر خاصةً مع الكوبرا. لديَّ هنا واحد دون أنياب، يمسك تيدي، كل ليلة، به ليُمتِّع المشاهدين في المطاعم.

– هل لديك أي نقاط أخرى يا سيدي؟

– حسنًا، يمكن أن نحتاج إليك مرةً أخرى، إذا واجهَت السيدة باركلي تهمًا خطِرة.

– في تلك الحالة سأقدم شهادتي بالطبع.

– لكن إن لم يكن، فلا داعي لنشر مثل هذه الفضيحة عن رجل ميت، على الرغم من شناعة فعله. وأنت الآن على الأقل تعلم أنه طوال ثلاثين عامًا ظل ضميره ينغصه لما فعل.

آه، ها هو هناك الرائد ميرفي في الناحية الأخرى من الطريق، أريد أن أعرف إذا كان يوجد أي جديد منذ أمس.

نزلنا مسرعين حتى ندرك الرائد قبل أن يخرج من الشارع، وعندما وقعت عيناه علينا قال:

– آه هولمز، أظن أنك سمعت أن كل هذه الضجة آلت إلى لا شيء.

– ماذا إذن؟

– خرجتْ حالًا نتيجة تحليل الطب الشرعي، وهو يشير إلى أن سبب الوفاة كان سكتة دماغية، لقد كانت قضية بسيطة في نهاية الأمر.

فرَدَّ هولمز مبتسمًا:

– آه، قضية تافهة حقًّا، هيا بنا يا واتسون، لا أظن أننا سنحتاج إلى البقاء أكثر من ذلك هنا في ألدرشوت.

وبينما كنا متجهين إلى المحطة قلت لهولمز:

– يوجد أمر واحد؛ إذا كان اسم الزوج جيمس واسم الرجل الآخر هنري، فمن هو ديفيد اللذان كانا يتحدثان عنه؟

– هذه الكلمة يا عزيزي واتسون كان يجدر بها أن تخبرني بالقصة كلها، لو كنتُ حقًّا المفكر المثالي الذي تحاول أن تصورني عليه. لقد كانت كلمة يقصد بها الملامة.

– الملامة؟

– نعم، فديفيد انحرف قليلًا عن الطريق المستقيم، وبالطريقة نفسها التي كان عليها الرقيب جيمس باركلي. أتذكر قصة أوريا وباتشيبا؟ أخشى أن علمي بالكتاب المقدس ضئيل بعض الشيء، كما تعلم، ولكنك ستجد القصة في سِفْر صموئيل الأول أو الثاني.

مغامرة المريض المقيم

حين ألقي نظرة على سلسلة المذكرات المفككة، التي أحاول من خلالها توضيح بعض المميزات العقلية لصديقي السيد شيرلوك هولمز، تدهشني الصعوبة التي أواجهها في انتقاء الأمثلة التي تحقق الغرض الذي أسعى إليه من كل النواحي؛ ففي بعض القضايا التي أظهر فيها هولمز براعة أساليبه الخاصة في التحقيقات، وقوة عقله في التحليل المنطقي، غالبًا ما كانت الحقائق نفسها سطحية جدًّا أو شائعة، لدرجةٍ تجعلني لا أرى مبررًا لطرحها أمام الجمهور. ومن ناحية أخرى، حدث كثيرًا أن كان مهتمًّا بقضايا أخذت الحقائق فيها طابعًا استثنائيًّا ومأساويًّا، ولكن كان نصيبه في تحديد أسبابها أقل وضوحًا مما يتمناه كاتب سيرته. قد تكون القضية الصغيرة التي دوَّنتها تحت عنوان «دراسة في اللون القرمزي»، وتلك الأخرى المرتبطة بـ «سفينة غلوريا سكوت»، بمنزلة أمثلة على الوقوع في الاختيار بين سيلا وشريبديس[7]، التي تهدد المؤرخ إلى الأبد، وهذه القضية التي أوشك على كتابة قصتها الآن، كان لصديقي دور فيها، إلا أنها لم تُظهر قدراته ومهاراته التحليلية كفاية، ومع ذلك، فقد كان تسلسل أحداثها رائعًا للغاية لدرجة أنني لم أستطع حذفها من المذكرات.

في يوم ممطر من أيام شهر أكتوبر، كانت النوافذ نصف مغلقة في حين كان هولمز مستلقيًا على الأريكة يعيد قراءة الرسائل التي تلقاها بواسطة البريد الصباحي. بالنسبة إليَّ، درَّبتني مدة خدمتي في الهند على تحمل الحرارة بدرجة أفضل من البرودة، حتى إن حرارة 90 درجة فهرنهايت لم تكن صعبة الاحتمال. لم أجد ما يثير اهتمامي في تصفح الجريدة؛ انطلق التصويت لانتخابات البرلمان، وكان الجميع خارج المدينة. شعرت باشتياق إلى التنزه في حديقة نيو فورست، أو المشي على شواطئ المحيط الهادي جنوبًا. دفعني حسابي المصرفي المستنفد إلى تأجيل إجازتي، وبالنسبة إلى صديقي، لم يكن التنزه ولا البحر يمثلان أدنى جاذبية له. يحب أن يستلقي في مركز المدينة التي يبلغ تعداد سكانها خمسة ملايين، لا تفوته شاردة ولا واردة، يستجيب لكل إشاعة صغيرة أو شبهة بشأن جريمة لم تُحَل.

لم يجد الامتنانُ للطبيعة مكانًا بين مواهبه العديدة، وكان تغييره الوحيد عندما ينصرف انتباهه وتركيزه بعيدًا عن مجرم المدينة ليتعقب آثار مجرم الريف. لا يمكنني التأكد من دقة التاريخ، فقد أضعت بعض مذكراتي بشأن هذه المسألة، ولكن لا بد أن ذلك كان قرب نهاية العام الأول الذي تشاركنا فيه أنا وهولمز شقة في شارع بيكر. كان طقس أكتوبر عاصفًا، وبقينا في الداخل طيلة اليوم؛ فقد كنت أخشى، نظرًا إلى اعتلال صحتي، مواجهة رياح الخريف الشديدة. في حين انهمك صديقي في العمل على بعض التجارب والأبحاث الكيميائية المبهمة التي طالما عشقها. ومع قرب حلول المساء، أدّى كسر أنبوب الاختبار إلى نهاية مبكرة لبحثه، فنهض من كرسيه نافد الصبر غائم الملامح.

قال وهو يتقدم نحو النافذة:

– إنه طقس غير صحي يا واتسون، ولكن المساء حمل معه نسمات هادئة ونجومًا ساطعة، فما رأيك بنزهة في شوارع لندن؟

كنت قد سئمت غرفة جلوسنا الصغيرة فوافقت بكل سرور. تجولنا معًا مدة ثلاث ساعات، نشاهد تقلبات الحياة وتغيراتها المستمرة وهي تنحسر وتتدفق عبر شارعي فليت وستراند. سحرني حديثه

المميز، مع تفاصيله الدقيقة واستدلالاته الخفية. كانت الساعة العاشرة صباحًا قبل أن نصل إلى شارع بيكر مرة ثانية، وهناك وجدنا عربة تنتظرنا عند بابنا.

قال هولمز:

– همم! يبدو أنه طبيب، ممارس عام كما ألاحظ. ولم يمضِ عليه وقت طويل في العمل، وإن كان قد أنجز الكثير. وأتصور أنه قد جاء لاستشارتنا، من حسن الحظ أننا عدنا في الوقت المناسب!

كنت على دراية كافية بأساليب هولمز لأتمكن من متابعة براهينه المنطقية، فطبيعة وحالة الأدوات الطبية المختلفة في سلة الخوص المُعلَّقة داخل العربة تحت ضوء المصباح قد أعطته البيانات اللازمة لاستنتاجه السريع. كما دلَّ الضوء في نافذتنا على أن هذه الزيارة المتأخرة كانت بالفعل مقصودة لنا. تبعت هولمز إلى مسكننا وأنا أشعر ببعض الفضول لمعرفة السبب الذي جاء إلينا بطبيب زميل في مثل هذه الساعة.

نهض رجل شاحب الوجه أشقر الشعر من مقعده بمجرد دخولنا الغرفة. ربما لم يكن عمره ليزيد على ثلاثة أو أربعة وثلاثين عامًا، لكن ملامحه المنهكة وشحوب وجهه يرويان الكثير عن الحياة التي استنزفت قوته وسلبته شبابه. بدا سلوكه عصبيًّا وخجولًا، مثله مثل أي رجل محترم مرهف الحس. حين وضع يده البيضاء الرقيقة على رف الموقد وهو ينهض، وجدتُها تشبه يد الفنان لا يد الجرّاح، أما لباسه فكان بسيطًا وكئيبًا؛ معطفًا طويلًا أسود اللون، وبنطالًا داكنًا، وربطة عنق بها قليل من الألوان.

قال هولمز بمرح:

– مساء الخير أيها الطبيب، يسعدني أن أرى أنك لم تنتظرنا إلا بضع دقائق فقط.

– لقد تحدثت مع حوذي عربتي إذن؟

– لا، بل عرفت من هذه الشمعة على الطاولة. تفضل بالجلوس، ودعني أعرف كيف يمكنني خدمتك؟

قال زائرنا:

– أنا الدكتور بيرسي تريفليان، وأعيش في المبنى رقم 403 في شارع بروك.

سألته قائلًا:

– ألست أنت مؤلف تلك الدراسة عن الآفات العصبية الغامضة؟

تورد خداه الشاحبان بحبور حين وجدني أعرف عمله، وقال:

– نادرًا ما أسمع عن هذا الكتاب، لدرجة أنني اعتقدت أنه أفلس تمامًا. قدَّم لي الناشرون بيانًا محبطًا جدًّا عن مبيعاته. هل أفهم من ذلك أنك طبيب؟

– جرّاح متقاعد من الجيش.

– الأمراض العصبية كانت هوايتي دائمًا، وأتمنى أن تصبح تخصصي مستقبلًا. ولكن يجب على المرء أن يأخذ ما يستطيع الحصول عليه أولًا. هذا أمر ثانوي على أي حال، وأنا أُقدِّر تمامًا قيمة وقتك يا سيد هولمز، الحقيقة هي أن سلسلة غريبة جدًّا من الأحداث قد حدثت مؤخرًا في منزلي في شارع بروك، واليوم

وصلتْ إلى ذروتها لدرجة أنني شعرت أنه من المستحيل أن أنتظر ساعة أخرى دون طلب النصيحة والمساعدة.

جلس شيرلوك هولمز وأشعل غليونه، ثم قال:

– سأقدم لك النصيحة والمساعدة بكل سرور، لكن دعني أحصل على وصف مفصل للأحداث التي أزعجتك.

قال الدكتور تريفليان:

– واحد أو اثنان من هذه الأمور تافه جدًّا، لدرجة أني أخجل من ذكره، لكن الأمر لا يمكن تفسيره، والمنعطف الأخير الذي اتخذَتْه الأحداث معقد التفاصيل، لذلك سأضع كل شيء أمامك لتحكم بنفسك على ما هو مهم وما هو غير ذلك. في البداية، أنا مجبر على قول شيء لزميل مهنتي. أنا خريج جامعة لندن كما تعلم، وأرجو ألا تظن أنني أفرط في الثناء على نفسي إذا قلت إن أساتذتي قد عدّوا أن لي مستقبلًا واعدًا جدًّا وبعد أن تخرجت واصلت تكريس جهودي على الأبحاث، وشغلت منصبًا صغيرًا في مستشفى كينغز كوليدج بلندن، كنت محظوظًا بما يكفي لإثارة الاهتمام من خلال أبحاثي في علم أمراض الإغماء التخشبي، وفزت أخيرًا بجائزة بروس بينكرتون وبميدالية عن بحث الآفات العصبية الغامضة الذي أشار إليه صديقك للتو. لا أبالغ إذا قلت إنه كان لديَّ انطباع عام في ذلك الوقت أن أمامي مسيرة باهرة في هذا المجال، لكن حجر العثرة الوحيد كان يكمن في احتياجي إلى رأس المال، وسوف تفهم بسرعة أن الاختصاصي الذي يسعى إلى تحقيق أهداف عالية يضطر إلى البدء في واحد من مجموعة الشوارع الكائنة في حي كافنديش سكوير، وكلها تستلزم إيجارات ضخمة، إضافة إلى نفقات التأثيث، وإلى جانب هذه النفقات الأولية، يجب أن يكون المرء قادرًا على أن يعول نفسه لعدة سنوات، وأن يستأجر عربة أنيقة وحصانًا. كان ذلك فوق طاقتي، ولم يسعني إلا أن أتمنى أن أتمكن من خلال الادخار وترشيد الاستهلاك، توفير ما يكفي لفتح عيادتي الخاصة خلال عشر سنوات. ولكن فجأة، وقع لي حادث غير متوقع فتح آفاقًا جديدة أمامي.

حدث ذلك عند زيارة من رجل نبيل يحمل اسم بلسنجتون، وقد كان غريبًا تمامًا عني. حيث جاء إلى غرفتي صباح أحد الأيام، وانغمس في حديث عن العمل مباشرة؛ قال:

– هل أنت بيرسي تريفليان الذي تميز بمسيرته المهنية وفاز بجائزة عظيمة مؤخرًا؟

أومأت بالإيجاب، فتابع وقال:

– أجبني بصراحة وستجد ذلك في مصلحتك، أنت تملك كل الذكاء الذي قد يجعلك رجلًا ناجحًا، فهل تملك الكياسة؟

لم يسعني إلا أن أبتسم أمام فظاظة السؤال، وقلت:

– أظن أنني أملك منها قدرًا كافيًا.

– هل لديك عادات سيئة؟ هل تميل إلى الشراب مثلًا؟

صحت قائلًا:

– بالطبع لا يا سيدي!

– حقًّا؟ كل هذا ممتاز! ولكنني مضطر إلى سؤالك: لماذا لم تفتح عيادة وأنت تتمتع بكل هذه الصفات الجيدة إذن؟

هززت كتفيَّ، فقال بطريقته الصاخبة:

– هيّا، هيّا، إنها الحكاية القديمة نفسها؛ في عقلك أكثر مما في جيبك، أليس كذلك؟ ماذا ستقول إذن لو أخبرتك أنني سأساعدك في أن تبدأ في شارع بروك؟

حدقت إليه بذهول، فصاح قائلًا:

– أوه، هذا الأمر لصالحي، وليس من أجلك. سأكون صريحا معك تمامًا، وإذا كان ذلك يناسبك فسوف يناسبني أيضًا. أملك بضعة آلاف وأرغب في استثمارها، أتفهم؟ وأعتقد أنني سأستثمرها فيك.

شهقت قائلًا:

– لكن لماذا؟

– حسنًا، إنها مثل أي مضاربة مالية أخرى، وإن كانت أكثر أمانًا من معظمها.

– ماذا عليَّ أن أفعل إذن؟

– سأخبرك؛ سوف أستأجر المنزل وسأقوم بتأثيثه، وسأدفع للخادمات، وأدير المكان كله. كل ما عليك فعله أن تجلس على مقعدك في غرفة الكشف. وسأغطي مصاريفك الشخصية وكل شيء، وبعد ذلك تعطيني ثلاثة أرباع ما تكسب، وتحتفظ بالربع لنفسك.

كان هذا هو العرض الغريب يا سيد هولمز، الذي تقرَّب إليَّ به السيد بلسنجتون. لن أزعجك بتفاصيل المفاوضة بيننا، فقد انتهى الأمر بانتقالي إلى الموقع الجديد في اليوم التالي، وبدأت بالعمل في العيادة بالشروط نفسها التي اقترحها. لقد جاء بنفسه ليعيش معي في شخصية «مريض مقيم». يبدو أن قلبه كان ضعيفًا، وكان بحاجة إلى إشراف طبي مستمر. حوَّل أفضل غرفتين في الطابق الأول إلى غرفة جلوس وغرفة نوم لنفسه. كانت له عادات غريبة؛ فهو يتجنب الرفقة ونادرًا ما يخرج، حياته غير منظمة، إلا أنه كان شديد الانتظام فيما يتعلق بأمر واحد؛ ففي الساعة نفسها من كل مساء، كان يذهب إلى غرفة الكشف، ليفحص الحسابات، ويترك لي خمسة شلنات وثلاثة بنسات مقابل كل جنيه ربحته، ويحمل الباقي إلى الخزنة في غرفته الخاصة.

أستطيع أن أقول بثقة إنه لم يندم قط على استثماره، فقد نجح منذ البداية بفضل بعض الحالات القليلة الناجحة، والسمعة التي فزت بها في المستشفى أوصلتني بسرعة إلى المقدمة. وخلال السنوات القليلة الماضية جعلت منه رجلًا ثريًّا.

هذا كل ما يختص بتاريخي الماضي وعلاقتي مع السيد بلسنجتون. لم يتبقَّ لي الآن سوى أن أخبركم بما حدث لي ودفعني إلى القدوم إليكم الليلة.

منذ عدة أسابيع نزل السيد بلسنجتون إليَّ –كما بدا لي– في حالة هياج كبيرة. تحدَّث عن بعض عمليات السطو التي –كما قال– إنها ارتكبت في الطرف الغربي من المدينة، وبدا منفعلًا بغير ضرورة

بشأن ذلك، معلنًا أنه لا ينبغي أن يمر يوم قبل أن نضيف مزاليج أقوى إلى نوافذنا وأبوابنا. استمر لمدة أسبوع في حالة غريبة من القلق، يحدق باستمرار من النوافذ، وتوقف عن نزهة المشي القصيرة التي كانت عادةً تسبق عشاءه. وقد خطر لي من تصرفاته أنه كان خائفًا من شيء ما أو شخص ما، لكن عندما استجوبتُه انقلب إلى رجل عدواني جدًّا لدرجة أنني اضطررت إلى التخلي عن بحث الموضوع. وبمرور الوقت، بدأت مخاوفه تتلاشى، واستعاد عاداته القديمة، حتى حدث شيء جديد أحاله إلى حالة يرثى لها الآن.

قبل يومين تلقيت خطابًا لم يرفق بعنوان ولا تاريخ، سأقرأ نصه عليكم الآن:

«نبيل روسي يقيم الآن في إنجلترا، يسره أن يستفيد من المساعدة الطبية للدكتور بيرسي تريفليان، فهو ضحية لمرض الإغماء التخشبي منذ سنوات، وهو المرض الذي يشتهر الدكتور تريفليان بأنه خبير فيه. ويقترح أن يزور العيادة في الساعة السادسة والربع من مساء الغد، إذا كان الدكتور تريفليان مستعدًّا لاستقباله عندئذٍ».

أثار هذا الخطاب اهتمامي العميق، لأن الصعوبة الرئيسة في دراسة مرض الإغماء التخشبي تكمن في ندرته. فلا بد أن تصدق إذن أنني كنت في غرفة الكشف حين أُدخل مساعدي المريض المشار إليه في الوقت المحدد.

كان رجلًا مُسنًّا ونحيفًا ورزينًا، وقد جعله شكله المألوف بعيدًا عن الشكل الذي نتخيله لنبيل روسي. ولكنني ذهلت أكثر بمظهر رفيقه؛ كان شابًّا طويل القامة، وسيمًا بدهشة، له وجه داكن حاد القسمات، وجسم مفتول العضلات. كان يضع يده تحت ذراع العجوز عندما دخلا، ثم ساعده ليجلس على الكرسي بحنان لا يتوقعه المرء من مظهره.

قال لي وهو يتحدث الإنجليزية بلثغة بسيطة:

– أعتذر عن دخولي يا دكتور، هذا والدي، وصحته مسألة ذات أهمية بالغة بالنسبة إليَّ.

تأثرت بقلقه الشديد على والده، وقلت له:

– لعلك تريد البقاء في أثناء الفحص؟

صاح في فزع:

– محال، سيكون هذا مؤلمًا لي أكثر مما أستطيع التعبير عنه. إذا رأيت والدي في إحدى هذه النوبات المروعة، فأنا متأكد بأن جهازي العصبي لن ينجو أبدًا؛ فأعصابي حساسة للغاية. إذا سمحت لي، سأبقى في غرفة الانتظار حتى تنتهي من فحصه.

بالطبع سمحت له، وانسحب الشاب. ثم انغمست أنا والمريض في مناقشة لحالته، حيث دوَّنتُ ملاحظات شاملة. لم يكن سريع الفهم، وكانت إجاباته غامضة في كثير من الأحيان، وهو ما أرجعته إلى معرفته المحدودة بلغتنا. وفجأة، بينما كنت أُدوِّن إجاباته، توقف عن إعطاء أي إجابة على استفساراتي، وحين رفعت بصري إليه، صُدمت برؤيته متخشبًا في كرسيه، وقد تصلب وجهه، وصارت نظراته جوفاء؛ لقد وقع في قبضة المرض من جديد.

للوهلة الأولى كانت مشاعري خليطًا من الشفقة والرعب، لكنني سأعترف أنها قد تحولت سريعًا إلى نوع من الرضا المهني، فقد دوَّنتُ ملاحظات عن نبض المريض ودرجة حرارته، واختبرت تصلب عضلاته، وفحصت ردود أفعاله. فلم ألاحظ أي شيء غير طبيعي أو مختلف عما كنت أعرفه بخبرتي السابقة. في الماضي، حصلت على نتائج جيدة في مثل هذه الحالات عن طريق استنشاق دواء نيتريت الأميل، وبدت هذه الحالة فرصة رائعة لاختبار فاعليته. كانت زجاجة الدواء في الطابق السفلي في مختبري، لذا تركت مريضي جالسًا على كرسيه، وركضت لأحضره. تأخرت قليلًا واستغرقت نحو خمس دقائق في العثور عليه، وعندما عدت.. يمكنك أن تتخيل ذهولي حين وجدت الغرفة خالية والمريض قد اختفى!

بالطبع، كان أول رد فعل لي هو الركض إلى غرفة الانتظار، وفوجئت باختفاء الابن أيضًا. كان باب البهو مغلقًا ولكنه غير مقفل بالمِزلاج. أما مساعدي الذي يُدخِل المرضى فهو صبي جديد وليس سريعًا بأي حال من الأحوال، فهو ينتظر في الأسفل حتى أقرع له الجرس في غرفة الكشف فيسرع ليدل المرضى على باب الخروج، ولم يكن قد سمع شيئًا، وهكذا بقي الأمر لغزًا غامضًا. وعندما عاد السيد بلسنجتون من نزهة المشي بعد ذلك بوقت قصير، لم أقل له أي شيء عن هذا الموضوع، لأني -لأكون صادقًا- كنت قد بدأت بتخفيف التعامل معه مؤخرًا.

حسنًا، لم أتوقع مطلقًا أني سأرى الروسي وابنه مرة أخرى، لذلك يمكنك تخيل دهشتي عندما دخل كلاهما، في الموعد نفسه هذا المساء، إلى غرفة الكشف الخاصة بي، تمامًا كما فعلا من قبل.

قال المريض:

- أشعر أنني مدين لك بالكثير من الاعتذارات عن مغادرتي المفاجئة بالأمس يا دكتور.

قلت:

- أعترف أنني فوجئت كثيرًا بذلك.

علق قائلًا:

- حسنًا، الحقيقة هي أني عندما أفيق من هذه النوبات، دائمًا ما يكون ذهني مشوشًا جدًّا فيما يتعلق بكل ما حدث من قبل. فعندما أفقت أمس في غرفة غريبة -كما بدا لي- عندما كنتَ غائبًا، شققت طريقي إلى الشارع بطريقة ما وأنا في حالة ذهول.

قال الابن:

- عندما رأيت والدي يمر من باب غرفة الانتظار، اعتقدت بطبيعة الحال أن الكشف قد انتهى، ولم أدرك الوضع الحقيقي للأمور حتى وصلنا إلى المنزل.

قلت ضاحكًا:

- حسنًا، لا ضرر في ذلك إلا أنك حيرتني بشدة، لذلك تفضل يا سيدي بالدخول إلى غرفة الانتظار، وسأكون سعيدًا لاستكمال الاستشارة التي انتهت فجأة أمس.

لمدة نصف ساعة أو نحو ذلك، ناقشت أعراض المرض مع هذا الرجل العجوز، وبعد أن وصفت له الدواء، رأيته يغادر متَّكِئًا على ذراع ابنه.

لقد أخبرتكم أن السيد بلسنجتون بوجه عام يقضي هذه الساعة من اليوم في ممارسة رياضة المشي، وقد جاء بعد مغادرتهما بوقت قصير واتجه إلى الطابق العلوي. وبعد لحظة، سمعته يركض مقتحمًا غرفة الكشف كرجل أفقده الفزع صوابه! وصاح قائلًا:

– من كان في غرفتي؟

قلت:

– لا أحد.

فصرخ:

– أنت تكذب! تعال وانظر!

تجاوزت فظاظة أسلوبه، حيث بدا وكأنه فقد نصف عقله. وعندما صعدت معه إلى الطابق العلوي، أشار إلى عدة آثار لأقدام على السجادة الخفيفة. وصاح قائلًا:

– هل تظن أن هذه آثار أقدامي؟

كانت بالتأكيد أكبر بكثير من حجم قدميه، ومن الواضح أنها كانت حديثة تمامًا. لقد أمطرت السماء بغزارة بعد ظهر هذا اليوم كما تعلم، ولم يأتِ إلى المنزل إلا مرضاي. لا بد أن الرجل الذي كان في غرفة الانتظار –لسبب غير معروف– صعد، في حين كنت مشغولًا بالكشف على أبيه، إلى غرفة «المريض المقيم». لم يُلمَس أي شيء، ولكن هناك آثار أقدام تثبت أن الاقتحام كان حقيقة لا شك فيها.

بدا السيد بلسنجتون منفعلًا بشأن هذه المسألة أكثر مما توقعت، رغم أن ما حدث كان بالطبع كافيًا لزعزعة راحة بال أي شخص. جلس على كرسيه يبكي، وبالكاد استطعت حثه على التحدث تحدثًا متماسكًا، وكان هو من اقترح عليَّ أن آتي إليك، وراق لي اقتراحه بالفعل، لأن الحادثة غريبة جدًّا بالتأكيد، على الرغم من أنه يبالغ في تعليق الأهمية عليها. إذا تكرمت وأتيت معي في عربتي، فقد تتمكن على الأقل من تهدئته، بالرغم من أنني أشك في أنك ستنجح في تفسير هذه الحادثة غير العادية.

استمع شيرلوك هولمز إلى هذه الرواية الطويلة بإمعانٍ أظهرَ لي مدى نجاحها في إثارة اهتمامه. بدت ملامح وجهه هادئة أكثر من أي وقت مضى، وتدلت جفونه، في حين تموج دخان غليونه تموجًا أكثر كثافة لتأكيد كل جزء غريب في حكاية الطبيب. بمجرد أن أنهى زائرنا حديثه، نهض هولمز دون كلمة، وناولني قبعتي، في حين كان يلتقط قبعته عن الطاولة، وتبعنا الدكتور تريفليان. في غضون ربع ساعة وصلنا إلى باب منزل الطبيب في شارع بروك، الذي كان واحدًا من تلك المنازل الكئيبة مثل معظم عيادات الطرف الغربي من المدينة. استقبلنا خادم صغير السن، وبدأنا على الفور في صعود درجات السلم العريضة المغطاة بالسجاد. لكن في أثناء صعودنا، حدث ما جعلنا نتوقف فجأة، فقد انطفأ النور في الأعلى، ومن الظلام انطلق صوت حاد مرتعش، وصاح:

– معي مسدس، أحذرك، إذا اقتربت فسوف أطلق النار.

صاح الدكتور تريفليان:

– لقد تجاوز الأمر الحدود حقًّا يا سيد بلسنجتون.

قال الصوت مع زفرة ارتياح عميقة:

– أوه، هذا أنت إذن يا دكتور؟ ولكن هل تحققت من شخصية هذين السيدين؟

أدركنا أنه كان يراقبنا في الظلام بدقة، وقال الصوت أخيرًا:

– حسنًا، حسنًا.. كل شيء على ما يرام، يمكنكم الصعود، وأنا آسف إذا كانت احتياطاتي الأمنية قد أزعجتكم.

أضاء نور الدرج وهو يتحدث، فرأينا رجلًا غريب المظهر، دلَّت نبرة صوته على أعصابه المتشنجة. كان سمينًا جدًّا، وإن بدا أنه كان أشد سمنة قبل ذلك؛ إذ تهدَّل الجلد حول وجهه في تجاعيد مترهلة، مثل خدود كلب الصيد. كان لونه شاحبًا، وقد وقف شعره الخفيف الأشقر من شدة انفعاله، يحمل في يده مسدسًا، لكنه وضعه في جيبه حين اقتربنا، وقال:

– مساء الخير يا سيد هولمز، أنا ممتن جدًّا لمجيئك، فلا أحد يحتاج إلى نصيحتك أكثر مني الآن، وأظن أن الدكتور تريفليان قد أخبرك بهذا الاقتحام الغريب لغرفتي.

قال هولمز:

– هذا صحيح. مَن هذان الرجلان يا سيد بلسنجتون، ولماذا يريدان إيذاءك؟

أجاب «المريض المقيم» بعصبية:

– حسنًا، من الصعب معرفة ذلك بالطبع، ولا يمكنك أن تتوقع مني الإجابة يا سيد هولمز.

– أتعني أنك لا تعرف؟

– إذا سمحت، أرجو أن تتفضل بالدخول.

قادنا إلى غرفة نومه، كانت غرفةً كبيرة ومفروشة بشكل مريح. ثم قال مشيرًا إلى صندوق أسود كبير عند نهاية سريره:

– أترى ذلك؟ لم أكن قط رجلاً ثريًّا يا سيد هولمز، ولم أستثمر سوى واحد في حياتي، كما أخبرك الدكتور تريفليان، ولكنني لا أؤمن بالمصرفيين، ولا أثق بأحدهم أبدًا، وليكن الأمر بيني وبينكم، فإني أحتفظ بالقليل الذي أملكه في هذا الصندوق. ولذلك يمكنك أن تفهم ما يعنيه اقتحام هذان الغريبان غرفتي.

نظر هولمز إلى بلسنجتون بطريقته المتسائلة وهزَّ رأسه، ثم قال:

– لا يمكنني مساعدتك إذا كنت تحاول خداعي.

– ولكنني أخبرتك بكل شيء!

استدار هولمز على كعبيه بشيء من الاشمئزاز، وقال:

– تصبح على خير يا دكتور تريفليان.

صاح بلسنجتون بصوت مكسور:

– ولن تعطيني أي نصيحة؟

– نصيحتي لك يا سيدي هي أن تقول الحقيقة.

بعد دقيقة، كنا في الشارع نسير عائدين إلى المنزل. عبرنا شارع أكسفورد وقطعنا نصف الطريق في شارع هارلي، قبل أن أستطيع انتزاع كلمة من صديقي. وقال أخيرًا:

– أنا آسف لإحضارك إلى هذه المهمة الحمقاء يا واتسون، ولكنها قضية مثيرة للاهتمام أيضًا في أعماقها.

اعترفتُ قائلًا:

– لم أفهم منها أي شيء.

– حسنًا، من الواضح تمامًا أنه يوجد رجلان على الأقل –وربما أكثر– مصممان على إزعاج هذا الرجل بلسنجتون لسبب ما، وليس لديَّ أدنى شك في أن الشاب قد اقتحم غرفة بلسنجتون في المرتين الأولى والثانية في حين شغل شريكه الطبيب بطريقة مبتكرة تمنعه من التدخل.

– والإغماء التخشبي؟

– محاكاة احتيالية يا واتسون، رغم أنني لم أجرؤ على التلميح بهذا إلى طبيبنا الاختصاصي، فأعراض هذا المرض سهلة التقليد، حتى إنني فعلت ذلك بنفسي ذات مرة.

– وماذا بعد؟

– كان بلسنجتون خارج المنزل في المرتين، ومن الواضح أن سبب اختيارهما هذا التوقيت غير الاعتيادي للاستشارة هو ضمان عدم وجود أي مريض آخر في غرفة الانتظار. ومع ذلك، فقد تصادف أن تزامنت هذه الساعة مع نزهة بلسنجتون؛ ما يُظهِر أنهما لم يكونا على دراية جيدة بروتينه اليومي. فلو كانا يريدان المال لبذلا على الأقل بعض المحاولات للبحث عنه، وفوق ذلك يمكنني أن أعرف ما إذا كان الرجل خائفًا على نفسه أو على ماله، من طريقة قراءة ذلك في عينيه. من غير المعقول أن يكون هذا الرجل قد صنع مثل هذين العدوين الحقودين دون معرفة منه. لذلك، أنا على يقين أنه يعرف مَن هم هؤلاء الرجال، وأنه لأسباب خاصة به يخفي ذلك، ومن المحتمل أن يكون في مزاج يجعله أكثر صراحة غدًا.

قلت مقترحًا:

– ألا يمكن أن يكون للمسألة احتمال آخر، وإن كان غريبًا بلا شك، ولكنه احتمال قابل للتصور؟ قد تكون القصة الكاملة للنبيل الروسي وابنه من اختراع الدكتور تريفليان الذي يريد الدخول لغرفة بلسنجتون لسبب أو لآخر.

رأيت تحت ضوء عمود الإنارة أن هولمز يبتسم مسرورًا من هذا التحول الرائع في أفكاري وقال:

– لقد كان أحد الاحتمالات الأولى التي خطرت لي يا صديقي العزيز، لكنني سرعان ما تأكدت من حكاية الطبيب؛ فقد ترك هذا الشاب آثارًا لأقدامه على سجادة الدرج؛ ما جعلني في غنى عن طلب رؤية تلك التي تركها على سجادة الغرفة، وحين أُخبرك بأن مقدمة حذائه كانت مربعة بدلًا من أن تكون

مدببة مثل حذاء بلسنجتون، وأنه أطول بمقدار بوصة وثلث من حذاء الطبيب، فسوف تقر بأنه لا يمكن أن يوجد شك فيه. حسنًا، لنغلق الموضوع الآن، وسوف أكون في غاية الدهشة إذا لم نسمع شيئًا من أصحابنا في شارع بروك غدًا صباحًا.

سرعان ما تحققت نبوءة شيرلوك هولمز، وبطريقة درامية، ففي السابعة والنصف من صباح اليوم التالي، ومع أول شعاع لضوء الصباح، وجدته يقف بجانب سريري مرتديًا ملابس النوم وهو يقول:

– توجد عربة تنتظرنا يا واتسون.

– ما الأمر؟

– إنها قضية شارع بروك.

– هل من أخبار جديدة؟

أجاب وهو يفتح الستائر:

– أخبار مأساوية وغامضة. انظر إلى هذه؛ إنها ورقة من دفتر ملاحظات كتب فيها بقلم رصاص وخط رديء: «بربك تعال في الحال، ب.ت».

ثم أكمل:

– لقد كان صديقنا الطبيب في وضع صعب حين كتبها. هيّا يا صديقي العزيز، فهذه حالة طارئة.

في ربع ساعة كنا في منزل الطبيب. اندفع مسرعًا ليقابلنا وعلى وجهه أمارات الرعب، ثم صرخ قائلًا وهو يضع يديه على صدغه:

– يا إلهي، يا للفظاعة!

– ماذا حدث؟

– لقد انتحر بلسنجتون.

صفَّر هولمز في حين أكمل الطبيب:

– نعم، لقد شنق نفسه في أثناء الليل!

دخلنا، وكان الطبيب قد سبقنا إلى ما كان من الواضح أنه غرفة انتظاره، وصرخ قائلًا:

– لا أعرف حقًّا ماذا أفعل! رجال الشرطة في الطابق العلوي الآن، وقد تسبب ما حدث في صدمة كبيرة لي.

– متى اكتشفت الأمر؟

– لقد اعتاد احتساء كوب من الشاي في وقت مبكر كل صباح، وعندما دخلَت الخادمة لتقدمه، في نحو الساعة السابعة، كان المسكين معلقًا في منتصف الغرفة. يبدو أنه قد ربط الحبل بالخطاف الذي نستعمله لتعليق المصباح الثقيل، ثم قفز من فوق الصندوق نفسه الذي أطلَعَنا عليه أمس.

وقف هولمز للحظة مستغرقًا في تفكير عميق، ثم قال أخيرًا:

– بعد إذنك، أريد أن أصعد إلى الطابق العلوي وأنظر في الأمر.

صعدنا وتبعنا الطبيب، وبمجرد تجاوزنا باب غرفة النوم، رأينا مشهدًا مروعًا. لقد تحدثت من قبل عن مدى ترهله، وقد تعمق هذا الانطباع عندما تدلى من الخطاف، فبدا في هيئة غير بشرية؛ تمددت رقبته فبدت مثل رقبة الدجاجة المسلوخة، على النقيض من سائر جسمه الذي ازداد بدانة وضخامة. كان يرتدي ثوب نومه الطويل فقط، وقد برز كاحلاه المنتفخان وقدماه الغليظتان من تحت الثوب، وبجانبه وقف مفتش شرطة أنيق المظهر يُدوِّن بعض الملاحظات في مفكرة جيبه. عندما دخل صديقي، قال الشرطي بحماس:

– مرحبًا يا سيد هولمز، سررت برؤيتك.

أجاب هولمز:

– صباح الخير يا لانر، أرجو ألّا تعدَّني متطفلًا، هل سمعت عن الأحداث التي أدت إلى هذه القضية؟

– نعم، سمعت بعضها.

– هل كوَّنتَ أي رأي؟

– لقد فقد الرجل صوابه من الخوف كما فهمت، فقد نام في سريره لوقت طويل كما يظهر من الأثر العميق على السرير. وكما تعلمون، أن الساعة الخامسة صباحًا هي الساعة الأكثر شيوعًا للانتحار، وهي الساعة التي انتحر فيها على الأغلب، وهكذا يبدو الأمر متعمدًا.

فقلتُ:

– من خلال تصلب العضلات، أستطيع أن أحكم أنه مات منذ نحو ثلاث ساعات.

سأل هولمز:

– هل لاحظت أي شيء غريب في الغرفة؟

– عثرت على مفك وبعض البراغي على حامل مغسلة اليدين، ويبدو أنه دخَّن بشراهة في أثناء الليل أيضًا، فها هي أربعة أعقاب لفائف التقطتُها من المدفأة.

قال هولمز:

– حسنًا، أحصلت على المبسم؟

– لا، لم أجده.

– علبة سجائره إذن؟

– نعم، كانت في جيب معطفه.

فتحها هولمز واشتمَّ رائحة اللفافة الوحيدة الموجودة بها، ثم قال:

– أوه، إنها من نوع هافانا؛ نوع غريب يستورده الهولنديون من مستعمراتهم الشرقية في الهند، وعادة ما تُغلَّف بالقش، وهي أرفع بالنسبة إلى طولها من أي علامة تجارية أخرى.

التقط هولمز أطراف أعقاب اللفائف الأربعة وفحصها بعدسة جيبه ثم قال:

– لقد استخدم المبسم في تدخين اثنتين فقط، أما الأخريان فقد دُخِّنتا دونه، كما قُطِعت نهاية اثنتين بسكين غير حادة، وقُضِمت نهاية اثنتين بمجموعة من الأسنان الممتازة. هذا ليس انتحارًا يا سيد لانر،

إنها جريمة قتل خُطِّط لها بمكر ووحشية.

صاح المفتش:

– مستحيل!

– ما المستحيل في ذلك؟

– لماذا يضطر أي شخص إلى قتل رجل بشنقه بهذه الطريقة الخرقاء؟

– هذا ما يجب علينا اكتشافه.

– كيف تمكنوا من الدخول؟

– من خلال الباب الأمامي.

– لقد كان مغلقًا بالمزلاج في الصباح.

– إذن فقد أُغلق بعد انصرافهم.

– كيف عرفت؟

– لقد رأيت آثارهم. اسمح لي بلحظة، وقد أتمكن من إعطائك بعض المعلومات الإضافية بشأن هذا الموضوع.

اتجه هولمز إلى الباب، وأدار القفل وفحصه بطريقته المنهجية، ثم أخرج المفتاح الذي كان في الجهة الداخلية من الباب وتفحصه أيضًا. كما فحص السرير والسجاد والكراسي ورف الموقد والجثة والحبل، حتى أعلن أخيرًا أنه يشعر بالرضا، وبمساعدتي ومساعدة المفتش، قطع الحبل وأنزل الجسم التعِس ومدَّده باحترام على السرير تحت ملاءة.

ثم سأل:

– من أين جاءَ بهذا الحبل؟

قال الدكتور تريفليان وهو يسحب لفة حبال كبيرة من تحت السرير:

– لقد قُطِع من هذه اللفة، لقد كان يخاف النار خوفًا مَرَضيًّا، ولهذا كان دائمًا يحتفظ بهذا الحبل بجانبه حتى يتمكن من الهرب من النافذة في حال اشتعال النيران في المكان.

قال هولمز بحرص:

– لقد وفَّر ذلك عليهم المشقة. نعم، الحقائق الفعلية واضحة جدًّا، ولسوف أدهش إذا لم أتمكن بعد ظهر اليوم من إخبارك بأسباب ما حدث. سآخذ هذه الصورة لبلسنجتون، التي أراها على رف الموقد، لأنها قد تساعدني في تحقيقاتي.

صاح الطبيب:

– ولكنك لم تخبرنا بشيء!

قال هولمز:

– أوه، لا يمكن أن يكون هناك شك في تسلسل الأحداث؛ ثلاثة أشخاص يشتركون في الأمر: الشاب، والعجوز، وشخص ثالث ليس لديَّ أدنى فكرة عن هويته. أما أول اثنين فلا أحتاج إلى القول إنهما الاثنين نفسهما اللذَين تنكَّرا في شخصية المريض الروسي وابنه، ولذلك نستطيع الحصول على وصف كامل لهما، وقد أدخلهما إلى المنزل شريك لهما. إذا كان بإمكاني تقديم نصيحة لك –أيها المفتش– فستكون أن تلقي القبض على خادم العيادة، الذي –كما فهمت– لم يعمل بخدمتك إلا مؤخرًا يا دكتور.

قال الدكتور تريفليان:

– لم نستطع العثور على هذا العفريت الصغير، الخادمة والطباخ ما زالا يبحثان عنه.

هز هولمز كتفيه وقال:

– لقد لعب دورًا مهمًّا في هذه القضية؛ فقد صعد الرجال الثلاثة الدرَج على رؤوس أصابعهم، يتقدمهم الرجل الأكبر سِنًّا، ومن بعده الشاب، ثم الرجل المجهول في المؤخرة.

هتفت قائلًا:

– عزيزي هولمز!

– ليس لديَّ أدنى شك فيما يتعلق بتركيبة آثار الأقدام؛ فقد ميزت الليلة الماضية أثر كل شخص عن الآخر. حسنًا، لقد صعدوا عندئذٍ إلى غرفة السيد بلسنجتون، التي وجدوا بابها مغلقًا بإحكام، وتمكنوا من فتحه باستخدام سلك، فحتّى دون العدسة.. ستلاحظ من الخدوش على هذه الجهة، أين يُضغط لخلع الباب. ولا بد أن الإجراء الأول الذي اتخذوه عند دخول الغرفة هو تكميم السيد بلسنجتون الذي ربما كان نائمًا، أو لعل الرعب أسكته لدرجة أنه لم يكن قادرًا على الصراخ، كما أن هذه الجدران سميكة، ومن المتصور أن صرخته، إذا كان لديه الوقت ليطلق واحدة، لم تكن مسموعة. من الواضح أنهم قد أجروا بعض المشاورات بعد أن كمَّموه، ومن المحتمل أن يكون شيئًا له طبيعة الإجراء القضائي. ولا بد أن الأمر قد استمر لبعض الوقت؛ إذ دخَّنوا هذه اللفائف خلال العملية، فجلس الرجل العجوز على كرسي الخوص هذا، وكان هو من استخدم المبسم، في حين جلس الشاب هناك حيث سقط رماد لفافته على الخزانة ذات الأدراج، أما الرجل الثالث فقد ذرع المكان ذهابًا وإيابًا. أعتقد أن بلسنجتون جلس منتصبًا على سريره، وإن كنت لا أستطيع أن أجزم بصحة هذا الاعتقاد تمامًا. حسنًا، لقد انتهى الأمر بأن شنقوا بلسنجتون. أرى أنهم رتبوا للأمر مسبقًا لدرجة أني أعتقد أنهم أحضروا معهم بَكرَة أو كتلة خشبية ليستخدموها في ربط حبل المشنقة، وكان المفك والبراغي لتركيبها كما تصورت. ولكن وجود الخطاف وفَّر عليهم المشقة وأحسنوا استغلاله. وبعد أن انتهوا من عملهم أغلق شريكهم الباب وراءهم بالمزلاج.

استمعنا جميعًا باهتمام بالغ إلى هذا الشرح المفصل لأحداث الليلة السابقة، الذي استنتجه هولمز من إشارات دقيقة وعلامات غير ملحوظة، لدرجة أنه حين وضحها لنا، بالكاد استطعنا تتبع تحليله المنطقي. وعندها، سارع المفتش ليبحث عن الخادم ليلقي القبض عليه، في حين عدت أنا وهولمز إلى شارع بيكر لتناول الإفطار.

قال هولمز عندما انتهينا من وجبتنا:

– سأعود عند الثالثة، وسيكون المفتش والطبيب في انتظاري هنا، وآمل بحلول ذلك الوقت أن أكون قد أوضحت أي غموض ما زال يشوب هذه القضية.

وصل زائرانا في الوقت المحدد، ولكن صديقي لم يظهر حتى الرابعة إلا ربع. وعندما دخل، استطعت من خلال تعبيرات وجهه أن أرى أن كل شيء سار على ما يرام معه. سأل هولمز:

– هل من أخبار جديدة أيها المفتش؟

– لقد ألقينا القبض على الصبي، يا سيدي.

– ممتاز، وأنا نلت من الرجال.

صحنا نحن الثلاثة في آن واحد:

– نلت منهم؟!

– حسنًا، لقد تعرفت على هويتهم على الأقل؛ هذا المدعو بلسنجتون معروف جيدًا في المركز الرئيس للشرطة كما توقعت، وكذلك مهاجموه، وأسماؤهم هي بيدل وهايوارد وموفات.

صاح المفتش:

– عصابة ورثينغدون لسرقة المصارف!

قال هولمز:

– تمامًا.

– لا بد إذن أن يكون بلسنجتون هو سوتن؟

قال هولمز:

– بالضبط.

قال المفتش:

– يا إلهي! هذا يجعل الأمر بوضوح وشفافية الكريستال.

نظرنا أنا وتريفليان إلى بعضنا بعضًا في حيرة، فقال هولمز:

– لا بد أنكم تذكرون قضية ورثينغدون الكبيرة لسرقة المصارف، وقد اشترك فيها خمسة رجال؛ هؤلاء الأربعة والخامس يُدعى كارترايت؛ حيث قتلوا توبين، القائم بالأعمال المصرفية، وهربوا بسبعة آلاف جنيه. كان هذا في عام 1875، وقد اعتُقِلوا جميعًا، لكن الأدلة ضدهم لم تكن قطعية بأي حال من الأحوال. تحول بلسنجتون أو سوتن، الذي كان أسوأ أفراد العصابة، إلى مُخبر، وبفضل اعترافاته، شُنِق كارترايت، وحُكِم على الثلاثة الآخرين بالسجن خمسة عشر عامًا لكل منهم. وعندما أطلق سراحهم منذ بضعة أيام، وكان ذلك قبل انقضاء مدة سجنهم بسنوات، كرَّسوا أنفسهم لتعقب الخائن والانتقام منه، وحاولوا مرتين الوصول إليه لكنهم فشلوا، ثم نجحوا في المرة الثالثة، هل يوجد أي شيء آخر يمكنني شرحه يا دكتور تريفليان؟

قال الطبيب:

- أعتقد أنك أوضحت كل شيء توضيحًا رائعًا، ولا شك أن اليوم الذي فقد صوابه فيه كان هو اليوم الذي رأى فيه خبر إطلاق سراحهم في الصحف.

- تمامًا، ولم يكن حديثه عن السرقات سوى غطاء.

- ولكن لماذا لم يستطع إخبارك بهذا كله؟

- حسنًا يا سيدي العزيز، مع علمه بالطابع الانتقامي لرفاقه القدامى، كان يحاول إخفاء هويته عن الجميع قدر استطاعته، فقد كان سره مُخْزِيًا، ولم يستطع أن يحمل نفسه على إفشائه. ومع ذلك، وبالرغم من أنه كان حقيرًا، فقد كان ما يزال يعيش تحت درع حماية القانون البريطاني، وليس لديَّ شك -أيها المفتش- أنك سترى أنه على الرغم من أن هذا الدرع قد يفشل في حراسته، فإن سيف العدالة كان أبلغ في الانتقام.

كانت هذه هي الظروف الغريبة التي تعلقت بالمريض المقيم وطبيب شارع بروك. منذ تلك الليلة، لم تستطع الشرطة الوصول إلى القتلة الثلاثة، حتى غلب الظن أنهم كانوا من بين ركاب السفينة البخارية المنكوبة «نورا كرينا»، التي فُقدت قبل بضع سنوات مع كل ركابها على الساحل البرتغالي، على بعد عدة فراسخ من شمال أوبرتو. وهكذا، سقطت الدعاوي المرفوعة ضد الخادم لعدم وجود أدلة، ولم تكتب الصحف إطلاقًا عن لغز شارع بروك -كما صار يسمى- في أي مطبوعة حتى الآن.

مصطلح مشتق من الأساطير اليونانية، يرتبط بالوقوع بين خيارين، كلاهما صعب على حد سواء.

مغامرة المترجم اليوناني

خلال معرفتي الطويلة والمقربة من السيد هولمز لم أسمعه قط يشير إلى علاقاته، ونادرًا ما كان يشير إلى بداية حياته. هذا التحفظ من جانبه زاد من طبيعته غير الآدمية التي يظهر عليها، بالنسبة إليَّ، حتى وجدت نفسي أعامله في بعض الأحيان على أنه ظاهرة منفصلة، عقل بلا قلب، يفتقر للحميمية الإنسانية بنفس درجة تفوقه في الذكاء. تجنبه النساءَ وعزوفه عن الأصدقاء كانا أمرين مألوفين منه بعدِّه شخصًا غير عاطفي، لكن لم يكن الوضع كذلك مع امتناعه الكامل عن ذكر أي شيء عن عائلته، لدرجة أنني اعتقدت أنه نشأ يتيمًا بلا أي أقرباء، لكن في يوم من الأيام فاجأني بشدة عندما بدأ الحديث عن أخيه.

كان ذلك بعد تناول كوب من الشاي في ليلة صيفية، بدأت المحادثة بموضوعات عشوائية، انتقلنا من الحديث عن بعض أنماط الملابس الحديثة، إلى نوادي الجولف، وأسباب تغير ميل مدار الشمس، ثم انتقلنا في النهاية إلى تأصل الصفات ومدى قابليتها للتوريث، نناقش إلى مدى تكون المواهب الاستثنائية لدى الأفراد موروثة وإلى مدى تكون نتيجة تدريبه المبكر. فقلت له في هذا الموضوع:

– في حالتك، من الواضح لي، مما ذكرت، أن قدرتك الاستثنائية على الملاحظة، والسهولة الفريدة التي تصل بها إلى استنتاجاتك تعودان إلى تدريبك الدؤوب والممنهج.

فأجابني متأملًا:

– إلى حد ما، أجل. كان أجدادي رجالًا ريفيين، وكانت الحياة عادية بالنسبة إلى تلك الطبقة. لكن، وعلى الرغم من ذلك، قدراتي هذه تجري في عروقي، ويمكن أن أكون قد ورثتها من جدتي، لقد كانت شقيقة الفنانة الفرنسية فرينت. وهذا الفن الذي يجري في دمي كان مكتوبًا له أن يأخذ أغرب الصور.

– لكن، كيف علمت أنه أمر وراثي؟

– لأن أخي مايكروفت له الموهبة نفسها ولكن بدرجة أكبر.

كان هذا جديدًا عليَّ تمامًا.. إذا كان يوجد رجل آخر بهذه القدرات نفسها في إنجلترا، فكيف لم يسمع عنه رجال الشرطة أو تتناقل أخباره في الصحف؟ لَّمحت لصديقي بهذا السؤال مشيرًا إلى أن تواضعه فقط هو ما يجعله يضع أخاه في منزلة أعلى منه. وما كان من هولمز إلا أن ضحك من كلامي، ورد عليَّ قائلًا:

– عزيزي واتسون، أنا لا أتفق مع أولئك الذين يضعون التواضع بين الفضائل. فالمفكر الحقيقي يجب أن ينظر إلى كل الأشياء على حقيقتها تمامًا، والتقليل من قدرة نفسه انحراف عن الحقيقة مثله مثل المبالغة في قدراته تمامًا. لذلك عندما أقول إن مايكروفت أفضل مني في الملاحظة يمكنك أن تثق أنني أقول الحقيقة بكل دقة.

– هل هو أصغر منك؟

– بل أكبر مني بسبع سنوات.

– كيف يمكن ألا يكون مشهورًا إذن؟

– إنه مشهور جدًّا لكن بين المقربين منه فحسب.

– أين إذن؟

– حسنًا، في نادي ديوجينس، على سبيل المثال.

لم أكن قد سمعت من قبل عن هذه المؤسسة، وظهر ذلك على وجهي، فقد أخرج هولمز ساعته من جيبه وقال:

– نادي ديوجينس هو أغرب نادٍ في لندن، ومايكروفت من أغرب الناس. يكون هناك من الخامسة إلا ربعًا حتى الثامنة إلا ثلثًا.

الساعة الآن السادسة، سنجده هناك الآن، فإذا كنت لا تمانع أن نتمشى في هذا المساء الجميل، فسأكون في غاية السعادة أن أعرفك الليلة على شيئين مثيرين جدًّا للفضول.

وبعد خمس دقائق كنا في الشارع متجهين إلى سيرك ريجينت. توجه إليَّ رفيقي بالكلام قائلًا:

– لا بد أنك تتساءل لماذا لا يستخدم مايكروفت قدراته في التحقيقات، إنه لا يستطيع فعل ذلك.

– لكنني ظننتك قلت...

– لقد قلت نعم إنه أفضل مني في الملاحظة والاستنتاج، ولو كان عمل المحقق يبدأ وينتهي كله في حين تجلس على كرسي مريح، لكان أخي أفضل محقق في الجرائم على الإطلاق. لكنه لا يملك أي طاقة أو رغبة في ذلك الأمر. لن يتحرك من مكانه حتى ليتثبت ما إذا كان استنتاجه صحيحًا، ويُفضِّل أن يظن الناس أنه خاطئ على أن يتكبد عناء إثبات أنه على صواب. كم من مرةٍ ذهبت إليه بمعضلة وقدم لي تفسيرًا اتضح فيما بعد أنه التفسير الصحيح، لكنه لا يمكنه أبدًا أن يتحقق من التفاصيل الواجب التحقق منها لإثبات نظريته في قاعة المحكمة.

– هذه ليست مهنته إذن؟

– على الإطلاق. فما أتخذه أنا وسيلة للعيش يعدُّه هو مجرد هواية للتسلية. مايكروفت لديه قدرة استثنائية مع الأرقام. لذلك فهو يعمل على مراجعة الدفاتر في إحدى الإدارات الحكومية. يسكن مايكروفت بشارع بول مول، ويذهب إلى عمله في وايتهول كل صباح، فقط على بعد شارعين من منزله، ويعود هذه المسافة كل مساء. من بداية العام إلى نهايته، لا يمارس أي رياضة أخرى ولا يُرى في أي مكان آخر ما عدا نادي ديوجينس، وهو مقابل لمسكنه مباشرةً.

– أنا لا أتذكر هذا الاسم.

– في الغالب لن تتذكره بالفعل. يوجد مِن الرجال في لندن مَن لا يرغبون في مجالسة الكثيرين، بعضهم بدافع الخجل، والبعض الآخر بسبب بغضهم الناسَ عمومًا، لكنهم لا يجدون مشكلة في الاستمتاع بكراسي مريحة وآخر الإصدارات من الجرائد والمجلات. ولراحة مثل هؤلاء الرجال افتُتِح ذلك النادي، وهو الآن مأوى لأكثر الناس انطوائية وانعزالًا في المدينة. لا يُسمح لأي عضو بتوجيه ولو أصغر الملاحظات لعضو آخر. الكلام هناك ممنوع تمامًا، ولا تحت أي ظرف، إلا في غرفة الغرباء. وإذا حُذِّرت ثلاث مرات فيحق لجمعية إدارة النادي فصلك ومنعك من الدخول ثانيةً. كان أخي أحد المؤسسين، وأنا شخصيًّا أجد المكان مريحًا للأعصاب.

وصلنا إلى شارع بول مول في حين كنا نتحدث، دخلنا من ناحية شارع سانت جيمس. توقف شيرلوك أمام أحد الأبواب على مسافة ليست كبيرة من شارع كارلتون، وحذرني ألا أتكلم عند دخولنا وأرشدني إلى صالة النادي. قبل دخولنا استطعت أن أرى لمحة من خلال الزجاج لغرفة كبيرة فاخرة يجلس فيها عددٌ كبير من الرجال يقرؤون الصحف، كل منهم وحده في زاويته الخاصة. قادني هولمز إلى غرفة صغيرة تطل على شارع بول مول، ثم تركني لدقيقة، وعاد ومعه شخصٌ آخر، عرفتُ أنه أخوه.

مايكروفت هولمز كان أضخم وأسمن كثيرًا من أخيه شيرلوك. كان سمينًا للغاية، لكن وجهه على الرغم من ضخامته يحتفظ بشيء من حدة التعبيرات المألوفة جدًّا في وجه أخيه. لون عينيه رمادي خفيف يميل إلى الزُّرقة، عيناه حادتان وتعطيان ذلك الانطباع بالتركيز العميق الذي لم أكن أراه في عيني شيرلوك إلا عندما يندمج بكامل قواه في محاولة حل لغز ما.

تقدم إليَّ بالتحية ومد يدًا عملاقة كقدم الفقمة قائلًا:

– تسرني مقابلتك يا سيدي. صرت أسمع عن شيرلوك في كل مكان منذ أن أصبحت مؤرخه. بالمناسبة يا شيرلوك، لقد توقعت أن أراك الأسبوع الماضي لتستعين بي في قضية آل مانور، ظننت أنك ستحتاج إلى القليل من المساعدة.

فقال صديقي مبتسمًا:

– لا، لقد حللتها.

– لقد كان آدمز بالطبع.

– أجل، كان آدمز.

– كنت واثقًا بذلك منذ البداية.

وجلس الاثنان معًا في نافذة النادي المقوسة، واستكمل مايكروفت حديثه قائلًا:

– هذا بالضبط هو المكان الذي ينبغي أن يجلس فيه أي شخص يود أن يدرس الجنس البشري. انظر إلى كل هذه الأنواع الباهرة! انظر إلى هذين الرجلين القادمين تجاهنا على سبيل المثال.

– أتقصد الرجل الذي يعمل في صالة البلياردو ومَن معه؟

– بالضبط، ماذا يمكنك أن تقول عن الآخر؟

كان الرجلان واقفين في الناحية المقابلة للنافذة التي ننظر منها، وكان على أحدهما بعض بقايا طباشير على كمه، كانت تلك هي العلامة الوحيدة التي استطعت أن أرى أن لها علاقة بعمله في صالة بلياردو، أما الآخر فكان رجلًا ضئيل الحجم جدًّا وأسمر، يضع قبعةً على رأسه ويحمل بعض الحقائب تحت إبطه.

قال شيرلوك:

– أظن أنه كان جنديًّا.

فعلق أخوه:

– وأُحيل إلى المعاش مؤخرًا جدًّا.

– كانت خدمته في الهند كما أرى.

– كان ضابط صف.

فقال شيرلوك:

– في المدفعية الملكية على ما أظن.

– وتوفيت عنه زوجته.

– لكن لديه طفلًا.

– أطفال يا عزيزي، أطفال.

فقاطعتهما قائلًا:

– على مهلكما، أليس هذا كثير جدًّا؟

فرد هولمز عليَّ:

– بالتأكيد، ليس صعبًا أن تعرف أن رجلًا يحمل مثل هذه النظرات السلطوية، وبلون جلده الذي صبغته الشمس، ليس من الصعب أن تعرف أنه جندي، وأنه ليس أكثر من عسكري، وأنه لم يكن بعيدًا عن الهند.

وأضاف مايكروفت:

– وكونه لم يغادر الخدمة إلا منذ زمن قريب لأن هذا واضح في ارتدائه حذاءه الميداني، كما ترى.

– وهو لا يمشي مشية الخيالة، إلا أنه معتاد أن يضع قبعته إلى الجانب، كما يبدو من اختلاف لون جبهته بين شقي وجهه، ولا يمكن أن يكون خبير ألغام بمثل وزنه هذا، لذلك هو من سلاح المدفعية.

– ثم يبدو من حزنه الشديد أنه فقد شخصًا عزيزًا عليه، وكونه يتسوق وحيدًا يجعلنا نرجح أنها زوجته، كما أنه قد اشترى أشياء لأطفال كما ترى، بين هذه الأشياء لعبة طفل رضيع؛ ما يدل على أن أحدهم في هذه المرحلة العمرية. يمكن أن تكون زوجته قد توفيت في أثناء الولادة. وكونه يحمل كتاب قصص مصورة تحت إبطه يشير إلى وجود طفل آخر يجب أخذه في الاعتبار.

بدأتُ أستوعب ما قصده صديقي عندما قال إن أخاه يمتلك قدرات أقوى حتى من تلك التي يمتلكها هو. نظر الأخير إليَّ وابتسم، وأطفأ مايكروفت عود ثقابه في المطفأة التي كانت أمامه، ونفض الرماد عن سترته بمنديل حريري أحمر كبير وقال:

– بالمناسبة يا شيرلوك، لقد عثرت على شيء من تلك الأشياء التي يحبها قلبك؛ قضية فذة جدًّا أحيلت إليَّ، وليست لديَّ الطاقة الكافية لمتابعتها بالكامل، إلا أنني أعطيتها بعض وقتي ومجهودي، لكن بشكل غير كامل، وقد توصلت إلى بعض الفرضيات المثيرة. إذا كنت مهتمًّا يمكنني أن أعرض عليك بعض الحقائق.

– عزيزي مايكروفت، سيكون ذلك من دواعي سروري.

كتب الأخ ملحوظة سريعًا على ورقة من كُتيِّب صغير أخرجه من جيبه، ورن الجرس وأعطاها للخادم، ثم قال:

– لقد طلبت من السيد ميلاس أن يأتي، إنه يسكن في الدور الذي فوقي، وأنا أعرفه معرفة طفيفة؛ ما جعله يقصدني بعدما احتار في أمره. السيد ميلاس يوناني الأصل، كما علمت، وهو رجل لغوي ممتاز، يكسب جزءًا من عيشه بالترجمة المباشرة في قاعات المحاكم، والجزء الآخر بعمله مرشدًا لأي ثري شرقي ينزل في فنادق شارع نورثمبرلاند. وأظن أنني سأتركه يشرح لك قصته الفريدة بطريقته.

بعد بضع دقائق انضم إلينا رجل قصير بدين، يدل وجهه المائل إلى السمرة وشعره شديد السواد على أصوله الشرقية، على الرغم من أن حديثه لم يكن ليختلف عن حديث رجل إنجليزي حاصل على درجة علمية عالية. سلَّم على هولمز بحرارة، ولمعت عيناه في سرور عندما علم أنه محقق خبير وأنه متحمس جدًّا لسماع القصة منه. بدأ حديثه بالعويل على موقفه قائلًا:

– أنا لا أظن أن الشرطة تصدقني، لا أظن ذلك إطلاقًا. ولأنهم لم يسمعوا بشيء مثل هذا من قبل.. يظنون أنه لا يمكن أن يحدث، لكنني أعلم أنني لن يهدأ بالي حتى أعرف ما حل بذلك الرجل المسكين الذي كان مكممًا بشريط لاصق.

فقال هولمز معلقًا:

– كلي آذان مصغية.

فاستكمل الرجل:

– نحن الآن في ليلة الأربعاء، حسنًا، لقد كان ذلك مساء الاثنين، منذ يومين فقط إذن كما ترى حدث كل هذا الأمر. أنا أعمل مترجمًا فوريًّا، كما أظن أن جاري قد أخبركَ بالفعل. أترجم جميع اللغات، أو معظمها، لكن لأنني من أصل يوناني واسمي أيضًا يوناني فأنا أشتهر بترجمة هذه اللغة بالذات. منذ سنوات وأنا المترجم اليوناني الأول في لندن واسمي معروف في جميع الفنادق.

لذلك فمن المعتاد أن يُرسِل إليَّ نزيل أجنبي في ساعة غريبة من اليوم عندما يواجه أي صعوبات، أو المسافرين عند وصولهم متأخرًا إذا ما كانوا بحاجة إلى مساعدتي. لذلك لم أكن متفاجئًا عندما أرسل إليَّ السيد لاتيمر مساء الاثنين، جاء إليَّ غرفتي شاب يرتدي ملابس قيمة جدًّا وطلب مني أن أصطحبه إلى عربة الأجرة التي كانت تنتظرنا في الشارع، وقال لي إن أحد أصدقائه اليونانيين قد جاءه في أمر من أمور عمله، ولأنه لم يكن يفهم أي لغة غير لغته فكان بحاجة ماسّة إلى مترجم. وأخبرني أن منزله ليس بعيدًا، فقط على مسافة صغيرة في كينزينتون، كان يبدو أنه على عجلة شديدة من أمره، إذ كان يستعجلني ويدفعني بشدة إلى عربة الأجرة عندما نزلنا إلى الشارع.

كنت أظن حتى ذلك الوقت أنها عربة أجرة كما قلتُ لك، لكنني بدأت أشك أنها عربة خاصة عندما دخلتها. كانت بالتأكيد أوسع من تلك العربات العادية ذات الأربع عجلات الشائنة لاسم لندن، ورغم أن تجهيزاتها مهترئة فإنها كانت قيِّمة وغالية. جلس السيد لاتيمر في الجهة المقابلة لي وانطلقنا إلى مفترق تشارنج ومنه إلى طريق شافتسبيري، ثم وصلنا إلى شارع أكسفورد، وكان ذلك عندما علقتُ قائلًا:

– إن هذا طريق ملتوٍ جدًّا إلى كينزينتون...

ذلك التعليق الذي لم أكمله بسبب ردة فعل رفيقي التي كانت غريبة جدًّا؛ أخرج من جيبه عصًا ضخمة مخيفة مثقلة بالرصاص، وأخذ يقلبها من كف إلى كف عدة مرات كأنه يختبر ثقلها وقوتها، ثم

وضعها على الكرسي المجاور له دون أن ينطق بكلمة واحدة، وبعد أن فعل ذلك أغلق نوافذ العربة، واندهشتُ عندما رأيت أنها مغطاة بورق لا أستطيع الرؤية من خلاله. وقال لي:

– أنا آسف يا سيد ميلاس، في الحقيقة أنا ليس لديَّ أي نيةٍ لأن أطلعك على المكان الذي سنذهب إليه، قد يكون الأمر مزعجًا لي إن استطعت أن تجد ذلك المكان مرةً أخرى.

وكما يمكنك أن تتخيل لقد بثت فيَّ هذه النبرة خوفًا شديدًا، وبخاصةً أن الشاب الذي كان يرافقني شاب قوي عريض المنكبين، وبغض النظر عن السلاح، لم أكن لأستطيع أن أقاومه بأي حال من الأحوال. فقلت له متلعثمًا:

– هذا سلوك غير عادي يا سيد لاتيمر، يجب أن تعرف أن ما تفعله الآن غير قانوني بالمرة.

فرد علي:

– يوجد بعض التجاوز من جانبي بلا شك، إلا أننا سنعوضك. لكن في المقابل عليَّ أن أحذرك يا سيد ميلاس أنك إذا حاولت في أي لحظة أن تصدر أي إنذار أو أن تفعل أي شيء ضد رغباتي فسوف تكتشف أن الأمر في غاية الجِدية، وأود أن تعرف أنه لا أحد يعرف مكانك، وأنك بين يدي وتحت سلطتي، سواءً كنت في هذه العربة أم في منزلي.

كان هادئًا جدًّا في أثناء حديثه، لكنه تحدث بغلظة؛ ما جعل وقع الكلام فيه الكثير من التهديد. جلست في صمت أفكر في السبب العجيب الذي يمكن أن يدفعه إلى اختطافي بهذه الطريقة الغريبة. كان من الواضح أنني لن أجني شيئًا من المقاومة، وأن أفضل ما يمكن فعله هو الانتظار لأرى ما سيحدث. لمدة ساعتين ظللنا نسير في تلك العربة دون أن يكون لدي أي فكرة إلى أين نحن ذاهبون. في بعض الأوقات كان صوت العجلات على الحجارة في الأرض يُعْلِمني أننا على طريق طوبي، وفي أحيان أخرى كان الطريق الناعم وعدم صدور أي صوت للعجلات يخبرني أننا على طريق أسفلتي. لكن فيما عدا هذه الإشارة من تغير الصوت بين الطرق لم تكن لدي أي فكرة عن مكاننا. كانت الساعة السابعة والربع عندما خرجنا من شارع بول مول، وأشارت ساعتي إلى التاسعة إلا عشر دقائق عندما توقفت العربة أخيرًا. أنزل رفيقي زجاج نافذة السيارة المُغطى بالورق المعتم، واستطعت أن ألمح بابًا قصيرًا مقوسًا يشتعل فوقه مصباح. وعندما دُفِعتُ من العربة فُتح الباب، ووجدت نفسي داخل المنزل، واستطعت أن أرى رؤية مشوشة بعض الأشجار والمروج إلى جانبي قبل أن أدخل إلى المنزل. أما ما إذا كانت تلك أراضي خاصة أو منطقة ريفية مفتوحة للمنفعة العامة، فهذا أمر أصعب من أن أتجرأ على قول أي شيء فيه.

كان في الداخل مصباح غاز ملون، إضاءته ضعيفة جدًّا، حتى إنني لم أستطِع رؤية أي شيء، ما عدا أن الصالة كانت واسعة ومعلق بها الكثير من الصور. في هذا الضوء الخافت استطعت أن أرى أن الرجل الذي فتح الباب كان في منتصف عمره، ضئيلًا غليظ الهيئة له كتفان ضخمتان. وعندما استدار نحونا عرفت من انعكاس الضوء أنه يرتدي نظارة. وسأل:

– هل هذا هو السيد ميلاس يا هارولد؟

– أجل.

– أحسنت، أحسنت! ليست لدينا نية لأي عمل شرير يا سيد ميلاس، أو هكذا أتمنى، لكننا لن نستطيع أن نكمل مهمتنا دونك. إذا تعاملت معنا معاملة حسنة فلن نؤذيك، أما إذا حاولت خداعنا فادعُ الله أن يرفق بك.

كان يتحدث بتوتر، يقذف جملة وراء جملة في تشنج، وأخذ يضحك ضحكات قصيرة متقطعة وهو يتحدث، لكنه مع ذلك أخافني أكثر من الرجل الأول.

سألته:

– ماذا تريدون مني؟

– نريدك فقط أن تسأل بضع أسئلة لرجل يوناني طيب في ضيافتنا، وأن تخبرنا بردوده، ولكن لا تقل أي شيء أكثر مما نقول وإلا...

وهنا قطع كلامه بتلك الضحكة الموترة مرةً أخرى.

– ستكره اليوم الذي وُلدت فيه.

بينما كان يتحدث أرشدني إلى غرفة تبدو أنها مجهزة بأغلى أنواع الأثاث، يضيئها مصباح واحد نصف مشتعل. غرفة واسعة، ومن الطريقة التي غاصت بها قدمي في السجادة علمت أنها غالية. لمحت كرسيًا أحمر، ومدفأة كبيرة محاطة برخام أبيض، وهناك زي لمحارب ياباني في ناحية من الغرفة، كان هناك كرسي تحت المصباح مباشرةً، أخبرني الرجل الأكبر سنًّا أن عليَّ الجلوس فيه. تركَنَا الأصغر وخرج من بابٍ لكنه عاد بعد قليل من باب آخر وهو يقود رجلًا محترمًا عليه ملابس نوم واسعة يتحرك ببطء نحونا. وعندما تقدم إلى دائرة الضوء الخافت التي مكنتني من رؤيته بوضوح أكثر.. ذهلت في رعب من مظهره؛ كان جلده شاحبًا للغاية وهزيلًا هزالًا مروعًا، يبدو من عينيه اللامعتين أن روحه أقوى من جسده. لكن ما صعقني أكثر من ضعفه الجسدي أن وجهه كان مغطى بشريط لاصق بشع المنظر متقاطع طوليًّا وعرضيًّا، وأن الجزء الأعظم منه كان مثبتًا على فمه.

صاح الرجل الكبير في حين كان ذلك الغريب يجلس على الكرسي، أو بالأحرى يقع عليه:

– هل أحضرت السبورة يا هارولد؟ هل فككت قيد يديه؟ الآن إذن أعطِه قلمًا. عليك أن تسأله الأسئلة التي سأمليها عليك يا سيد ميلاس، وهو سيكتب لك الإجابات.

– اسأله في البداية إذا كان مستعدًّا ليوقع الورق.

وهنا انطلق شرار من عين الرجل، وكتب على السبورة: «أبدًا».

سألته بناءً على طلب خاطفنا:

– هل تشترط شيئًا؟

– فقط إذا تزوَّجها قس يوناني معين أعرفه وفي حضوري.

ضحك الرجل ضحكته الشريرة وقال:

– أنت تعرف ماذا ينتظرك إذن.

– أنا لا أبالي ماذا يحل بي.

هذه عينة من الأسئلة والأجوبة في محادثتنا التي كانت نصف منطوقة ونصف مكتوبة. مرارًا سألته إذا كان سيستجيب ويوقع العقود، وفي كل مرة كان يعطي الإجابة الساخطة نفسها. ثم خطرت ببالي فكرة سعيدة؛ بدأت أضيف جملًا قصيرة بعد كل سؤال، جملًا بريئة في البداية لأرى ما إذا كان أي من رفيقيَّ يفهم أي شيء مما أقول، وعندما لم أجد أي استجابة منهما بدأت ألعب لعبة أكثر خطرًا. دارت محادثتنا تقريبًا كما يلي:

– لن يفيدك هذا العناد. من أنت؟

– أنا لا أبالي. أنا غريب عن لندن.

– ستكون عاقبة الأمر في النهاية على رأسك. منذ متى وأنت هنا؟

– فليكن ما يكون. ثلاثة أسابيع.

– لن تكون الأرض ملكك أبدًا. ما سبب مرضك؟

– ولن تكون من نصيب الأشرار. إنهم لا يطعمونني.

– سنحررك إذا وقَّعت. أين نحن؟

– لن أوقع أبدًا. لا أعلم.

– أنت لا تفيدها على الإطلاق. ما اسمك؟

– دعني أسمعها تقول ذلك. كراتيدس.

– يمكنك أن تراها إذا وقَّعت. من أين أنت؟

– إذن لن أراها أبدًا. أثينا.

خمس دقائق أخرى يا سيد هولمز وكنت سأستخرج منه القصة كلها تحت أعينهم. حتى سؤالي التالي فقط كان يمكنه أن يوضح كل شيء، لكن في تلك اللحظة فُتح الباب ودخلت امرأة إلى الغرفة، لم أستطع أن أراها بوضوح كافٍ لأعرف أكثر من أنها كانت طويلة ورشيقة، شعرها أسود وترتدي فستانًا أبيض. قالت متحدثةً بالإنجليزية لكن بلكنة غير متماسكة:

– هارولد، لم أستطع أن أبقى في الأعلى وحدي مع... يا إلهي! هذا بول!

كانت كلماتها الأخيرة باليونانية. وفي اللحظة نفسها قطع الرجل الشريط اللاصق عن شفتيه بعد مجهود شاق وأخذ يصرخ:

– صوفيا! صوفيا!

وهُرع بين ذراعيها. لكن لم يدم عناقهما إلا لحظة واحدة، لأن الرجل الأصغر أمسك بالمرأة ودفعها خارج الغرفة، والأكبر استطاع بسهولة أن يسيطر على الضحية الهزيل، وجرَّه بعيدًا خارجًا من الباب الآخر.

تركوني وحدي في الغرفة للحظة واحدة، نهضت بسرعة محاولًا بأي طريقة أن أجد أي دليل يساعدني في معرفة ما هذا المنزل الذي وجدت نفسي فيه. ولحسن حظي، على الرغم من ذلك، لم آخذ أي

خطوات من مكاني لأنني عندما نظرت إلى أعلى استطعت أن أرى أن الرجل الأكبر كان يقف في الممر المقابل للباب مثبتًا عينيه عليَّ. وقال:

– هذا يكفي يا سيد ميلاس، يمكنك أن ترى أننا وثقنا بك وأطلعناك على بعض الأمور شديدة الخصوصية. لم نكن لنزعجك، لولا أن صديقنا اليوناني الذي بدأ معنا هذه المفاوضات اضطر إلى السفر شرقًا في أمر طارئ. كان ضروريًا جدًّا بالنسبة إلينا أن نجد أحدًا يحل محله، وكنا محظوظين عندما عرفنا بقدراتك.

فانحنيت له، فأكمل هو في حين كان يقترب مني:

– توجد خمس قطع ذهبية هنا، آمل أن يكون هذا أجرًا كافيًا، لكن تذكّر...

وهنا لكزني في صدري ضاحكًا قبل أن يكمل:

– إذا تحدثت عن هذا الأمر إلى أي مخلوق... تذكر، شخص واحد فقط... حسنًا، فليرحمك الله.

لا يمكنني إخبارك عن مقدار البغض والرعب الذي بعثه في نفسي هذا الرجل الضئيل. كنت أراه بوضوح أكثر حينها، لأن ضوء المصباح كان يسطع عليه، ملامحه شاحبة ينضح منها عرق خفيف، ولحيته الصغيرة المدببة مشعثة ويبدو عليها عدم الاهتمام. كان يدفع وجهه للأمام عندما يتكلم وعيناه وشفتاه ترتعشان باستمرار وكأنه مصاب برقاص القديس فيتوس[8]. لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في أن ضحكته الغريبة اللافتة كانت هي الأخرى عَرَضًا لمرض عصبي آخر. مع ذلك فالترويع الذي يوحي به وجهه يكمن في عينيه، رماديتان كالحديد، وتلمعان من الأعماق بقسوة خبيثة لا رحمة فيها.

قال:

– سنعلم إذا تحدثت لأحد عن الأمر. لدينا طرقنا في الحصول على المعلومات. والآن ستجد العربة في الخارج في انتظارك وصديقي سوف يرسلك في طريقك.

ودُفعتُ من الصالة إلى العربة مجددًا لامحًا تلك الأشجار والمروج من حولي. تبعني السيد لاتيمر عن قرب، وجلس في مكانه في الناحية المقابلة من العربة دون أن ينطق بأي كلمة. ومرة أخرى تحركنا في صمت في تلك العربة لمسافة لا نهاية لها، وكانت النوافذ موصدة حتى توقفت العربة في النهاية بعد منتصف الليل بدقائق قليلة. وقال رفيقي:

– ستنزل هنا يا سيد ميلاس. يؤسفني أن أتركك هنا بعيدًا عن منزلك، لكن ليس لديَّ خِيار آخر، وأي محاولة منك لتتبع العربة ستنتهي فقط بإصابتك.

فتح العربة في حين كان يقول لي هذا الكلام، وبالكاد خرجت من العربة قبل أن يضرب السائس الحصان وينطلق بالعربة. نظرت حولي في دهشة، فقد كنت في أحد المروج العامة في مكان تنتشر فيه شجيرات شائكة. وفي الأفق تمكنت من رؤية صف من المنازل، بها بعض النوافذ مضاءة في الأدوار العلوية هنا وهناك، وفي الناحية الأخرى رأيت إضاءة القطار الحمراء.

كانت العربة التي أحضرتني قد ابتعدت خارج نطاق رؤيتي بالفعل. ظللت واقفًا مكاني أحدق حولي وأتساءل أين أنا. عندها رأيت أحدهم يقترب نحوي من الظلام، وبينما هو يقترب استطعت أن أتبين أنه حارس سكة الحديد القريبة تلك، فسألته:

- هل يمكنك أن تخبرني ما هذا المكان؟

فرد عليّ قائلًا:

- في حديقة واندسورث.

- أيمكنني أن آخذ القطار إلى المدينة من هنا؟

- يمكنك إذا سرت نحو ميل إلى مفترق كلافمان، إذا تحركت الآن فستصل في موعد آخر قطار سيتحرك إلى محطة فيكتوريا.

وكانت هذه نهاية مغامرتي يا سيد هولمز. لا أعرف أين كنت ولا إلى من تحدثت، ولا أي شيءٍ إلا ما قلتُه لك. لكني أعرف أن جريمةً ما تحدث وأريد أن أساعد ذلك الرجل التعيس إذا أمكنني، وقد أخبرت السيد مايكروفت بالقصة كلها في الصباح التالي ثم أخبرتها للشرطة.

جلسنا جميعًا في صمت بعد الاستماع إلى هذه الرواية العجيبة، ثم نظر شيرلوك إلى أخيه وسأله:

- أي خطوات؟

التقط مايكروفت الجريدة اليومية التي كانت ملقاة على الطاولة الجانبية وقرأ منها:

«أي شخص يمكنه تقديم أي معلومات عن مكان وجود رجل يوناني يُدعى بول كراتيدس، من أثينا، ولا يستطيع تحدث الإنجليزية، سيحصل على جائزة. وسيحصل على جائزة مماثلة أي شخص يمكنه تقديم أي معلومات عن امرأة يونانية تُدعى صوفيا».

ثم علق قائلًا:

- نشرنا هذا في جميع الصحف اليومية ولم نحصل على أي رد.

- وماذا عن المفوضية اليونانية؟

- سألتهم، لا يعرفون أي شيء.

- وهل أرسلتم برقية إلى شرطة أثينا إذن؟

- شيرلوك ورث نصيب العائلة كلها من الطاقة.

التفت إلى مايكروفت وهو يعلق هذا التعليق قبل أن يرد قائلًا:

- حسنًا، تولَّ أنت القضية وأعلمني إذا وصلت إلى أي شيء.

- بالطبع.

قام صديقي على الفور من كرسيه وقال:

- سأخبركم إذا توصلت إلى شيء. وأيضًا، يا سيد ميلاس، لو كنتُ مكانك فسوف آخذ كل احتياطاتي لأنهم بالطبع قد علموا من الإعلانات أنك قد خنتهم.

وفي طريق عودتنا إلى المنزل توقفنا عند مكتب البريد، وأرسل هولمز عدة برقيات. وفي أثناء سيرنا مجددًا قال لي:

– هل رأيت يا واتسون؟ لم تكن ليلتنا مهدرة إطلاقًا. بعض من القضايا الأكثر إثارة جاءتني عن طريق مايكروفت. فهذه القضية التي سمعناها للتو على سبيل المثال على الرغم من أنها ليس لها إلا تفسير واحد، فهي في الحقيقة بها بعض الخصائص المميزة.

– لديك أمل أن تحلها؟

– حسنًا، بعد كل ما عرفناه، سيكون غريبًا فعلًا إذا فشلنا في اكتشاف بقية التفاصيل. لا بد أنك أنت أيضًا قد كوَّنتَ نظرية يمكنها تفسير ما استمعنا إليه.

– بشكل مبهم، نعم.

– ما فكرتك إذن؟

– بدا لي أن تلك الفتاة اليونانية خرجت من موطنها مع الرجل الإنجليزي المدعو هارولد لاتيمر.

– وأين موطنها؟

– أثينا على ما أظن.

هز هولمز رأسه قائلًا:

– هذا الرجل لا يمكنه أن يتحدث كلمةً واحدة من اليونانية، أما المرأة فكانت تتكلم إنجليزية معقولة، فالاستنتاج إذن؛ أنها كانت في إنجلترا قبل ذلك ببعض الوقت، لكنه هو لم يذهب إلى اليونان من قبل.

– حسنًا إذن، سنفترض إذن أنها جاءت لزيارة إنجلترا، وأن ذلك المدعو هارولد أقنعها أن تهرب معه.

– هذا محتمل أكثر.

– ثم جاء أخوها –أظن أن هذه هي العلاقة بينهما– من اليونان ليضع نفسه بِطَيْش تحت سطوة ذلك الشاب وشريكه الأكبر منه، فيختطفانه ويجبرانه على توقيع بعض المستندات للتخلي عن ثروة الفتاة –التي يمكن أن يكون هو الوصي عليها– لهما، فيرفض فعل ذلك. وللتفاوض معه فهما بحاجة إلى مترجم، كما أخبرا السيد ميلاس أنهما كانا يستعينان بواحد من قبل، ولم تكن الفتاة قد أُخبِرَت بقدوم أخيها وتكتشف ذلك بالصدفة المحضة.

فصاح هولمز:

– ممتاز يا واتسون! أنا حقًّا لا أظنك بعيدًا عن الحقيقة، يمكنك أن ترى أننا نملك كل الأوراق الآن، ولا نخشى من ناحيتهم إلا أن يتصرفوا تصرفًا عنيفًا تجاه رفيقنا، إذا أخذنا بعض الوقت فسوف نمسك بهم.

– لكن كيف يمكننا أن نعرف أين يقع ذلك المنزل؟

– حسنًا، إذا كانت نظريتنا صحيحة فإن اسم الفتاة هو صوفيا كراتيدس، فلن نجد أي صعوبة في تعقبها، هذا ما يمكن أن نعلق عليه آمالنا، لأن أخاها بالطبع غريب تمامًا عن هنا. من الواضح أن ذلك المدعو هارولد على علاقة مع الفتاة منذ مدة، يمكن أن تكون بضعة أسابيع على الأقل، لأن الأخ في اليونان

كان لديه وقت كافٍ ليعرف بالموضوع ويسافر إلى هنا. إذا كانا يعيشان في المكان نفسه في هذه المدة.. فمن الممكن أن نحصل على إجابة ما لإعلان مايكروفت.

كنا قد وصلنا إلى منزلنا في شارع بيكر في حين كنا نتكلم في ذلك الأمر. صعد هولمز السلالم أولًا، وعند فتحه باب المنزل عاد إلى الخلف في دهشة. عندما نظرت فوق كتفه إلى داخل الغرفة اندهشت أنا أيضًا لِما رأيت. كان أخوه مايكروفت جالسًا في الغرفة يدخن. قال لنا بطريقة مهذبة:

– تفضلا! تفضل يا هولمز، تفضل يا سيدي. أنت لا تتوقع مثل هذا الحماس مني، أليس كذلك يا هولمز؟ لكن لسبب ما هذه القضية تجذبني.

– كيف جئت إلى هنا؟

– لقد اجتزتُكم في سيارة أُجرة.

– هل توجد تطورات في القضية؟

– أحدهم أجاب عن إعلاني.

– حقًّا؟!

– أجل، لقد جاء بعد دقائق من مغادرتكم.

– وماذا قدَّم؟

أخرج مايكروفت هولمز ورقة من جيبه وأعطاها إلى هولمز قائلًا:

– ها هي، مكتوبة بقلم فاخر على ورق ملكي بواسطة رجل في منتصف عمره ضعيف البنية. كتب فيها:

«سيدي..

ردًّا على إعلانكم في جريدة اليوم، أود أن أخبرك أنني

أعرف السيدة التي ذكرتها معرفة جيدة.

إذا كنت ترغب في التواصل معي يمكنني أن أخبرك بكل التفاصيل

عن ماضيها المؤلم. هي تعيش الآن في بيت مارتلز في حي بيكنهام.

بكل الإخلاص

ج. ديفنبورت».

واستكمل مايكروفت هولمز:

– أرسلها من بريكستون. هل تظن أن بإمكاننا أن نذهب إليه الآن يا شيرلوك ونعرف منه هذه التفاصيل؟

– عزيزي مايكروفت، حياة الأخ أهم من قصة حياة الأخت. أظن أن علينا أن نستدعي المفتش جريجسون من سكوتلاند يارد ونذهب إلى بيكنهام، فنحن نعلم أنه يوجد رجل سيلقى حتفه على يد هؤلاء، وكل ساعة مهمة الآن.

فاقترحتُ عليهم قائلًا:

– من الأفضل إذن أن نأخذ السيد ميلاس معنا في طريقنا، يمكن أن نحتاج إلى مترجم.

فقال هولمز:

– فكرة ممتازة. أَرسِل الفتى ليحضر لنا عربة بأربع عجلات، وسننطلق فيها مباشرةً.

بينما كان يقول ذلك لاحظت أنه فتح دُرج الطاولة وأخذ مسدسه في جيبه، وعندما لاحظ نظراتي، رد عليها قائلًا:

– نعم، يمكننا أن نقول مما سمعناه أننا نتعامل مع عصابة خطِرة.

كان الظلام قد حلَّ تقريبًا عندما وصلنا إلى بول مول. وعندما وصلنا إلى المسكن الذي يعيش فيه السيد ميلاس.. علمنا أن رجلًا جاء في طلبه وأنه قد ذهب معه للتو، فسأل مايكروفت السيدة التي فتحت لنا باب منزله:

– أيمكنكِ إخبارنا إلى أين؟

– لا أعرف يا سيدي، كل ما أعرفه أنه ركب مع ذلك الرجل المحترم في عربة خاصة.

– هل أخبركِ الرجل باسمه؟

– لا يا سيدي.

– أكان طويلًا وأسمرَ ووسيمًا؟

– لا يا سيدي، لقد كان رجلًا قصيرًا يرتدي نظارة، وجهه رفيع، لكنه كان مهذبًا للغاية، فقد كان يضحك طوال حديثه.

فصاح شيرلوك هولمز فجأة:

– هيا بنا! لقد صار الأمر جادًّا!

وبينما كنا في طريقنا إلى سكوتلاند يارد أخبرنا بملاحظاته:

– لقد أمسك هؤلاء الرجال بميلاس مرةً أخرى، وهو لن يقاومهم أبدًا إذا لجؤوا إلى العنف، وهم يعلمون ذلك من تعاملهم معه في الليلة الأخيرة. ذلك الشرير كان قادرًا على إرهابه في اللحظة التي حضر إليه فيها، لا شك أنهم يريدون الاستفادة من خدماته، لكن حين يفرغون منه فربما يرغبون في معاقبته على ما سيعدّونه خيانةً لهم.

كان أملنا أننا إذا أخذنا القطار يمكننا أن نصل إلى بيكنهام في الوقت نفسه الذي ستصل فيه العربة أو أسرع. لكن عندما وصلنا إلى سكوتلاند يارد كان الأمر سيستغرق أكثر من ساعة لكي نتحدث مع المفتش جريجرسون ونقوم بكل الإجراءات الرسمية التي ستمكننا من اقتحام المنزل. كانت الساعة العاشرة إلا ربعًا عندما وصلنا إلى جسر لندن، وصارت العاشرة والنصف عندما نزلنا نحن الأربعة من القطار إلى رصيف بيكنهام. ركبنا عربة لمدة نصف ساعة إلى بيت مارلز، كان منزلًا كبيرًا مظلمًا مبنيًّا في حديقة خاصة به. نزلنا من سيارة الأجرة، وأكملنا طريقنا إلى المنزل معًا. علَّق المفتش:

– كل النوافذ مظلمة، يبدو المنزل مهجورًا.

قال هولمز:

– هجرته العصافير؛ العش خاوٍ.

– لماذا تقول ذلك؟

– تحركت عربة خاصة محملة بالكثير من الأمتعة من هنا خلال الساعة الماضية.

ضحك المفتش وقال:

– حسنًا، لقد رأيت آثار العربة في ضوء مصباح المدخل، لكن من أين جئت بالأمتعة؟

– يمكن أن تكون قد لاحظت آثار العربة وهي تذهب في الناحية الأخرى، لكن الآثار الخارجة من المنزل أعمق بكثير من تلك الذاهبة إليه؛ ما يعني أن العربة كانت محملة بثقل معتبر.

فقال المفتش وهو يهز كتفيه:

– تفوقت عليَّ بهذه الملاحظة. لن يكون من السهل فتح هذا الباب بالقوة، لكننا سنضطر إلى فعل ذلك إذا لم يسمعنا أحد.

طرق المفتش مقرعة الباب بقوة وشد الجرس أيضًا، لكن لم يرد علينا أي أحد. انسلخ هولمز من بيننا ثم عاد بعد دقائق قليلة وقال لنا:

– لقد وجدت نافذة مفتوحة.

وعندما وصلنا إلى النافذة، لاحظ المفتش الطريقة الذكية التي فتح بها هولمز النافذة، فعلَّق قبل أن ندخل:

– إن من رحمة الإله أنك تعمل مع رجال الشرطة لا ضدهم يا سيد هولمز.

ثم استكمل:

– حسنًا، أظن أن في مثل هذه الظروف يمكننا أن ندخل دون دعوة.

واحدًا تلو الآخر دخلنا جميعًا إلى شقة كبيرة، كانت بلا شك المكان نفسه الذي زاره السيد ميلاس من قبل. أضاء المفتش مصباحه واستطعنا أن نرى على ضوئه البابين والستارة والمصباح وزي المحارب الياباني كما وصفهم، وعلى الطاولة كان هناك كوبان وزجاجة كونياك وبقايا الطعام.

سأل هولمز فجأة:

– ما هذا؟

وقفنا جميعًا بلا حركة واستمعنا بإنصات. كان صوت أنين يأتي من مكان ما فوق رؤوسنا. أسرع هولمز من الباب إلى الصالة، كان الأنين المحزن يأتي من أعلى الدرج. اندفع هولمز إلى الأعلى بسرعة، وكنت أنا والمفتش خلفه تمامًا، ولحق بنا مايكروفت بأقصى سرعة استطاع أن يتحرك بها بجسده الضخم.

كان في الطابق الثاني ثلاثة أبواب، ومن أوسطها خرجت تلك الأصوات المشؤومة. تنخفض أحيانًا إلى همهمات فاترة وتعلو أحيانًا إلى أنين حاد. الباب كان مغلقًا، لكن المفتاح متروك في الناحية الخارجية من الباب. دفع هولمز الباب وأسرع إلى الداخل، لكنه خرج مجددًا بعد لحظة، ويده ملتفة حول حلقه وصرخ:

– إنه فحم! انتظروا قليلًا حتى يقل الدخان.

اختلسنا نظرة إلى الداخل فرأينا أن الضوء الوحيد الموجود في الغرفة من شعلة زرقاء خافتة، تومض في منتصف موقد صغير نحاسي، يقف وسط الغرفة، يصنع دائرةً من الضوء على الأرض من حوله، شعلة مستعرة وغير طبيعية. وفي الظل خارج هذه الدائرة استطعنا رؤية خيال خفيف غير واضح لشخصين مُتكوِّمين على الأرض وملتصقين بالحائط. انبعثت من الباب عوادم فظيعة وسامة جعلتنا جميعًا نشهق ونسعل. أسرع هولمز إلى أعلى السلالم كي يستنشق هواءً نقيًّا، ثم اندفع إلى الغرفة وكسر النافذة ورمى الموقد إلى الحديقة، ثم خرج مندفعًا وقال وهو يشهق:

– يمكننا الدخول خلال دقيقة. أين الشمعة؟ لا أظن أن الشعلة ستظل متقدة في مثل ذلك الجو، أمسك بها هنا، وسندخل لإحضار الرجلين الآن، يا مايكروفت.

دخلنا مسرعين لإحضار الرجلين المسمومين وسحبناهما إلى الخارج ثم إلى الصالة المضاءة جيدًا. كانا فاقدَين للوعي، وشفاههما زرقاء، ووجهاهما متورمين ومحتقنين، وعيونهما جاحظتين. في الحقيقة كانت ملامحهما مشوهة تمامًا، لدرجة أننا لولا اللحية السوداء والجسد البدين لما استطعنا أن نميز أن أحد الرجلين هو المترجم اليوناني الذي فارقنا منذ ساعات عند نادي الديوجينس، يداه وقدماه مربوطتان كلٌّ منهما بالأخرى بإحكام، وإحدى عينيه عليها علامة ضربة عنيفة. أما الآخر –الذي كان مكتفًا بطريقة مماثلة– فكان رجلًا طويلًا في مرحلة متقدمة من المجاعة، وعلى وجهه علامات متقاطعة خلَّفها شريط لاصق. كفَّ عن الأنين عندما سحبناه للأسفل، وبنظرة إليه أدركتُ أن –في حالته هو على الأقل– المساعدة كانت متأخرةً أكثر مما ينبغي. أما السيد ميلاس فكان لا يزال على قيد الحياة، وفي أقل من ساعة بمساعدة القليل من النشادر والكونياك كان من حسن حظي أني شهدت عينيه تنفتحان من جديد، وكان من دواعي سروري أن أعلم أن يديَّ ساعدتاه في الرجوع من الوادي المظلم الذي تنتهي إليه كل الطرق.

كانت قصته هذه المرة بسيطة وتتوافق مع استنتاجاتنا. عندما دخل زائره غرفته وأخرج له سكينًا من جيبه وهدده، فألقى الذعر في نفسه من الموت الحتمي، واختطفه للمرة الثانية. من المثير للتأمل في الحقيقة حجم الأثر الذي كان لضحكة الرجل على اللغوي المسكين، فهو لم يستطع الكلام عنه ثانية إلا بيدين ترتجفان وخدَّين محمرَين. أخذه بسرعة إلى بيكنهام وقام بالترجمة في مقابلة ثانية كانت أكثر ملحمية من سابقتها. هدده فيها الرجلان الإنجليزيان بالقتل الفوري إذا لم يستجب لأوامرهما. وفي النهاية بعد أن وجدا أن كل التهديدات لا تنجح معه أعاداه إلى سجنه، وبعد مواجهة ميلاس بخيانته التي عرفاها من إعلان الجريدة، ضرباه ضربة عنيفة بعصا غليظة. وكان لا يتذكر أي شيء آخر حتى أفاق ليجدنا منحنين أمامه.

وكانت هذه هي قضية المترجم اليوناني التي ما زال تفسيرها محفوفًا بالكثير من الغموض. استطعنا أن نعرف، بالتواصل مع الرجل الطيب الذي رد على الإعلان، أن الفتاة اليونانية سيئة الحظ من عائلة يونانية ثرية، وأنها كانت تزور بعض أصدقائها في إنجلترا. وبينما كانت هناك إذ قابلت شابًّا يُدعى هارولد لاتيمر، استطاع أن يهيمن عليها ويقنعها أن تهرب معه. صدم أصدقاؤها بالأمر لكنهم أرضوا

ضمائرهم بمراسلة أخيها في أثينا وإخباره بالأمر، ثم تبرؤوا من الموضوع تمامًا بعد ذلك. وعندما وصل الأخ إلى إنجلترا وضع نفسه تحت سطوة لاتيمر ومعاونه المدعو ويلسون كيمب، رجل له أقذر أنواع السوابق. وجد الاثنان أن الرجل الغريب ليس لديه أي حول في البلد لجهله بلغته، فسجناه لديهما، وهدداه بالقوة والتجويع ليوقع لهما ممتلكاته وممتلكات أخته. أبقياه في المنزل دون علم الفتاة، وكان الشريط اللاصق على وجهه ليجعل تعرفها عليه صعبًا في حال رؤيتها له في أي ظرف. لكن رؤيتها الأنثوية -على الرغم من محاولاتهما- استطاعت أن تتعرف عليه من خلال الشريط اللاصق مباشرةً عندما وقعت عيناها عليه للمرة الأولى، عندما كان المترجم هنا أول مرة.

كانت الفتاة المسكينة نفسها سجينة هنا، فلم يكن هناك أي أحد في الجوار، ما عدا الرجل الذي يعمل سائقًا للعربة وزوجته، وكان كلاهما أدوات في أيدي المتآمرين. وعندما علما أن سرهما قد انكشف وأن الرجل لا يرجى منه أن يطاوعهما، هربا مع الفتاة في غضون ساعات من المنزل الذي كانا قد استأجراه، بعد أن ظنا أنهما انتقما من الرجلين، الأول الذي عصاهما والثاني الذي خانهما.

بعد عدة أشهر تواصلت معنا جريدة مثيرة من بودا بيست، أخبرتنا كيف انتهت حياة رجلين إنجليزيين، كانا يسافران مع فتاة، بنهاية مؤسفة. طُعن الاثنان، وتظن الشرطة المَجَرية أنهما تعاركا، وأنهما طعنا بعضهما طعنات أودت بحياتهما. لكن هولمز -على ما أظن- له رأي مختلف حتى يومنا هذا، ويظن أننا إذا وجدنا الفتاة اليونانية فإننا سنعرف كيف انتُقِم لها ولأخيها من هذين الرجلين.

رقاص سيدنهام، هو مرض يتميز بحركات سريعة غير متناسقة فجائية تؤثر في الوجه والقدمين واليدين بشكل أساسي، ويشار إليه تاريخيًّا باسم رقاص القديس فيتوس.

مغامرة المعاهدة البحرية

لم يكن أول صيف مر عليَّ بعد زواجي مباشرة عابرًا كغيره، فقد حظيت في أول شهر فيه بشرف ملازمة شيرلوك هولمز ودراسة طرقه. قد سجلت تلك القضايا في مذكراتي بالعناوين: «مغامرة البقعة الثانية» و«مغامرة المعاهدة البحرية» و «مغامرة القبطان المتعب». أولى هذه المدونات يستحيل أن تُنشر، على الأقل ليس في السنين القليلة القادمة، لأنها تُعنى بتفاصيل حساسة متعلقة بالأُسر الحاكمة في المملكة البريطانية، لكنها كانت أكثر القضايا التي أبرزت حدة ذكاء صديقي هولمز، وبيَّنت مدى قوة قدراته التحليلية. لقد أبهر الجميع بقدراته في هذه القضية أكثر من أي قضية أخرى. ما زلت أتذكر حتى الآن كل ما قاله بالحرف الواحد تقريبًا في المقابلة التي وضَّح فيها الحقائق والوقائع المتعلقة بالقضية للسيد دوبوك، ضابط الشرطة الفرنسية المسؤول عن القضية، والسيد المتخصص المشهور من دانتزج. وقد أظهرت نتائج هولمز أن كليهما أهدر جهده على نقاط فرعية.

لكن على أي حال، لن يمكن الإفصاح عن هذه القصة قبل أن ينصرم القرن الجاري. في هذه الأثناء، يمكننا أن نتناول النقطة الثانية في هذه القائمة، التي ما زال فيها ما يجعلها ذات أهمية دولية، إضافةً إلى أنها تتميز بالعديد من الوقائع التي تجعلها ذات طابع فريد.

خلال سنوات دراستي كان اسمي مرتبطًا دائمًا باسم فتى آخر يُدعى بيرسي فيليبس، الذي كان في عمري نفسه، ولكنه كان يسبقني بعامين دراسيين. كان فتى عبقريًّا، نال كل الجوائز المتاحة في المدرسة، وختم مشوار تألقه بحصوله على منحة دراسية في كامبردج، ليستكمل هناك مسيرة انتصاراته وتألقه، كانت لديه مجموعة من العلاقات الممتازة، حتى عندما كنا صبيانًا صغارًا كنا نعلم جميعًا أن خاله هو اللورد هولدهرست، السياسي المحافظ العظيم. لكن علاقته الباهرة تلك لم تنفعه كثيرًا في المدرسة، بل على العكس، جعلتنا نشعر بالإثارة والرغبة في مضايقته، كنّا نطارده عندما نلعب في باحة المدرسة ونضربه في ساقه بعصى الكريكت. لكن كل هذا تغير عندما خرج إلى العالم، فقد سمعت أن قدراته ونفوذه أكسباه مكانةً جيدةً في وزارة الخارجية. ومنذ ذلك الحين لم أتذكره بتاتًا حتى وصل إليَّ هذا الخطاب ليذكرني بوجوده:

«دار برياربري، ووكنج

عزيزي واتسون..

لا يراودني أي شك أنك تتذكر «الشرغوف»[9] فيليبس الذي كان في الصف الخامس عندما كنت أنت في الصف الثالث. من الممكن أيضًا أن تكون قد سمعت أنني تمكنت من الحصول على وظيفة جيدة بسبب نفوذ خالي. لقد كنت محل ثقة واحترام حتى وقعت فجأة مصيبة دمرت حياتي المهنية.

لن يفيد ذكر أي من تفاصيلها الشنيعة هنا. لكن في حال وافقتَ على طلبي فسوف يكون لديَّ السعة لأقص عليك كل التفاصيل. يجدر بي أيضًا أن أخبرك أن هذه الرسالة هي أول ما فعلتُ بعد أن تعافيت من حمى دماغية استمرت تسعةَ أسابيع، وما زلت ضعيفًا للغاية. هل تظن أن بإمكانك أن تُحضر معك السيد هولمز ليقابلني؟ أود بشدة أن أعرف رأيه في هذه الأحداث، على الرغم من أن السلطات تؤكد لي أنه لا يمكن فعل أكثر مما قاموا به بالفعل. أرجو أن تحاول إحضاره معك في أقرب وقت، فكل دقيقة تمرُّ عليَّ دهرًا وأنا في هذه الحالة من الترقب المروع. أخبره أنني حين لم أحاول التماس مساعدته في وقت

أقرب، لم يكن ذلك لعدم تقديري وثقتي بقدراته، ولكن لأنني كنت في غيبوبة منذ وقعت هذه الكارثة. أما الآن فأنا بخير من جديد، ولكنني لا أتجرأ على التفكير في الأمر طويلًا خوفًا من أن أنتكس. ما زالت قواي ضعيفة جدًّا لدرجة أنني لا يمكنني مراسلتك إلا إملاءً كما الحال الآن. حاول أن تحضره.

زميل المدرسة القديم

بيرسي فيليبس».

لمست الرسالة مشاعري في أثناء قراءتها، فقد كان في طلبه المتكرر لإحضار هولمز ما أثار شفقتي. لمستني كلماته لدرجة أن ذهبت إلى هولمز مباشرةً دون الترتيب لزيارته، وكنت أعرف أن هولمز يحب فنه، وأنه سيكون مستعدًّا لتقديم المساعدة في أي وقت يكون عميله مستعدًّا لتلقيها. وافقتني زوجتي يومها أن عليَّ ألا أضيع وقتًا قبل أن أعرض الأمر على هولمز، فتحركت إليه مباشرةً، وبعد ساعة واحدة من وقت الإفطار كنت هناك مجددًا، في الغرفة القديمة في شارع بيكر.

كان هولمز جالسًا إلى طاولته الجانبية مرتديًا رداءه المنزلي، يعمل بجد على عملية استكشافٍ كيميائي. وأمامه على الطاولة إناء معوج فيه سائل يغلي على لهب أزرق خارجٍ من موقد بنزين. والبخار المتصاعد يتكثف في إناء مدرج سعته لتران. لم يرفع صديقي عينيه عن تجربته حين دخلت إلى الغرفة، وأنا -مُلاحظًا أنها لا بد أن تكون تجربة مهمة- جلستُ على مقعده أنتظره حتى ينتهي. ثم مد يده إلى هذا الإناء وذاك، آخذًا بضع قطرات من المحلولين في سحاحته الزجاجية، ثم أخيرًا أحضر أنبوب اختبار فيه محلول آخر إلى الطاولة.

ثم أمسك في يده اليمنى بورقة عباد شمس وقال لي:

- لقد جئتَ في وقت وقوع كارثة يا واتسون. إذا بقيت هذه الورقة زرقاء فكل شيء على ما يرام، أما إذا تحولت إلى الأحمر فهذا يعني أن حياة رجل في خطر.

ثم وضع الورقة في المحلول فتحولت مباشرة إلى لون أرجواني شاحب سيئ، فصاح:

- هذا ما ظننته! سأكون في خدمتك في غضون لحظات يا واتسون. ستجد التبغ في النعل الفارسي.

اتجه إلى مكتبه وكتب بسرعة بعض البرقيات وسلمها إلى الخادم لإيصالها، ثم رما نفسه على الكرسي المقابل لي، ورفع ركبتيه إلى صدره حتى تشابكت أصابعه حول ساقيه الطويلتين الرفيعتين، ثم قال:

- جريمة قتل صغيرة مألوفة جدًّا.. أتصور أن لديك شيئًا أكبر من هذا، فأنت قبطان قطار الجرائم على ما يبدو. ماذا هناك؟

أعطيته الخطاب الذي قرأه بأشد تركيز وانتباه ثم أعاده إليَّ وهو يعلق قائلًا:

- إنه لا يخبرنا بالكثير، أليس كذلك؟

- لا يكاد يخبرنا بأي شيء.

- مع ذلك فالخط مثير.

- لكنه ليس خطه.

- بالضبط.. إنها امرأة.

فصحت:

– بل رجل بالتأكيد!

– لا.. بل امرأة، وذات طابع نادر أيضًا. أتعلم يا واتسون، من الجيد أن تعلم عند بداية تحرياتك أن عميلك على صلة بشخص ذي طبيعة غير عادية –سواء كان طيبًا أم شريرًا–، لقد أُثير اهتمامي للقضية بالفعل. إذا كنتَ مستعدًّا فهيا بنا نتحرك الآن إلى ووكنج، لنرى ذلك الدبلوماسي الذي تورط في هذه القضية الشريرة ونرى السيدة التي يختصها برسائله.

حالفنا الحظ واستطعنا أن نلحق بقطار مبكر منطلق إلى ووترلو، وفي أقل من ساعة وجدنا أنفسنا بين غابات التنوب وحشائش ووكنج. اتضح لنا أن دارَ برياربري دارٌ ضخمة منفصلة عن كل ما حولها، تقع في منتصف أرض واسعة على بعد بضع دقائق مشيًا على الأقدام من المحطة. وما إن أظهرنا بطاقاتنا على البوابة حتى استضافونا في غرفة استقبال غاية في الأناقة، وبعد دقائق معدودة استقبلنا رجل ممتلئ قليلًا بحفاوة كبيرة. كان عمره على الأرجح أقرب للأربعين منه إلى الثلاثين، لكن وجنتيه كانتا ورديتين للغاية، وعينيه كانتا مشرقتين لدرجة أنه كان –وهو في مثل عمره– يشعرك أنه ما زال طفلًا صغيرًا سمينًا مشاغبًا.

قال لنا وهو يسلم علينا بحرارة:

– أنا سعيد جدًّا بمجيئكما. لم يكُف بيرسي عن السؤال عنكما من أول اليوم. آه، ذلك الفتى المسكين الضعيف! طلب مني والداه أن أستقبلكما لأن الموضوع مؤلم جدًّا لهما، حتى بمجرد ذكره.

علق هولمز موضحًا:

– نحن لا نعرف أي تفاصيل بعد، وعلى ما يبدو، فأنت لست من أفراد الأسرة، أليس كذلك؟

بدت الدهشة على وجه صاحبنا الذي قابلناه للتو، ثم انفجر ضاحكًا وهو يرمي نظره للأرض، ثم قال:

– لقد رأيتَ حروف «ج هـ» محفورة على قلادتي بالطبع! لقد خدعتني للحظة وظننتُ أنك قمت بشيء بارع. أجل يا سيدي، أنا جون هاريسون، ولأن بيرسي على وشك أن يتزوج أختي آني.. فبيننا على الأقل قرابة نسب. ستجد أختي معه في الغرفة، فقد عملتْ على قدمٍ وساق لتقدم له كل الرعاية الممكنة خلال الشهرين الماضيين. ربما علينا أن نذهب إليهما فورًا، أنا أعرف كم هو قليل الصبر.

كانت الغرفة التي قادنا إليها في الطابق نفسه الذي كانت فيه غرفة الاستقبال، غرفة نصفها مجهز كغرفة جلوس ونصفها الآخر مجهز كغرفة نوم، الورد موزع توزيعًا بهيًّا في كل زاوية وكل ركن، وعلى الكنبة بجوار النافذة المفتوحة تمدد شاب شاحب وهزيل يتطبب بنسمات هواء الصيف المنعشة والروائح الغنية التي تحملها من الحديقة. قامت المرأة التي كانت تجلس بجواره عندما دخلنا وسألته:

– هل يجب أن أخرج يا بيرسي؟

فأمسك بيدها محاولًا أن يبقيها بجواره، ثم التفت إليَّ ورحَّب بي بحفاوة قائلًا:

– كيف حالك يا واتسون؟ لم أكن لأعرفك قط بهذا الشارب، وأتحداك أنك لم تكن لتعرفني أيضًا، وأظن أن هذا صديقك الشهير السيد شيرلوك هولمز؟

قدمتُ صديقي تقديمًا وجيزًا ثم جلسنا وخرج الشاب الممتلئ، لكن أخته ظلت ويدها في يد صاحبها المريض. كانت امرأة لافتة للأنظار، قصيرة وممتلئة قليلًا بمعايير الجمال التقليدية، إلا أنها تتمتع بعينين إيطاليتين واسعتين خضراوين وشعر أسود داكن غزير ومنسدل. نضارة بشرتها جعلت وجه صاحبها الأبيض يبدو منهكًا وشاحبًا أكثر لوضوح التباين.

اعتدل الرجل في جلسته ثم بدأ حديثه قائلًا:

– لن أُضيِّع وقتكما، سأدخل في الموضوع مباشرة دون مقدمات إضافية. لقد كنت رجلًا سعيدًا وناجحًا يا سيد هولمز، وكنت أستقبل ليلة زفافي عندما وقعت مصيبة شنيعة مفاجئة حطمت كل حياتي.

لقد كنت –وأظن أن واتسون أخبرك بالفعل– أعمل في وزارة الخارجية، وبمساعدة نفوذ خالي اللورد هولدهرست، وصلت في وقت قصير إلى منصب عالٍ. وعندما أصبح خالي وزيرًا للخارجية أوكل إليَّ بعض المهام التي تتطلب الكثير من الثقة، ولأنني كنت دائمًا أصل بها إلى نتائج مُرْضِية جعله ذلك –أخيرًا– يثق بقدراتي وبراعتي.

ومنذ نحو عشرة أسابيع، أو لأكون أكثر دقة، في الثالث والعشرين من شهر مايو، دعاني إلى غرفته الخاصة، وبعد أن أشاد بمجهوداتي الجيدة التي بذلتُها، أخبرني أنه سيرسلني في مهمة تحتاج إلى درجة كبيرة من الثقة.

وأخرج مخطوطة ورقية رمادية اللون من مكتبه وأشار إليها قائلًا:

– هذه الورقة هي المخطوطة الأصلية للمعاهدة السرية بين بريطانيا وإيطاليا التي –وللأسف الشديد– انتشرت عنها بعض الشائعات في الصحف الرسمية. سرّية هذه الأوراق وما تحتويه أمر في غاية الأهمية، فالسفارة الروسية أو الفرنسية مستعدتان لدفع أموالٍ طائلة للحصول على المعلومات الموجودة في هذه الأوراق. يجب ألّا تغادر مكتبي لتصويرهم إلا في الضرورة القصوى.

لديك مكتب في غرفة مكتبك؟

– نعم يا سيدي.

– خذها إذن وأغلق عليها مكتبك، وعليك أن تنتظر بعد مغادرة الجميع حتى تستطيع أن تصورها على مهلٍ دون أن نخشى أن يراها أحد. وبعد الانتهاء من التصوير أعد الصورة والنسخة الأصلية إلى مكتبك مرة أخرى وأغلقه عليهما، ثم أعطِهما لي في يدي غدًا صباحًا.

أخذتُ الأوراق و...

لم يكمل حتى قاطعه هولمز قائلًا:

– اعذرني، هل كنتما وحدكما طوال هذه المحادثة؟

– قطعًا.

– في غرفة كبيرة؟

– طولها وعرضها ثلاثون قدمًا.

– وكنت في الوسط؟

– نعم، تقريبًا في الوسط.

– وكنتما تتحدثان بصوت منخفض؟

– دائمًا ما يكون صوت خالي منخفضًا انخفاضًا ملحوظًا، وأنا لم أتكلم تقريبًا.

فقال له هولمز:

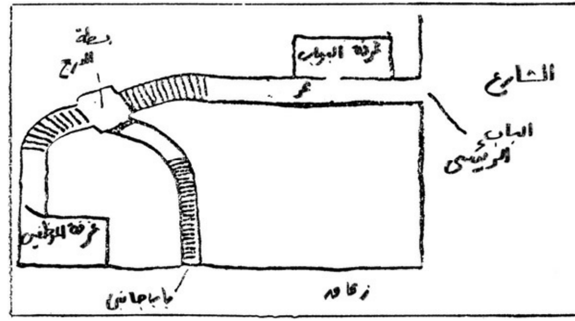
– شكرًا.

ثم أغمض عينيه وطلب منه أن يكمل.

– فعلت ما طلب مني بحذافيره، وانتظرت حتى غادر كل الموظفين. تشارلز جوروت واحد من الموظفين، كانت لديه بعض الأعمال المتأخرة التي كان عليه قضاؤها، وعندما عدت كان قد غادر. كنت حريصًا على أن أنهي عملي بسرعة؛ فقد كنت أعلم أن جوزيف –السيد الذي اصطحبكما إلى هنا منذ قليل– كان في المدينة، وأنه سيستقل قطار الحادية عشرة إلى ووكنج، وكنت أرغب في اللحاق به إذا أمكن الأمر. عندما فحصت المعاهدة، وجدتها حقًّا على قدر كبير من الأهمية، واتضح لي أن خالي لم يبالغ فيما قال. ودون الخوض في تفاصيل، يمكنني القول إنها كانت تحدد موقف بريطانيا العظمى من التحالف الثلاثي، وتُلمِّح إلى السياسات التي ستنتهجها في حال هيمنة الأسطول الفرنسي على نظيره الإيطالي في مياه البحر المتوسط. كانت كل الأمور التي تتناولها الوثيقة تخص الشؤون البحرية فقط. وكانت توقيعات المسؤولين رفيعي المستوى الذين وقعوها في ذيل الوثيقة. ألقيتُ نظرة سريعة على الوثيقة ثم هممت بطباعتها. الوثيقة كانت طويلة ومكتوبة باللغة الفرنسية، وبها ستٌّ وعشرون فقرة. نسختها بسرعة بقدر الإمكان، ولكن في تمام التاسعة كنت قد نسخت تسع فقرات فقط، وفقدتُ أي أمل في اللحاق بالقطار. كنت أشعر بالنعاس والبلادة، وذلك بسبب العشاء الذي تناولته وبسبب يومي الطويل في العمل. كوب من القهوة كان سيصفي ذهني، لذلك رننت جرس البواب الذي يبقى ليلًا في المبنى في غرفة في آخر السلم، فمن عادته أن يُعِدَّ القهوة في مثل ذلك الوقت على موقده، لأي موظف يعمل بعد الدوام الأساسي.

تفاجأت عندما حضرت امرأة أمامي لتجيب استدعائي، امرأة كبيرة في السن، ضخمة وفظة الملامح ترتدي مريلة. قالت لي إنها زوجة البواب، وإنها تعمل محله، فطلبت منها أن تعد لي القهوة.

كتبت فقرتين أخريين قبل أن أشعر بنعاس شديد لم أشعر بمثله من قبل، فنهضتُ وسرت في أنحاء الغرفة لأحرك قدميّ. لم تكن قهوتي قد وصلت بعد، وبدأت أتساءل عن سبب هذا التأخير، ففتحت الباب وبدأت أسير في الممر لأعرف ما الخطب. يوجد ممر مستقيم خافت الإضاءة، هو المخرج الوحيد من الغرفة التي أعمل بها، ينتهي ذلك الممر بدرج ينحرف باتجاه غرفة البواب الذي يقع في نهاية الممر السفلي في آخر الدرج. في حين توجد بسطة في منتصف ذلك السلم تفضي إلى ممر آخر يتعامد عليها. هذا الممر الأخير يقودك –بعد المرور بدرج آخر– إلى باب جانبي يستخدمه الخدم وأيضًا بعض الموظفين طريقًا مختصرًا عند القدوم من شارع تشارلز. ها هو رسم توضيحي للمكان:



فقال له شيرلوك هولمز:

– شكرًا.. أظن أنني أتصور ما تقوله جيدًا.

فاستكمل الرجل:

– من المهم للغاية أن تلاحظ هذه النقطة، لقد نزلت ذلك الدرج حتى وصلت إلى الممر، حيث وجدت البواب مستغرقًا في النوم في غرفته والإبريق يغلي بشدة على الموقد. فرفعت الإبريق وأطفأت الموقد فقد كان الماء ينسكب على الأرض، ثم وضعت الإبريق من يدي، وكنت على وشك أن أوقظ الرجل الذي يغط في نومه عندما رن جرس فوق رأسه بصوت عالٍ فاستيقظ الرجل مفزوعًا، وقال في دهشة:

– السيد فيليبس، سيدي!

– لقد أتيت لأرى ما إذا كانت قهوتي جاهزة.

– لقد كنت أنتظر غليان الإبريق عندما غفوت سيدي.

ثم نظر إليَّ وإلى الجرس الذي لم يهدأ بعدُ بدهشة متزايدة، وقال:

– إذا كنت أنت هنا يا سيدي، فمن الذي يدق الجرس؟

فصرخت في وجهه:

– الجرس! أي جرس؟!

– هذا جرس الغرفة التي كنت تعمل بها يا سيدي.

في تلك اللحظة شعرت بقبضة ثقيلة تعتصر قلبي. كان أحدهم في الغرفة إذن، حيث تركت الوثائق الثمينة ملقاة على المكتب. ركضت على الدرج واجتزت الممر في هلع شديد حتى وصلت إلى الغرفة. لم يكن في الممر أي أحد، يا سيد هولمز، ولا أي أحد في الغرفة، وكان كل شيء كما تركته تمامًا، كل شيء إلا الأوراق التي تُركت في عُهدتي، أُخِذت كلها عن المكتب. كانت النسخة في مكانها أيضًا، أما الأصول فقد اختفت.

اعتدل هولمز على كرسيه وفرك يديه. ولاحظتُ أن المسألة كانت تمامًا كما يهوى قلبه، ثم سأل بصوت خافت:

– وماذا فعلت حينها؟

فاستكمل الرجل:

– عرفت على الفور أن السارق لا بد أن يكون قد دخل من درَج الباب الجانبي وإلا لكنتُ قابلته.

– هل كنت على يقين أنه لم يكن مختبئًا في الغرفة كل هذا الوقت أو في الممر الذي وصفته منذ قليل بأنه خافت الإضاءة؟

– هذا مستحيل قطعًا! لا يمكن أن يختبئ فأر حتى في الغرفة أو في الممر. ليس هناك أي شيء للاختباء خلفه.

– شكرًا يا سيدي. أكمل من فضلك.

– كان البواب قد لحق بي إلى أعلى الدرَج عندما رأى على وجهي أن شيئًا ما يدعو إلى القلق. وعندها نزل كلانا الدرَج إلى الممر المؤدي إلى شارع تشارلز. كان الباب في نهاية الممر مغلقًا لكنه لم يكن مقفولًا بالمفتاح. شددنا الباب بسرعة وخرجنا على الفور. أستطيع أن أتذكر بوضوح أنني في تلك اللحظة سمعت ثلاث دقات من ساعة مجاورة؛ لقد كانت الساعة العاشرة إلا ربعًا.

فقال هولمز وهو يُدوِّن ملحوظة قصيرة:

– هذا أمر في غاية الأهمية.

– كانت ليلة مظلمة للغاية، وكان هناك مطر خفيف، ولم يكن في شارع تشارلز أي مشاة، لكن حركة المرور كانت كثيفة كعادتها في ساعة الذروة في وايت هول. أسرعنا مندفعين على امتداد الرصيف، كما كنا دون أي وقاية لرؤوسنا من المطر، حتى وجدنا شرطيًّا واقفًا في الزاوية البعيدة من الشارع.

فقلت وأنا ألهث:

– حادثة سرقة! لقد سُرقت وثيقة في غاية الأهمية من وزارة الخارجية. هل مر أي أحد من هذا الطريق؟

فردَّ الشرطي:

– أنا أقف هنا منذ ربع ساعة يا سيدي ولم يمر إلا شخص واحد خلال هذا الوقت؛ امرأة عجوز طويلة ترتدي شالًا منقوشًا بأنماط مميزة.

فردَّ البواب:

– آه، هذه زوجتي، ألم يمر أحد آخر؟

– لا أحد.

فصاح البواب:

– إذن لا بد أن السارق أخذ الطريق الآخر.

وشد ذراعي في عجل.

لكنني لم أقتنع، ومع محاولاته لإبعادي من هناك زادت شكوكي.

فصحت:

– أي طريق سلكت المرأة؟

– لا أعرف يا سيدي، لقد لاحظتها وهي تمر، لكن لم يكن ثمة ما يستدعي أن أراقبها، كانت تبدو على عجل.

– منذ متى حدث ذلك؟

– آه، من دقائق معدودة.

– منذ أقل من خمس دقائق؟

– حسنًا، لا يمكن أن يكون منذ أكثر من خمس دقائق.

فصاح البواب:

– أنت تُضيِّع وقتك يا سيدي، وكل دقيقة الآن في غاية الأهمية. ثق بي، ليس لامرأتي أي دخل بهذا الأمر، تعال معي للناحية الأخرى من الطريق. حسنًا، سأذهب أنا إن كنت ستظل أنت هنا.

ومن ثم أسرع في الاتجاه الآخر. لكنني تبِعته في غمضة عين وأمسكته من قميصه وسألته:

– ما عنوانك؟

فردَّ عليَّ:

– 16 شارع آيفي، بريكستون. لكن لا تترك نفسك تنجذب وراء أثر كاذب يا سيد فيليبس. تعال إلى الناحية الأخرى من الطريق ودعنا نرَ إن كنا سنجد أي شيء.

لم أكن سأخسر شيئًا باتباع نصيحته، فأسرعنا مع الشرطي إلى هناك، لكننا لم نصل إلى أي شيء، فقط المزيد من الحركة المرورية، والكثير من المارة مسرعين في كل ناحية ليصلوا إلى مكان يحتمون فيه من المطر. لم يكن هناك أي شخص جالس ليخبرنا مَن مر من هنا.

عندها ذهبنا إلى المكتب وبحثنا على الدَرَج وفي الممر بلا جدوى. الممر المؤدي إلى الغرفة كان مغطى بنوع من مشمع الأرضيات يميل إلى البياض ويسهل أن يرى عليه أي آثار أقدام، فحصناه بمنتهى العناية لكننا لم نجد أي أثر.

– هل كانت تمطر طوال الليل؟

– من نحو الساعة السابعة.

– كيف إذن لم تترك المرأة التي دخلت الغرفة الساعة التاسعة أي آثار بحذائها المتسخ؟

– أنا سعيد أنك أثرت هذه النقطة. لقد فكرت في هذا حينها، فمن المعتاد أن تترك الخادمات أحذيتهن في غرفة البواب ويرتدين حذاءً آخر في أثناء العمل.

– هذا واضح. لم يكن هناك أي أثر إذن، مع أن الليلة كانت ليلة ممطرة. هذا تسلسل مثير جدًّا للأحداث، أكمل من فضلك، ماذا حدث بعد ذلك؟

– فتشنا الغرفة أيضًا، لا يوجد ما يحتمل أن يكون بابًا سريًّا، والنافذتان على بعد نحو تسعة أمتار من الشارع، وكلاهما كان موصدًا من الداخل، والسجادة تمنع احتمال وجود أي مدخل سفلي، والسقف من النوع الأبيض العادي، لذلك فأنا أقسم أن من سرق الأوراق لا بد أن يكون قد دخل من الباب.

– ماذا عن المدخنة؟

– لا يوجد مداخن، يستخدمون مواقد تدفئة، وحبل الجرس يتدلى من السلك المعلق به على يمين مكتبي مباشرةً. ومهما كان من قام برن الجرس فلا بد أنه ذهب إلى المكتب لكي يفعل ذلك. ولكن لماذا

يمكن أن يفكر المجرم في رن الجرس؟ هذا لغز عجيب.

– إنها حادثة غير عادية بالتأكيد. ماذا فعلت بعدها؟ لعلك فحصت الغرفة، لترى ما إذا كان الدخيل قد ترك أي أثر؛ عقب سيجارة أو قفازًا أو دبوسًا مثلًا أو أي شيء صغير؟

– لم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل.

– ولا أي رائحة؟

– حسنًا، لم نفكر في هذا الأمر.

– آه، حتى رائحة تبغ كانت ستمثل الكثير لنا في مثل هذا التحقيق.

– أنا شخصيًّا لا أدخن، لذلك أظنني كنت سألاحظ رائحة الدخان لو كانت موجودة. لم يكن هناك أي أثر من أي نوع على الإطلاق. الحقيقة الوحيدة الموثوقة هي أن زوجة البواب –اسمها السيدة تانجي– خرجت مسرعة من المكان، وزوجها لم يعطِ أي تفسير، إلا أن ذلك الوقت هو الموعد الذي تذهب فيه دائمًا. وتوصلت أنا والشرطي إلى أنَّ أفضل خطة لدينا أن نلقي القبض على تلك المرأة قبل أن تستطيع التخلص من الأوراق في حال أنها كانت بحوزتها بالفعل. وبحلول ذلك الوقت كان الإنذار قد وصل إلى سكوتلاند يارد، وجاء السيد فوربز –المحقق– وتولى القضية بحماس شديد. استأجرنا عربة وخلال نصف ساعة كنا في العنوان الذي أُعطي لنا، فتحت لنا الباب شابة، اتضح أنها الابنة الكبرى للسيدة تانجي وكانت أمها لم تعد بعد، وأرشدتنا إلى الغرفة الأمامية لانتظارها. وبعد نحو عشر دقائق سمعنا دقات على الباب، وهنا ارتكبنا خطأً فادحًا –وأنا الملوم عليه–؛ بدلًا من أن نفتح نحن الباب بأنفسنا تركنا الفتاة تفعل ذلك. سمعناها تقول: «أمي، يوجد رجلان في المنزل بانتظارك». وفي اللحظة التالية سمعنا أصوات أقدام تهرول في الطرقة، فقمنا على الفور ودفع فوربز الباب وجرينا إلى الغرفة الخلفية أو المطبخ، لكن تلك المرأة كانت هناك قبلنا. نظرت إلينا نظرة تحدٍ وفجأة تعرَّفت عليَّ، فاعترى وجهها أشد تعبيرات الاندهاش وصرخت:

– لماذا؟ السيد فيليبس من الوزارة؟

فسألها رفيقي:

– تعالي هنا، مَن ظننتِنا إذن عندما هربتِ منّا؟

– ظننتكما السماسرة، هناك بعض المشكلات بيننا وبين التُّجار.

فأجابها فوربز:

– هذا ليس مقنعًا بما يكفي، لدينا أسباب تجعلنا نشكُّ أنكِ سرقتِ أوراقًا مهمة من وزارة الخارجية، وأنك هربتِ إلى هنا لتتخلصي منها. عليكِ العودة معنا إلى سكوتلاند يارد للخضوع للتفتيش.

كانت محاولاتها للمقاومة غير مجدية، وجاءت عربة أقلَّت ثلاثتنا إلى هناك. كنا قد تفحصنا المطبخ وبالأخص النار المتقدة في المطبخ لنتأكد أنها لم تتخلص من الأوراق في اللحظات التي كانت فيها في المطبخ وحدها، لكننا لم نجد أي أثر لا لرماد ولا أي قصاصات ورقية. وعندما وصلنا إلى سكوتلاند يارد

سُلِّمت إلى امرأة لتفتيشها. كانت لحظات الانتظار عذابًا وترقبًا حتى أتت المفتشة ومعها تقرير التفتيش. لم يكن لديها أي أثر للوثائق.

لحظتها، ولأول مرة، اعتراني الذهول من هول موقفي. قبل هذه اللحظة كنت مشغولًا بالإجراءات التي عطلت تفكيري. وكنت مطمئنًّا أنني سأستعيد وثائق المعاهدة على الفور، لدرجة أنني لم أحاول أن أفكر ماذا ستكون عواقب فشلي في استعادتها، ثم فجأة، اكتشفت أنه لم يعد لديَّ شيء آخر أقوم به، وكان عندي متسع لاستيعاب موقفي. ويستطيع واتسون أن يخبرك كم كنت ولدًا حساسًا وقلوقًا في المدرسة، هذه طبيعتي. فكرت في خالي وزملائه، وفي العار الذي جلبته له، والعار الذي جلبته لنفسي، ولكل من له صلة بي. حتى وإن كنت ضحية حادثة غير عادية، فلا يوجد مساحة لأي اعتبارات في الأمور التي تخص المصالح الدبلوماسية. كانت هذه نهايتي، نهايتي المخزية التي لا عودة منها. لا أعلم ماذا فعلت، لا بد أنني قد أحدثت جلبة حينها. أتذكر صورًا باهتة من الموقف، وبعض الضباط يلتفون حولي في محاولة لتهدئتي. أحدهم استقلَّ معي عربة إلى ووترلو، ولم يتركني حتى رآني أركب القطار المتجه إلى ووكنج. أعتقد أنه كان سيرافقني خلال الطريق كله لولا الطبيب فيرير -الذي يسكن بالقرب مني-، الذي كان في طريقه بالقطار نفسه. تكرَّم الطبيب وتولى أمر توصيلي، والحمد لله أنه فعل ذلك، فقد انتابتني نوبة هلع في المحطة، وقبل أن أصل إلى المنزل كنت أهذي كالمجنون.

ويمكنك أن تتخيل حالتهم هنا عندما أيقظهم من أَسِرَّتهم جرس الطبيب يدق الباب ليروني في هذه الحالة. حطم منظري قلب آني المسكينة، وأمي أيضًا. بالكاد سمع الطبيب فيرير من المحقق في المحطة ما يكفي ليشرح لهم الموقف، ولم تكن قصته مبشرةً على الإطلاق، فقد كان واضحًا للجميع أني على أبواب مرضٍ طويل. لذلك أخرجوا جوزيف من غرفة نومه المبهجة وحولوها إلى غرفة تمريض للعناية بي على الفور. استلقيت هنا يا سيد هولمز لأكثر من تسعة أسابيع، فاقدًا للوعي أهذي بسبب حمى دماغية. ولولا وجود السيدة هارسون بجواري هنا ورعاية الطبيب لما كنتُ قادرًا على الكلام معك الآن. لقد قامت على رعايتي نهارًا واعتنتْ ممرضة مستأجرة بي ليلًا، فقد كان من الممكن أن أؤذي نفسي بأي طريقة في نوبات الهلع. وبالتدريج عدت إلى رشدي لكن لم أستعد ذاكرتي إلا في الأيام الثلاثة الماضية. أحيانًا أتمنى لو لم تعد ذاكرتي إليَّ أبدًا. كان أول ما فعلته حين استعدت ذاكرتي أن كتبت إلى السيد فوربز المسؤول عن القضية. تواصل معي وأكد لي أنه ورغم أنهم فعلوا كل ما يمكن فعله فإنهم لم يكتشفوا أي آثار ولا أي أدلة؛ فقد فحصوا البواب وامرأته بكل الطرق الممكنة، لكن لم يؤدِّ ذلك إلى اكتشاف أي شيء يعطي أملًا للقضية. ثم تحركت شكوك رجال الشرطة بعد ذلك إلى جوروت، الشاب الذي -لو تتذكر- ظل بعد انتهاء الدوام تلك الليلة. حقيقةً لم يكن أيُّ شيء يشير إلى تورطه في القضية أو يثير الشكوك إلا اسمه الفرنسي وأنه كان موجودًا في المكتب بعد انتهاء الدوام، ولكن في واقع الأمر أنا لم أبدأ عملي إلا بعد أن رحل هو، أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أصوله الهوجونوتيونية[10] فإن انتماءه هو وعائلته إنجليزي ولا يختلف في شيء عن انتمائي أنا أو أنت مما يمنع تورطه بأي شكل من الأشكال، لذلك استُبعِد.

أنا ألجأ إليك يا سيد هولمز وأنت أملي الوحيد بعد أن لم يعد في الأمر أي سبل على الإطلاق. إذا خذلتني، فإن شرفي ومكانتي سيذهبان بلا عودة.

رجع المريض إلى الوراء ليتكئ على مسنده متعبًا من إعادته الحكاية مرة أخرى، في حين صبَّت له ممرضته كوبًا من دواءٍ منشط. وجلس هولمز صامتًا برأسه مائلًا إلى الخلف وعينيه مغمضتين، بمظهر قد يبدو ينم عن الكسل إذا لم تكن تعرفه، لكنني أعلم أنه يدل على أنه مشغول بأعمق مستويات التأمل والاستيعاب. ثم بعد صمت طويل قال:

– لقد كانت شهادتك في غاية الوضوح، ولم تترك لي إلا أسئلة قليلة أود أن أسألها، لكن واحدًا من هذه الأسئلة في غاية الأهمية؛ هل أخبرت أي أحد أن عليك القيام بهذه المهمة الاستثنائية؟

– لم أخبر أي أحد.

– ولا حتى السيدة هاريسون.

– لا.. لم أعد إلى ووكنج في الوقت بين تسلُّمي التكليف والقيام به.

– ولم يرَك أيٌّ من عائلتك في هذه المدة ولو بالصدفة؟

– ولا أي أحد.

– وهل يوجد أحد منهم يعرف الطريق إلى مكتبك.

– أجل بالطبع، لقد استضفتهم جميعًا هناك.

– هل تعرف أي شيء عن البواب؟

– ولا أي شيء؛ عدا أنه جندي متقاعد.

– في أي كتيبة؟

– آه، لقد سمعت أنه كان في كتائب الحرس الملكي.

– شكرًا. أنا متأكد أنني سأتمكن من الحصول على كل التفاصيل الأخرى من فوربز، فالشرطة ممتازة في حشد الحقائق، على الرغم من أنهم لا يستخدمونها دائمًا للوصول إلى نتائج مفيدة. ما أبدع الزهور!

مر هولمز بجوار الكنبة ثم تخطاها ليفتح النافذة، وأمسك ساق زهرة العُلّيق المتدلية بجوار النافذة وهو ينظر إلى الأسفل؛ إلى مزيج الأخضر والقرمزي البهي. كانت هذه مرحلة جديدة من شخصيته، فلم أرَه قبل تلك المرة قط يبدي أي اهتمام بالطبيعة.

ثم قال وهو يستند بظهره إلى النافذة:

– لا يوجد أي شيء يحتاج إلى المنطق كما يحتاج إليه الدِّين؛ فبإمكان المتمكن من المنطق أن يبنيه بناءً علميًّا دقيقًا. ومع ذلك فالزهرة هي أكثر ما يمكن أن يطمئننا إلى لطف القدر. كل شيء آخر؛ قدراتنا ورغباتنا ومأكلنا، كل هذه الأشياء ضرورية لوجودنا في المقام الأول، لكن هذه الزهرة زيادة وتفضُّل. رائحتها ولونها تزين الحياة وليست شرطًا لوجودها. إنها جمال خالص وجمالها هذا منحة. لذلك فأنا دائمًا ما أقول إن لدينا الكثير لنأمله من الزهور.

نظر بيرسي فيليبس وممرضته إلى هولمز باندهاش في أثناء عرضه هذا، وبدا على وجهيهما الكثير من الإحباط. في حين كان هولمز يغُطُّ في حلم من أحلام اليقظة وهو يمسك زهرة العُلّيق بين أصابعه. واستمر الوضع على هذه الحالة بضع دقائق قبل أن تكسر السيدة الشابة صمته وتسأله وفي صوتها شيء من العبوس:

– هل ترى أي إمكانية لحل هذا اللغز يا سيد هولمز؟

فرد عليها وهو يتمالك نفسه مرة أخرى ويعود إلى واقع الحياة:

– آه، اللغز!

ثم استكمل:

– حسنًا، من العبث أن أنكر أن هذه القضية مبهمة إلى حد بعيد ومعقدة أيضًا، ولكنني أعدكِ أنني سأنظر في الأمر وسأعلمك بأي نقاط تلفت انتباهي.

– هل ترى أي خيط؟

– لقد قدَّمتم إليَّ سبعة خيوط، لكن بالطبع عليَّ فحصها قبل أن أجزم بأهمية أي منها.

– هل تشُكُّ بأي أحد؟

– أشُكُّ بنفسي.

– ماذا؟!

– أن أصل إلى استنتاج أسرع من اللازم.

– إذن اذهب إلى لندن وتأكد من شكوكك.

– نصيحتُكِ ممتازة جدًّا يا سيدة هاريسون.

قام هولمز وهو يستعدُّ للرحيل ثم استكمل:

– أظن أننا لا يمكننا أن نفعل أكثر مما فعلنا هنا يا واتسون. لا تترك لخيالك العنان ولا تتمسك بأمل كاذب يا سيد فيليبس، المسألة في غاية التعقيد.

فصرخ الدبلوماسي:

– ستلازمني هذه الحمى حتى أراك مجددًا.

– حسنًا، سآتي مجددًا غدًا بالقطار نفسه، وإن كان من المرجح أكثر أن تقريري سيكون سلبيًّا.

فصاح عميلنا:

– بارك الله فيك لوعدك بالمجيء. لقد ارتحت بمجرد معرفة أن شيئًا ما يُمكن أن يُفعَل تجاه القضية. بالمناسبة، لقد تسلَّمتُ رسالة من اللورد هولدهرست.

– هاه! وماذا قال؟

– كانت نبرته جافة لكن لم يكن قاسيًا. ويمكنني أن أقول إن مَرَضي الشديد منعه من الأخيرة. لقد كرر أن الأمر في غاية الأهمية، وأضاف أنه لن تؤخذ أي خطوات بشأن مستقبلي، ويعني بذلك –بالطبع–

فصلي، حتى أسترد صحتي وأحصل على فرصة لفعل شيء تجاه كارثتي.

– حسنًا، هذا تصرف معقول ومتفهم. هيا بنا يا واتسون فلدينا يوم عمل طويل في المدينة.

قام السيد جوزيف هاريسون بتوصيلنا إلى المحطة، وبعد دقائق قليلة كنا على متن قطار بورتسماوث. كان هولمز غارقًا في أفكار عميقة، ولم يتفوه بأي كلمة حتى عبرنا تقاطع كلافام. حينها كان أول ما قال:

– أمر مبهج حقًّا أن تدخل لندن من أحد هذه الطرق المرتفعة التي تسمح لك برؤية المنازل كلها تحتك بهذه الطريقة.

ظننته يمزح، فالمنظر كان سيئًا بما يكفي، حتى استكمل موضحًا:

– انظر إلى تلك التجمعات الكبيرة المعزولة من الأبنية والألواح الأسمنتية المحيطة بها، كأنها جزر من الحجارة في بحر من الرصاص. وهذه المدارس الداخلية، منارات يا صديقي! سراج يضيء المستقبل! حضانات تُؤوي كل منها المئات من البذور المتألقة، سينبثق منها مستقبل أفضل وأكثر حكمة لبريطانيا. أظن أن ذلك الرجل فيليبس لا يشرب الخمور؟

– لا أظن ذلك.

– ولا أنا أيضًا، لكن علينا أن نضع كل احتمال في الحسبان. ذلك الرجل المسكين أسقط نفسه في بئر عميقة جدًّا، والسؤال الآن إذا كان باستطاعتنا إخراجه منها. ما رأيك في الآنسة هاريسون؟

– امرأة ذات شخصية قوية.

– أجل، ولكن معدنها طيب إلا أن أكون قد أخطأت في تقديري. هي وأخوها الولدان الوحيدان لرجل من كبار صناع الحديد في الشمال بالقرب من نورثمبرلاند. خطبها في أثناء سفره في الشتاء الماضي، ثم نزلت معه لتتعرف على العائلة مع أخيها. ثم جاءت الصدمة ومكثت لتُمرِّض الرجل الذي تحبه، ووجد أخوها نفسه مرتاحًا هناك فبقي معها أيضًا. لقد قمت بتحرياتي الخاصة كما ترى.

وما إن بدأت أتحدث قائلًا:

– أما عملي...

حتى قاطعني هولمز بصوت عبوس وقال:

– آه، إذا كنت تجد حالاتك أهم من قضاياي...

فقاطعته مجددًا واستكملت:

– كنت سأقول إن عملي يمكنه أن ينتظر يومًا أو يومين لأن هذا الوقت هو الأكثر فتورًا في السنة.

وما إن سمع ذلك حتى زال عبوسه وردَّ مستبشرًا:

– ممتاز. إذن يمكننا أن نبحث الأمر معًا. أظن أن علينا أن نبدأ بمقابلة فوربز. يمكنه أن يخبرنا بكل شيء حتى نتمكن من معرفة الطريقة الأنسب لمقاربة القضية.

– لقد قلتَ إن لديك خيطًا.

– حسنًا، لدينا العديد من النقاط التي يمكن أن نبدأ منها، لكن لا يمكننا معرفة قيمة أي منها إلا بالمزيد من التحريات. أصعب القضايا في التعقب هي تلك التي تبدو بلا سبب. لكن ما بين يدينا الآن ليس بلا سبب. ومن يمكنه أن يستفيد مما حدث؟ يوجد السفير الفرنسي، ويوجد السفير الروسي، ويوجد أيُّ أحد يستطيع أن يبيعها لأي منهما، ويوجد اللورد هولدهرست.

– اللورد هولدهرست!

– حسنًا، من الممكن أن يجد رجل سياسي مثله في موقف لا يضيره فيه أن تتعرض أوراق بمثل هذه الأهمية لتلف غير مقصود.

– لكن، ليس رجلًا بسجل مشرف مثل اللورد هولدهرست؟

– ما زال احتمالًا قائمًا ولا يمكننا تحمل تبعات تجاهله. سنقابل اللورد الشريف اليوم وسنعرف إذا كان بإمكانه أن يخبرنا أي شيء، وحتى ذلك الحين فقد بدأت في بعض تحرياتي بالفعل.

– بدأت بالفعل؟

– نعم، لقد أرسلت برقية من محطة ووكنج لكل الصحف المسائية في لندن. هذا الإعلان سيظهر في تلك الصحف كلها.

وأعطاني قصاصة ورقية مقطوعة من مفكرة، مكتوب عليها:

«جائزة قيمتها عشرة جنيهات لمن يعرف رقم عربة الأجرة التي توقفت أمام أو بجوار وزارة الخارجية في شارع تشارلز الساعة العاشرة إلا ربع مساء الثالث والعشرين من مايو. تقدم لـ 221 ب بشارع بيكر».

– أأنت واثق أن اللص جاء في عربة أُجرة؟

– إذا لم يكن كذلك فلا ضرر فيما فعلته. لكن إذا كان السيد فيليبس محقًّا فيما قاله عن عدم وجود مكان للاختباء، لا في الغرفة ولا في الممر، فلا بد أن السارق قد جاء من الخارج إذن. وإذا كان قد جاء من الخارج في مثل تلك الليلة الممطرة، ومع ذلك لم يترك أي آثار بلل أو رطوبة على الشمع الذي فُحص بعد عدة دقائق فقط من مروره، فمن المحتمل بشدة أن يكون قد جاء في عربة أجرة.

– يبدو محتملًا.

– هذا أحد الخيوط التي تحدثت عنها. وبالطبع أيضًا هناك الجرس، أحد أهم العناصر المميزة لهذه القضية. لماذا يمكن أن يرن الجرس؟ هل فعل اللص ذلك متحديًا؟ أم كان ذلك شخصًا آخر مع اللص وقام بذلك ليمنع السرقة؟ أم كانت حادثة؟ أم كانت...؟

غرق هولمز مرة أخرى في تفكيره العميق الصامت الذي كان قد خرج منه منذ قليل. لكن بدا لي – لمعرفتي الشديدة بكل أحواله– أن احتمالًا جديدًا قد باغته فجأة.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة والثلث عندما وصلنا إلى محطتنا الأخيرة، وبعد أن حصلنا على غداء سريع من البوفيه، مضينا قدمًا على عجل إلى سكوتلاند يارد. كان هولمز قد أرسل برقية قبل وصولنا إلى فوربز، وعندما وصلنا وجدناه في انتظارنا؛ رجل قصير حاد يبدو عليه الدهاء، ولا تبدو عليه

أي أمارات للمودة على الإطلاق. تعبيراته باردة وصارمة، وبالأخص عندما علم بالمأمورية التي جئنا من أجلها.

ما أن استقبلنا حتى توجه بالكلام إلى هولمز قائلًا:

- لقد سمعت عن طرائقك من قبل يا سيد هولمز. أنت جاهز دائمًا لاستخدام كل المعلومات التي توفرها لك الشرطة ثم تحاول أن تنهي القضية بنفسك وتشوه سمعتهم.

فرد عليه هولمز:

- على العكس. من بين الثلاث وخمسين قضية التي عملت عليها لم يظهر اسمي إلا في أربع، ونُسِبت الجهود للشرطة في التسع والأربعين الأخرى. لا ألومك أنك لا تعرف هذه المعلومة فأنت صغير وقليل الخبرة. لكن إذا أردت أن تستمر في منصبك فإن عليك أن تعمل معي لا ضدي.

فرد عليه المحقق وقد تغيرت نبرته:

- يسعدني جدًّا أن تعطيني إشارة هنا أو دلالة هناك في هذه القضية، فأنا لم أصل إلى شيء يُذكر حتى الآن.

- راقبْنَا تانجي البواب وتقصَّينا سجلاته. لقد خرج من قوات الحراسة الملكية بسجل حسن، ولم نجد أي شيء عليه. أما امرأته فهي امرأة وضيعة، وأظن أنها تعرف عن هذا الأمر أكثر مما تبدي معرفته.

- هل راقبتها؟

- كلفنا إحدى نسائنا بمراقبتها. زوجة السيد تانجي امرأة سكيرة، وكانت شرطيتنا معها مرتين عندما كانت ثملة تمامًا، ومع ذلك لم تتمكن من أن تأخذ منها أي معلومة مفيدة.

- لقد علمت أيضًا أنهما يتعاملان مع سماسرة أشقياء في منزلهما.

- نعم، لكن أموالهما قد دُفعت.

- ومن أين جاءا بالمال؟

- لا تقلق بهذا الشأن. كان موعد تسلُّمه المرتبَ قد اقترب، إضافة إلى أنه لم يبدُ عليهما أي شيء يدل على أنهما في ضيق.

- وبمَ فسرتَ أنها هي من أجابت السيد فيليبس عندما رن الجرس ليطلب القهوة؟

- قالت إن زوجها كان متعبًا للغاية وإنها كانت تحاول أن تخفف عنه.

- حسنًا، هذا يتماشى بالطبع مع كونه وُجِد لاحقًا نائمًا على كرسيه. لا يوجد أي شيء ضدهما إذن. لكن سلوكها... هل سألتها لماذا كانت على عجلة من أمرها تلك الليلة؟ لقد لفت استعجالها انتباه العريف.

- كانت متأخرة عن المعتاد وتريد العودة إلى المنزل في موعدها.

- هل وضحت لها أنكما -أنت والسيد فيليبس- وصلتما قبلها مع أنكما تحركتما إلى منزلها بعدها نحو عشرين دقيقة؟

- لقد أرجعت ذلك للفرق بين الحافلة والعربة.

– هل وضَّحتْ لك لماذا سارعت إلى المطبخ عندما وصلت إلى المنزل؟

– لأنها كانت تضع المال الذي ستدفعه للسماسرة هناك.

– إنها تمتلك إجابة لكل شيء على الأقل. هل سألتها إذا كانت قد رأت أي أحد أو قابلت أي أحد يتسكع بالقرب من شارع تشارلز؟

– لم ترَ أحدًا سوى العريف.

– حسنًا، يبدو أنك استجوبتها بدقة. ماذا فعلت غير ذلك؟

– تتبعنا الموظف جوروت خلال هذه الأسابيع التسعة كلها.. لكن بلا نتيجة. لا يمكننا أن نثبت أي شيء ضده.

– ألديك أي شيء آخر؟

– حسنًا، ليس لدينا طرائق أخرى لسير القضية، ولا أدلة أخرى من أي نوع لتتبعها.

– هل كوَّنتَ نظرية عن الكيفية التي رن بها ذلك الجرس؟

– حسنًا، عليَّ أن أعترف أني احترت في هذا الأمر كثيرًا ولم أصل إلى شيء، لكن على أي حال فهو شخص جريء جدًّا، ليعطي مثل ذلك الإنذار.

– أجل، هذا شيء غريب جدًّا حقًّا.

– شكرًا جزيلًا لما قلته لي. إذا كان باستطاعتي أن أقدم لك الفاعل بين يديك فسأتواصل معك. هيا بنا يا واتسون.

سألته ونحن نغادر المكتب:

– إلى أين نحن ذاهبان الآن؟

– سنذهب إلى مقابلة اللورد هولدهرست، عضو مجلس الوزراء حاليًا ورئيسه المستقبلي.

كنا محظوظين عندما وجدنا أن اللورد هولدهرست ما زال في مكتبه في شارع داوننج، وعندما أرسل هولمز بطاقته الشخصية سُمح لنا بالدخول على الفور. استقبلنا الرجل الدبلوماسي بلباقته التقليدية المعهودة ودعانا إلى الجلوس على الأريكتين الفاخرتين على جانبَي المدفأة وهو واقف بيننا على السجادة. كان طويل القامة ممشوق الجسد حاد الملامح ذا وجه متأمل وشعر مجعد يتخلله شيب مبكر. لا يبدو من عامة الناس، هيئته تعطيه هيبة ونبلًا متماشيين مع مكانته وأصله.

ابتسم قائلًا:

– اسمك مألوف جدًّا لي يا سيد هولمز. وبالطبع لا يمكنني التظاهر أني لا أعرف سبب زيارتك. لم يكن في الوزارة سوى حادث واحد يمكنه أن يستدعي انتباهك. ولكن هل يمكنني أن أسأل: لمصلحة من تعمل؟

فرد عليه هولمز:

– أعمل للسيد بيرسي فيليبس.

– آه، ابن أختي.. سيئ الحظ! عليك أن تتفهم أن قرابتنا تجعل غض الطرف عنه أمرًا شبه مستحيل. وأخشى أن هذه الحادثة سوف يكون لها أثر مُضِرٌّ في مسيرته المهنية.

– وماذا إن وجدت الوثيقة؟

– آه، هذه طبعًا ستكون قضية أخرى.

– لديَّ سؤال واحد أو اثنان أود أن أسألهما لك، أيها اللورد هولدهرست.

– سيكون من دواعي سروري أن أخبرك بأي معلومات في مقدوري معرفتها.

– هل أعطيت تعليماتك بنسخ الوثيقة في هذه الغرفة؟

– أجل.

– إذن من الصعب جدًّا أن يكون أحد ما قد استرق السمع لكما.

– هذا أمر مستحيل.

– هل ذكرت لأي أحد على الإطلاق نيتك أن تعطي المعاهدة لأحد كي ينسخها؟

– لا، أبدًا.

– هل أنت متأكد من ذلك؟

– بكل تأكيد.

– حسنًا، إذا كنت تقول ذلك والسيد فيليبس أيضًا يقول ذلك، فلا بد أن وجود ذلك اللص في تلك الغرفة كان صدفة محضة، وجد الفرصة مناسبة وانتهزها.

ابتسم الرجل حينها وقال:

– أنت تأخذني بهذا خارج اختصاصاتي.

فاستكمل هولمز تفكيره للحظة ثم قال:

– لديَّ نقطة مهمة جدًّا أود أن أناقشها معك؛ لقد أعربت عن خوفك -كما علمت- من النتيجة الجسيمة التي يمكن أن تقع إذا ما انكشفت تفاصيل هذه الوثيقة.

بدا التجهم على وجه الرجل الدبلوماسي وقال:

– نتائج جسيمة حقًّا.

– وهل وقعت هذه النتائج بعدُ؟

– لا، لم تقع بعدُ.

– دعنا نفترض أن هذه المعاهدة قد وصلت إلى وزارة الخارجية الفرنسية أو الروسية، هل تتوقع أن تعرف بالأمر؟

فردَّ اللورد هولدهرست بوجه ساخر:

– سأعرف ذلك، أجل.

– بما أنه قد مرت عشرة أسابيع تقريبًا ولم يحدث شيء، فمن الممكن إذن أن نفترض أن المعاهدة لم تصل إليهم بعدُ.

هز اللورد هولدهرست كتفيه قائلًا:

– لا يمكننا أن نفترض يا سيد هولمز أن السارق أخذ المعاهدة ليضعها في إطار ويعلقها على الحائط.

– من الممكن أن يكون في انتظار سعر أفضل.

– إذا انتظر أكثر من ذلك فلن يحصل على أي ثمن على الإطلاق. لن تعود تلك المعاهدة سرية بعد عدة شهور قليلة.

فردَّ هولمز:

– هذا أمر في غاية الأهمية. بالطبع من الممكن أن نفترض أن السارق أصيب بمرض مفاجئ...

رفع الرجل السياسي نظره مسرعًا إلى هولمز وسأله:

– حمى دماغية على سبيل المثال؟

فردَّ هولمز بثبات:

– لم أقُل ذلك. والآن، أيها اللورد هولدهرست لقد أخذنا بالفعل أكثر من اللازم من وقتك الثمين، وعلينا أن ننصرف الآن ونتمنى لك يومًا طيبًا.

ودَّعنا الرجل ورافَقَنا إلى الباب وانحنى في وداعنا متمنيًا لنا حظًّا موفقًا في تحرياتنا:

– أيًّا كان المجرم.

قال هولمز عندما خرجنا إلى شارع وايتهول:

– إنه رجل جيد. لكنه يعاني من أجل الحفاظ على مكانته، فهو ليس غنيًّا، وعليه الكثير من الأعباء. لقد لاحظت بالطبع أنه أعاد تركيب نعل لحذائه. لن أعطلك أكثر من ذلك عن عملك يا واتسون، يمكنك الآن أن تذهب. لن أفعل شيئًا آخر اليوم إلا إذا أتاني رد على إعلان عربة الأجرة الذي نشرتُه. لكن سأكون ممتنًّا جدًّا لك إذا كان بمقدورك أن تأتي معي إلى ووكنج غدًا، في القطار نفسه الذي أخذناه أمس.

قابلته كما اتفقنا في صباح اليوم التالي، وسافرنا معًا إلى ووكنج. قال لي إنه لم يحصل على أي رد بخصوص إعلانه ولم يجد أي أدلة أو خيوط جديدة. كان لهولمز جمود الهنود الحمر –حينما يريد إخفاء مشاعره–، لم أستطع يومها أن أعرف من هيئته ما إذا كان راضيًا بما وصل إليه في القضية أم لا. أتذكر أنه حدثني عن نظام بريتييون للقياس[11]، وعبَّر عن حماسه وإعجابه بتلك الموهبة الفرنسية.

عندما وصلنا.. وجدنا عميلنا ما زال تحت رعاية ممرضته المتفانية، لكنه كان يبدو أفضل كثيرًا من الزيارة السابقة. قام عن الأريكة وحيّانا بلا مشقة عندما دخلنا، وسألنا بمنتهى الحماس:

– ألديكم أي أخبار؟

فردَّ عليه هولمز:

– تقريري –كما توقعت– سلبي. لقد قابلت فوربز وخالك وبدأتُ سلسلتين من التحقيقات يمكنهما أن يؤديا إلى شيء ما.

– لم تفقد الأمل إذن؟

– كلا، على الإطلاق.

فصاحت السيدة هاريسون:

– شكرًا لك على ذلك! إذا حافظنا على شجاعتنا وصبرنا فلا بد أن تظهر الحقيقة.

قال فيليبس وهو يعاود الجلوس على الأريكة:

– إذن لدينا نحن أخبار أهم.

– كنت آمل أن يكون لديك شيء ما تخبرنا به حقًّا.

– أجل، لقد قمنا بمغامرة في أثناء الليل. وربما تكون مغامرة خطِرة.

ثم اعترى ملامحه شيء من القلق وبدا على عينيه الخوف وهو يكمل قائلًا:

– هل تعلم أنني بدأت أصدق أنني مركز مؤامرة بشعة تستهدف تدمير حياتي وشرفي دون أن أدري؟

أومأ هولمز برأسه وهو يستمع إلى حديثه قائلًا:

– أرجوك تابع حديثك.

– عليَّ إخبارك أن ليلة أمس كانت أول ليلة أنام فيها دون وجود ممرضة في الغرفة. كان حالي أفضل كثيرًا واعتقدت أني يمكنني الاستغناء عن وجودها تلك الليلة. أضأتُ مصباحًا صغيرًا لأستأنس به، وبحلول الساعة الثانية كنت أغط في نوم خفيف عندما استيقظت على ضوضاء طفيفة مفاجئة. كان صوتًا يشبه صوت فأر يقرض لوحًا خشبيًّا، فظللت أصغي إليه لبعض الوقت مقتنعًا بأنه لا بد أن يكون فأرًا، ثم فجأة علا الصوت جدًّا وسمعت صوت فرقعة معدنية يأتي من النافذة. قمت في دهشة، لم يكن لديَّ أي شك في مصدر الصوت الآن. الصوت الأول كان بسبب محاولة أحدهم أن يُدخل أداة بين شقي النافذة، والثاني كان بسبب انزلاق القفل من مكانه إلى الداخل. ثم توقفت الأصوات تمامًا عشر دقائق تقريبًا، كما لو كان الشخص الذي أصدر هذه الأصوات ينتظر ليرى ما إذا كانت قد أيقظتني. ثم سمعت بعدها أزيزًا خفيفًا من الشباك وهو يُفتح، لم أستطع حينها الانتظار أكثر من ذلك، قمت من السرير مسرعًا وفتحت النافذة لأجد رجلًا مختبأً خلفها. لم أستطع أن أراه بوضوح؛ فقد اختفى في لمح البصر. كان يختبئ في عباءةٍ من نوع ما تغطي نصف وجهه السفلي. على الرغم من ذلك فيوجد شيء واحد أنا متأكد منه؛ ألا وهو أنه كان يمسك سلاحًا ما في يده. أظن أنه كان سكينًا طويلة. لقد رأيت لمعانها بوضوح عندما استدار ليجري.

علق هولمز قائلًا:

– هذا مثير للغاية. أرجوك أخبرني، ماذا فعلت بعد ذلك؟

– كنت سألحق به من النافذة المفتوحة لو كنت في حال أفضل مما كنت عليه. ولمّا لم أستطع اللحاق به رننت الجرس وأيقظت كل من في المنزل. لقد استغرق الأمر بعض الوقت، لأن الجرس يرِنُّ في المطبخ والخدم كلهم ينامون في الدور العلوي. ناديتهم بصوت عالٍ أيضًا؛ وهذا أحضر جوزيف من الأعلى وأيقظ هو بدوره الآخرين. وجد جوزيف والسائس آثارًا في حوض الزهور الموجود بجوار النافذة، لكن

الجو كان جافًا جدًّا في الأيام الأخيرة، فلم يستطيعا تتبع الآثار على العشب. وعلى الرغم من ذلك فتوجد آثار على السياج الخشبي الذي يطوق الطريق كما لو كان أحدهم -على حد تعبيرهما- قد قفز فوقه وخلع الجزء العلوي منه. لم أخبر الشرطة بأي شيء بعدُ عن الحادثة، لأنني أردت أن آخذ رأيك في الموضوع أولًا.

هذه القصة التي سردها عميلنا كان لها أثر غير عادي في شيرلوك هولمز؛ فقد قام من كرسيه وظل يتحرك في الغرفة بحماس بالغ. وعلى الرغم من أنه كان ظاهرًا على فيليبس أن ذلك الحادث قد أخافه، فإنه كان مبتسمًا وهو يعلق عليه قائلًا:

– المصائب لا تأتي فُرادى!

قال هولمز:

– لقد أخذت نصيبك منها حقًّا، هل تظن أن بإمكانك التجول في أرجاء المنزل معي؟

– أجل بالطبع، يمكنني ذلك بكل سرور، وجوزيف سيأتي معنا أيضًا.

قالت السيدة هاريسون:

– وأنا أيضًا سآتي معكم.

فردَّ عليها هولمز وهو يهز رأسه رافضًا:

– أخشى أنه لا يمكنك المجيء معنا. أظن أنني سأطلب منك أن تظلي جالسة مكانك بالضبط.

ظلت السيدة في مكانها وقد بدا عليها شيء من الامتعاض. وفي ذلك الوقت انضم أخوها إلينا. خرجنا من المنزل وعبرنا الحديقة لنقف على نافذة الدبلوماسي ووجدنا هناك الآثار التي أخبرنا بها، لكنها كانت غير واضحة ومشوشة تشويشًا ميؤوسًا منه. توقف هولمز عندها للحظات ثم قام وهز كتفيه قائلًا:

– لا أظن أن أي أحد يمكنه أن يصل إلى شيء من هذه الآثار. دعنا نتحرك حول المنزل لنعلم لماذا اختار اللص هذه الغرفة بالتحديد. كنت أظن أن تلك النوافذ الكبيرة الموجودة في غرفة الانتظار وغرفة المائدة ستكون أكثر إغراءً.

فأضاف له السيد جوزيف هاريسون:

– إنهما أيضًا أوضح من خلال الطريق.

– آه، ها هو بابٌ قد يكون حاول فتحه أولًا. إلى أين يؤدي هذا الباب؟

– إنه المدخل الجانبي للخدم والحرفيين. وبالطبع فإنه يُغلق ليلًا.

– هل سبق أن حدث مثل هذه المحاولة من قبل؟

فردَّ عميلنا:

– إطلاقًا.

– هل تحتفظون بأدوات طعام ثمينة في المنزل أو أي شيءٍ آخر يمكن أن يجتذب اللصوص؟

– لا شيء على الإطلاق.

أخذ هولمز يتجول حول المنزل واضعًا يديه في جيبه، وبدا عليه استهتار في مشيته لم أعتده منه.

أضاف هولمز محدثًا جوزيف:

– بالمناسبة، لقد وجدتَ مكانًا يبدو عليه آثار تسلق زميلنا الذي نبحث عنه على حد علمي. فلنلقِ عليه نظرة!

أخذنا الرجل الممتلئ إلى بقعة في السور انكسر الجزء العلوي منها، وكان جزء صغير من الخشب يتدلى منها. اقتلعها هولمز من مكانها وفحصها بعناية قائلًا:

– هل تظن أن ذلك حصل ليلة أمس؟ يبدو أنها قديمة، أليس كذلك؟

– حسنًا، هذا ممكن.

– لا توجد أي آثار تشير إلى أن أحدهم قفز من السور في هذه الناحية. لا، لا أظننا سنجد أي أدلة هنا. دعونا نعد إلى الغرفة ونفكر في الأمر هناك.

كان بيرسي فيليبس يمشي ببطء شديد مستندًا إلى أخي امرأته المستقبلية، في حين شق هولمز طريقه في الحديقة بسرعة، وكنت معهُ عند نافذة الغرفة المفتوحة قبل الآخرين بكثير. نادى هولمز السيدةَ هاريسون بأسلوب شديد الحدة، ثم خاطبها قائلًا:

– يجب أن تمكثي في مكانك طوال اليوم، لا تدعي أي شيء يمنعكِ من المكوث في مكانك طوال اليوم. هذا أمر في غاية الأهمية.

فردَّت الفتاة في دهشة:

– بالتأكيد، إذا كان هذا ما تريده يا سيد هولمز.

– وعندما تذهبين إلى السرير أغلقي باب هذه الغرفة من الخارج وخذي المفتاح معكِ. عِديني بأن تفعلي ذلك.

– وماذا عن بيرسي؟

– بيرسي سيأتي إلى لندن معنا.

– وهل سأظل أنا هنا؟

– هذا كله من أجله، يمكنك أن تساعديه بفعلك هذا، بسرعة! عديني أن تفعلي ذلك!

أومأت برأسها موافقةً بسرعة قبل أن يأتي الآخران.

وحين أتيا صاح أخوها:

– لماذا تجلسين كئيبة في مكانك يا آني، تعالي إلى الخارج واستمتعي بأشعة الشمس.

– لا، شكرًا يا جوزيف. لديَّ صداع خفيف وهذه الغرفة باردة ومريحة.

وسأل عميلُنا هولمزَ قائلًا:

– ماذا تقترح الآن يا سيد هولمز؟

– حسنًا، علينا ألا ننسى تحقيقنا الأساسي ونحن ننظر في هذه الحادثة الفرعية. ستساعدني كثيرًا يا سيد فيليبس إذا جئت معنا إلى لندن.

– الآن؟

– حسنًا، بمجرد أن تصبح قادرًا على ذلك. لنقل بعد ساعة مثلًا.

– ما دمت ستحتاج إلى مساعدتي، فأنا أشعر أن صحتي جيدةٌ بما يكفي لآتي معك.

– في أمسِّ الحاجة إليك.

– هل تفضل أن أمكث الليلة هناك أيضًا؟

– كنتُ على وشك أن أقترح ذلك.

– حينها إذا جاء صديقنا الليلي مرة أخرى فلن يجد الطائر في عشه. نحن كلنا رهن إشارتك يا سيد هولمز، وعليك إخبارنا ما تود أن نفعله بالضبط. ربما على جوزيف أيضًا القدوم معنا لكي يعتني بي؟

– لا لا، صديقي واتسون طبيب كما تعلم، ويمكنه أن يعتني بك. سنتناول غداءنا هنا قبل أن نتحرك إذا سمحت لنا، ثم نتحرك ثلاثتنا إلى المدينة معًا.

تم كل شيء كما اقترح هولمز، واستأذنت السيدة هاريسون لتبقى في الغرفة كما طلب منها هولمز. لكنني لم أستطع على الإطلاق أن أتخيل ما يرمي إليه صديقي من هذه المناورات، إلا أن يكون غرضه أن يبعد السيدة هاريسون عن فيليبس الذي كان مبتهجًا بسبب تعافيه، والأمل الذي بعثه فيه وجود خطوات جديدة في القضية، وقد تناول طعامه معنا في غرفة المائدة، وكانت لدى هولمز مفاجأة أخيرة –في الحقيقة كانت الأكثر إذهالًا بين كل ما فعل– فبعد أن اصطحبنا إلى المحطة واطمأن أننا ركبنا العربة، صارحنا بهدوء أنه لم تكن لديه أي نية في مغادرة ووكنج.

ثم قال لنا:

– لديَّ نقطة أو نقطتان صغيرتان أود أن أوضحهما لكما قبل أن أذهب؛ غيابك يا سيد فيليبس سيساعدني بطريقة معينة. وأنت يا واتسون، عندما تنزلان في لندن، ستسدي إليَّ خدمة جليلة باصطحاب صديقنا إلى شارع بيكر، وستبقى معه إلى أن أقابلكما مجددًا. من حسن الحظ أنكما أصدقاء منذ أن كنتما في المدرسة، سيكون لديكما الكثير لمشاركته معًا. يمكن للسيد فيليبس أن ينام في الغرفة الإضافية الليلة. وسأكون معكما في موعد الإفطار غدًا، فهناك قطار يتحرك إلى ووترلو في الساعة الثامنة.

سأل فليبس بأَسًى:

– ولكن ماذا عن تحقيق لندن؟

– يمكننا القيام بذلك غدًا، أما الآن فأظن أن وجودي هنا أكثر أهمية.

صاح فيليبس عندما بدأ قطارنا بالحركة:

– يمكنك إخبارهم في المنزل أنني سأتمكن من العودة إليهم غدًا مساءً.

فردَّ عليه هولمز وهو يلوح لنا مودعًا:

– لا أظن أنني سأعود إلى المنزل.

وخرج القطار من المحطة.

تحدثتُ أنا وفيليبس عما حدث في أثناء رحلتنا، لكن لم يستطع أي منا أن يصل إلى سبب مرضه بعد التطورات الأخيرة.

– أظن أنه يريد البحث عن بعض الأدلة عن السرقة التي وقعت ليلة أمس، إن كانت سرقةً حقًّا. أنا شخصيًا لا أصدق أنه كان لصًّا عاديًا.

– ماذا تظنها إذن؟

– لا أعرف إذا كنت ستصدق كلامي أم ستظن أنها مجرد عادة أن أكون قلقًا أكثر من اللازم. ولكنني أصدق أنه توجد مؤامرة سياسية متوغلة العمق تحدث ضدي. وأنه لسبب ما –لا أفهمه– فإن حياتي مستهدفة من قبل المتآمرين. يبدو هذا ادعاءً غريبًا وغير معقول، ولكن انظر إلى الحقائق! لماذا يمكن للص أن يحاول اقتحام شرفة غرفة نوم لا يوجد فيها ما يُسرَق؟ ولماذا يفعل ذلك بسكين طويلة في يده؟

– هل أنت متأكد أنها لم تكن أداة ما لفتح النافذة؟

– بالطبع لا، لقد كانت سكينًا، لقد رأيت لمعة سلاحه بوضوح.

– ولكن ماذا يمكن أن يدفع أحدًا إلى أن يُكِنَّ لك مثل هذه العدائية؟

– أجل، هذا هو السؤال.

– حسنًا، إذا كان هولمز يرى ما تراه فهذا يمكن أن يفسر أفعاله، أليس كذلك؟ إذا افترضنا أن نظريتك صحيحة، إذا استطاع هولمز أن يضع يديه على الفاعل الذي هددك ليلة أمس.. فسيكون قد قطع شوطًا كبيرًا في الوصول إلى الشخص الذي سرق المعاهدة البحرية. فغريب جدًّا أن يكون لديك عدوّان، أحدهما يسرقك والآخر يهدد بقتلك.

– لكن هولمز قال إنه لا ينوي العودة إلى منزلي.

فقلت له:

– أنا أعرف هولمز منذ مدة، ولم أعرف قط في هذه المدة أنه فعل شيئًا دون سبب قوي.

ثم أخذت محادثتنا تتشعب إلى مواضيع أخرى.

كان يومًا مضنيًا بالنسبة إليَّ. فيليبس ما زال ضعيفًا ولم يتعافَ تمامًا من مرضه، جعلته مصيبته أكثر تذمرًا وقلقًا. حاولت –وبلا أي جدوى– أن أفتح معه حديثًا عن أفغانستان أو الهند أو بعض التساؤلات الاجتماعية لأخرج رأسه من هذه الحفرة، ولكنه كان يعود دائمًا لمعاهدته المسروقة، يتساءل، ويخمن، ويكوِّن النظريات. لماذا فعل هولمز ما فعله؟ وما الخطوات التي كان اللورد هولدهرست يتخذها؟ والأخبار التي سنعرفها في الصباح؟

وبمرور الوقت وتعمُّقنا في الليل، أصبح حماسه أمرًا مؤلمًا. سألني حينها:

– ألديك ثقة بهولمز؟

– لقد شهدته وهو يفعل العديد من الأشياء المذهلة.

– لكنه لم يحل أي قضية بهذا الغموض، أليس كذلك؟

– لقد رأيته يحل قضايا أصعب من قضيتك هذه.

– إذن لم يكن فيها ما في هذه القضية من أطماع؟

– لا أعرف بالضبط، لكنني أعلم يقينًا أنه تصرف في قضايا نيابةً عن ثلاث من الأسر الحاكمة في أوروبا وفي أمور حرجة.

– أنت تعرفه جيدًا يا واتسون. إنه شخص غامض جدًّا لدرجة أني لا أعرف فيمَ يفكر أو كيف أفهم أفعاله. هل تظن أن لديه أملًا؟ هل تظن أنه يتوقع أن ينجح؟

– لم يقل أي شيء.

– هذه علامة سلبية.

– على العكس. إنه عندما لا يملك الأدلة فإنه يصرح بذلك، أما عندما يسير وراء رائحة ما وهو غير متأكد بعد ما إذا كان هذا هو الطريق الصحيح، فإنه لا يتفوه بأي كلمة. والآن يا صديقي، لا يمكننا أن نحسِّن الأمور بالقلق، لذلك دعني أنصحك بالاتجاه إلى السرير لتكون على استعداد لما يحمله لنا الغد.

تمكنت من إقناع رفيقي في النهاية بالاستماع إلى نصيحتي على الرغم من أني كنت أعرف من حماسته الواضحة أنه لا أمل من أن يحظى بقسط من النوم. وفي الحقيقة كانت حالته معدية فقد استلقيت أنا أيضًا أتقلب في السرير نصف الليل، أتفكر في أمر هذه القضية الغريبة، وأخترع مئات النظريات، كل منها أكثر استحالة من التي سبقتها. لماذا ظل هولمز في ووكنج؟ لماذا طلب من السيدة هاريسون أن تظل في غرفة المريض طوال اليوم؟ لماذا حرص على ألا يعلم سكان منزل السيد فيليبس أنه سيظل بالقرب منهم تلك الليلة؟ ظللت أقرع مخي حتى غلبني النعاس وأنا أحاول أن أجد نظرية تأخذ كل هذه الحقائق في الاعتبار وتفسرها كلها معًا.

كانت الساعة السابعة صباحًا عندما استيقظت وذهبت مباشرةً إلى غرفة بيرسي لأجده شاحبًا ومستهلكًا بعد ليلة من الأرق. كان أول سؤال وجهه لي ما إذا كان هولمز قد وصل بعد. فقلت له:

– سيأتي في موعده الذي حدده بالضبط. لن يتأخر أو يتقدم دقيقة واحدة عن موعده.

وكنت مصيبًا في كلامي، فلم يمر وقت طويل على الساعة الثامنة حتى توقفت عربة أجرة أمام الباب ونزل منها صديقي. ورأينا من النافذة أن يده اليُسرى كانت ملفوفة بضمادة وأن وجهه كان شديد العبوس والشحوب.

– قضيَّتك هذه يا سيد فيليبس أحد أكثر القضايا التي حققتُ فيها سوادًا.

– كنت أخشى أن تجدها أصعب من قدراتك.

– لقد كانت تجربةً فريدةً حقًّا.

فقلت له:

– هذه الضمادة تنبئ بمغامرة، ألن تخبرنا ماذا حدث؟

– بعد الإفطار يا عزيزي واتسون. تذكر أنني قطعت ثلاثين ميلًا من الأرياف حتى جئت إليكما. أظن أنك لم تتلقَّ أي رد على إعلان سيارة الأجرة الذي نشرته؟ حسنًا، حسنًا، لا يمكننا أن نتوقع أن نصيب في كل رمية.

كانت المائدة جاهزة وعندما كنت على وشك أن أرن الجرس دخلت السيدة هدسون تحمل القهوة والشاي. وبعد بضع دقائق أحضرت لنا ثلاثة أطباق مغطاة، وجلسنا جميعًا إلى المائدة، هولمز في غاية الجوع، وأنا يملؤني الفضول، وفيليبس في أحلك حالات الاكتئاب.

قال هولمز وهو يرفع الغطاء عن طبق من الدجاج بالكاري:

– لقد تفوقت السيدة هدسون على نفسها هذه المرة. الأطباق التي تقدمها محدودة قليلة، إلا أنها تُقدِّر وجبة الإفطار كامرأة أسكتلندية أصيلة. ماذا لديك هناك يا واتسون؟

فرددت عليه:

– لحم وبيض.

– ممتاز! ماذا تريد أن تتناول يا سيد فيليبس، لحم دجاج بالكاري أم بيض أم تريد أن تختار أنت بنفسك؟

قال فيليبس:

– شكرًا، لا يمكنني أن أتناول أي شيء.

– آه، هيا! جرب الطبق الذي أمامك.

– شكرًا لك، أُفضِّل ألا آكل حقًّا.

فردَّ عليه هولمز وقد لمعت عيناه بخبث:

– حسنًا إذن، أظن أنه ليس لديك أي اعتراض أن تساعدني.

رفع فيليبس الغطاء عن الطبق وأطلق صرخة في اللحظة التي رفعه فيها، وجلس يحدق إلى الطبق بوجه أبيض كالطبق الذي كان أمامه. في منتصف ذلك الطبق كانت توجد أسطوانة صغيرة من أوراق زرقاء ورمادية. أمسك بها، والتهمها بعينيه، ثم أخذ يرقص بجنون في جميع أنحاء الغرفة وهو يحتضن الأوراق في صدره ويصرخ من الفرحة. ثم سقط على كرسيه وهو مجهد ومنهك جدًّا من شدة انفعاله وانفلات مشاعره، لدرجة أنه ظل يتجرع الكونياك ليمنع نفسه من الإغماء.

قال هولمز وهو يربت على كتف الرجل ليُهدِّئه:

– اهدأ يا رجل! لقد كان قرارًا سيئًا أن أفاجئك بهذا الشكل، لكن واتسون سيخبرك كيف أنني لا يمكنني أن أقاوم إضفاء لمسة درامية.

أمسك فيليبس بيد هولمز وقبَّلها صائحًا:

– بارك الله لك! لقد أنقذت شرفي.

فردَّ عليه هولمز:

– حسنًا، لقد كان شرفي أنا أيضًا على المحك، كما تعلم. أؤكد لك أنني أكره أن أفشل في قضية كما تكره أنت أن ترتكب مصيبة في مهمة رسمية.

دس فيليبس الوثيقة الثمينة في أبعد جيب داخل معطفه، وقال:

– في الحقيقة أنا لا أجرؤ أن أعطلك عن إفطارك أكثر من ذلك، لكن الفضول سيقتلني لأعرف كيف وجدتها وأين كانت؟

شرب هولمز فنجان القهوة ثم وجَّه انتباهه إلى اللحم والبيض. ثم قام وأشعل غليونه واستقر مرة أخرى على كرسيه.

– سأقول لك ما فعلته أولًا، ثم سأخبرك الطريقة التي استخدمتها لأفعله. بعد أن غادرت المحطة سرت عبر حقول سراي المبهجة حتى وصلت إلى قرية صغيرة جميلة تسمى ريبلي حيث شربت الشاي في حانة هناك، وأخذت مؤونتي فملأت قارورة من المياه ولففت شطيرة في ورقة ووضعتها في جيبي. وظللت هناك حتى المساء، ثم اتجهت عائدًا إلى ووكنج فوجدت نفسي على الطريق الرئيس المقابل لمنزل برياربري –منزلك يا سيدي– بعد تمام غروب الشمس. ثم انتظرت حتى أصبح الطريق خاليًا تمامًا، ليس الطريق الذي يمر فيه الكثير من الناس كما أظن، ثم قفزت فوق السور ودخلت المنزل.

فقاطعه فيليبس قائلًا:

– كانت البوابة مفتوحة بالتأكيد.

– أجل، ولكن ذوقي غريب في مثل هذه المسائل. اخترت المنطقة التي تقف فيها ثلاث أشجار من التنوب واختبأت خلفها حيث لا يمكن لأي أحد من أهل المنزل أن يراني. جلست منحنيًا بين الشجيرات في الناحية البعيدة عن المنزل، ثم زحفت على ركبتي حتى وصلت إلى منطقة الأعشاب المقابلة لنافذة غرفة نومك، حتى أنظر إلى الحالة التي صار عليها بنطالي، ومن هناك انتظرت تطور الأمور. لم تكن الستارة مغلقة في الغرفة، وكنت أستطيع أن أرى السيدة هاريسون جالسة تقرأ. كانت الساعة العاشرة والربع عندما أغلقت الكتاب وأغلقت النافذة وذهبت لتنام. سمعتها تغلق الباب وتأكدت أنها أغلقته بالمفتاح.

فتعجب فيليبس:

– بالمفتاح!

– أجل، لقد طلبت من السيدة هاريسون أن توصد الباب بالمفتاح من الخارج عندما تذهب للنوم. لقد نفَّذتْ ما طلبتُه منها بالحرف الواحد، وبالطبع لولا أنها فعلت ذلك لما حصلتَ أنت على أوراقك التي خبأتها في جيب معطفك. انطلقت هي إلى غرفتها وانطفأت الأنوار، ومكثتُ أنا في مكاني جاثيًا على ركبتي منتظرًا على الأعشاب بالقرب من نافذة الغرفة.

كانت ليلة لطيفة لكنها كانت بالطبع سهرة متعبة. كان لها تلك الحماسة التي يشعر بها المتسابقون في ليالي السباقات المهمة. كانت ساعة الكنيسة التي في شارع ووكنج تدق كل ربع ساعة، ظننت لعدة مرات أنها توقفت، لكن في النهاية بعد الساعة الثانية بعد منتصف الليل سمعت صوت قفل يفتح وصوت صرير مفتاح، وبعد ذلك بلحظات فُتح باب الخدم وخرج منه السيد جوزيف هاريسون.

صاح فيليبس:

– جوزيف!

– لم يكن يرتدي قبعة، لكنه كان يضع معطفًا أسود على كتفيه دون أن يرتديه؛ حتى يستطيع أن يغطي وجهه بسرعة إذا اقترب منه أي أحد. تحرك بمنتهى الحذر في ظلام الليل حتى وصل إلى النافذة وأخرج سكينًا طويلة وأدخلها بين ضلفتي النافذة ورفع القفل، ثم فتح النافذة وفتح الشيش أيضًا بالطريقة ذاتها. كنت أرى ما يحدث داخل الغرفة بكل وضوح من المكان الذي كنت أستلقي فيه وأرى كل ما يفعله. أشعل الشمعتين على جانبي المدفأة ومن ثَم ذهب ليرفع حافة السجادة القريبة من الباب، ثم حرك قطعة خشبية مربعة من مكانها
–كتلك التي يحركها السمكري ليتمكن من الوصول إلى الأنابيب–. في الحقيقة كانت الأنابيب الموجودة تحت هذه القطعة الخشبية هي التي تغذي المطبخ تحتها. ومن هذه الحفرة أخرج هذه اللفافة الورقية، ثم أعاد القطعة الخشبية مكانها وأعاد السجادة كما كانت وأطفأ الشمعتين وخرج مباشرة إلى أحضاني حيث كنت أنتظره خارج النافذة.

حسنًا، لقد اتضح لي في تلك اللحظة أن السيد جوزيف أكثر إجرامًا مما يُبدي، فقد طاحَ فيَّ بسكينه وجرح أصابعي قبل أن أتمكن من أن أسيطر على الموقف. كنت أرى إصراره على قتلي في عينه التي استطاع أن ينظر بها إليَّ –في حين كنت أمسك به– ولكن بعد أن أنهيت حديثي معه استمع إلى صوت العقل وسلمني الوثيقة.

أخليت سبيله عندما أخذتها، لكني أرسلت برقية بكل التفاصيل إلى فوربز هذا الصباح. إذا كان سريعًا كفاية فسوف يصطاد الطير، أما إذا تأخر –كما أظن– فسوف يجد العش فارغًا عندما يصل إليه، وهذا سيكون أفضل للحكومة في ظني. فأنا أظن أن من مصلحة اللورد هولدهرست وأنت أيضًا يا سيد فيليبس ألا يذهب هذا الأمر أبدًا إلى محاكم الشرطة.

فصرخ عميلنا:

– يا إلهي! هل تقصد أن الأوراق المسروقة كانت طوال هذه الأسابيع العشرة المريرة في الغرفة نفسها التي كنت أرقد فيها؟

– نعم، هكذا كانت.

– وجوزيف! جوزيف مجرم وسارق!

– حسنًا، أشفق أن أخبرك أن شخصية جوزيف أعمق وأخطر مما قد يحكم البعض عليه من مظهره. مما سمعت منه في الليلة الماضية علمت أنه خسر كثيرًا في أثناء مغامرته في سوق الأسهم، وأنه مستعد أن يفعل أي شيء مهما كان حتى يستعيد ثروته. وعندما سنحت له فرصة لاستعادة ثروته لم يقف أمام جشعه أي شيء، لا سعادة أخته ولا سمعتك استطاعا أن يمنعاه.

استند بيرسي فيليبس إلى الكرسي وقال بصوت ضعيف:

– رأسي يدور، لقد صعقني كلامك.

استكمل هولمز معلقًا بأسلوبه الإرشادي:

– الصعوبة الرئيسة في قضيتك تكمن في وجود أدلة أكثر من اللازم، والأدلة المهمة كانت متشابكة ومتخفية في الأدلة التي لا تقدم لنا شيئًا. من بين كل الحقائق المعروضة كان علينا أن ننتقي منها تلك

التي نراها جوهرية فقط، ثم نضعها معًا بترتيبها حتى نعيد تركيب التسلسل المثير من الأحداث.

كانت شكوكي تحوم حول جوزيف منذ أن عرفت أنك كنت تنوي السفر معه إلى المنزل في تلك الليلة، وأنه من المحتمل أن يكون قد مر عليك بمكتبك بالوزارة في طريقه حيث إنه يعرفه جيدًا، وعندما علمت أن أحدًا ما حاول اقتحام الغرفة، التي لا يستطيع أي أحد إلا جوزيف أن يخبئ فيها شيئًا ما، لأنك -كما قلت لي- أخرجت جوزيف من الغرفة عندما عدت مع الطبيب. عندما علمت بمحاولة الاقتحام تحولت شكوكي إلى يقين، وخاصةً أن محاولة الاقتحام وقعت في أول ليلة لم تكن الممرضة معك فيها؛ ما يعني أن المقتحم يعرف جيدًا أسرار المنزل.

- كم كنتُ أعمى!

- الحقائق الموثوقة في هذه القضية -بحسب تحليلي- هي ما يلي:

هذا المدعو جوزيف هاريسون دخل المكتب من الباب الموجود بشارع تشارلز، ولكونه يعرف الطريق إلى مكتبك فقد ذهب مباشرةً إليه، ودخله في اللحظة التي خرجت أنت فيها منه. وعندما لم يجد أحدًا في الغرفة رن الجرس، لكن في اللحظة التي فعل فيها ذلك وقعت عيناه على الأوراق الموجودة على المكتب. وبلمحة سريعة علم أن الأقدار وضعت بين يديه أوراقًا دولية في غاية الأهمية، وفي لحظتها دس هذه الأوراق في جيبه وانطلق. ولم يلفت البواب انتباهك إلى الجرس إلا بعد مرور بضع دقائق من رنه، وكانت هذه الدقائق كافية ليهرب اللص. خرج في طريقه إلى ووكنج في أول قطار متجه إلى هناك، وبعد أن تفحص غنيمته وتأكد أنها ذات قيمة هائلة، خبأها في أكثر مكان ظن أنه آمن، وهو ينوي أن يخرجها مجددًا بعد يوم أو يومين ويحملها إلى السفارة الفرنسية، أو أيًّا من يكن الذي سيعطيه الثمن الأكبر. ثم حدثَ رجوعك المفاجئ ودون سابق إنذار أُخرِجَ هو من تلك الغرفة، ومنذ تلك اللحظة كان في الغرفة دائمًا اثنان على الأقل يمنعانه من الوصول ثانيةً إلى ذلك الكنز. لا بد أنه كاد يجن من الموقف، ولكنه في النهاية ظن أن الفرصة صارت سانحة، وحاول أن يقتحم الغرفة لكنه تفاجأ بأنك لم تكن نائمًا كما ظن. تتذكر أنك لم تتناول دواءك في تلك الليلة، صحيح؟

- نعم صحيح.

- أظن أنه اتخذ الإجراءات اللازمة ليضمن أنه فعّال، وأنه كان يعتمد على أن يجدك غير واعٍ عندما يدخل. وبالطبع كان من المتوقع أنه سيحاول أن يعيد الكَرَّة كلما أُتيحت له الفرصة دون مخاطرة، ومغادرتك الغرفة أعطته الفرصة التي انتظرها. لقد أبقيت السيدة هاريسون فيها طوال النهار حتى لا يسبقنا إلى الأوراق. ثم بعد أن أعطيته فكرة أن الطريق متاحة ظللت أراقب الغرفة كما وصفت لك، وكنت أعلم أن الأوراق -على الأرجح- في الغرفة، لكنني لم أرغب أن أمزق كل الألواح وأفك كل الأعقاب باحثًا عنها. فضلت أن أتركه يأخذها من المكان الذي خبأها فيها ووفرت على نفسي ما لا حصر له من المشكلات.

هل توجد أي نقاط أخرى يمكنني أن أوضحها؟

فسألته:

- لماذا حاول أن يدخل من النافذة في المرة الأولى؟ في حين كان يمكنه أن يدخل من الباب؟

– إذا حاول أن يدخل من الباب فعليه أن يمر من أمام سبع غرف نوم أخرى، في حين كان بإمكانه الخروج عبر الحديقة بسهولة. أي شيء آخر؟

فسأل فيليبس:

– أنت لا تظن أن لديه أي نية للقتل، أليس كذلك؟ كانت السكين فقط ليستخدمها كأداة في الفتح؟

فرد عليه هولمز هازًّا كتفيه:

– ربما هي كذلك. ما يمكنني الجزم به أن السيد جوزيف هاريسون من النبلاء الذين لن أكون مستعدًّا على الإطلاق أن أكون تحت رحمتهم.

الشرغوف اسم صغير الضفدع في أولى مراحل نموه، ويكون له ذيل طويل وخياشيم ليتمكَّن من التنفس، وليس له أرجل أو عنق، وشكله قريب من السمك.

الهوجونوتيون (بالإنجليزية Huguenots)، هم أعضاء كنيسة فرنسا الإصلاحية البروتستانتية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

نظام استحدثه الضابط والمتخصص في القياسات الحيوية الفرنسي ألفونس بريتييون في القرن التاسع عشر –قبل نشر قصص هولمز بنحو عشر سنوات–. استخدم بريتييون ذلك النظام في تصنيف المجرمين بناءً على خصائص جسدية مثل الطول والمسافة بين رؤوس أصابع اليدين عند فرد الذراعين.

مغامرة القضية الأخيرة

بقلب مثقل بالحزن، أرفع قلمي لأكتب هذه الكلمات الأخيرة، التي أسجل فيها القدرات الاستثنائية التي عُرف بها صديقي السيد شيرلوك هولمز، بطريقة غير مترابطة، وفي الحقيقة أيضًا فإنني أشعر أنها غير وافية على الإطلاق، حاولت أن أسجل وأعرض جانبًا من المغامرات الغريبة التي خضتها في أثناء صحبته منذ أول فرصة جمعتنا معًا خلال مدة كتابة «دراسة في اللون القرمزي» وحتى الوقت الذي تدخل فيه قضية «المعاهدة البحرية» التي كان لها دور في منع مشكلات دولية لا شك فيها، كانت نيتي أن أتوقف بعد تلك القضية، وألّا أذكر الحادثة التي خلقت فراغًا في حياتي، ولم يستطع أي شيء حتى بعد مرور عامين عليها أن يملأه، لكن يدي مجبرة، بسبب المراسلات الأخيرة التي يحاول فيها الكولونيل جيمس موريارتي أن يدافع عن ذكرى أخيه، وأنا لا أملك خيارًا إلا أن أعرض الأمر كله للرأي العام، وبالضبط كما حدث، فأنا الوحيد الذي يعرف الحقيقة المطلقة كما حدثت، وأنا مسرور لقدوم الوقت الذي تساقطت فيه كل الأسباب لكتمانها، ولم يعد في الأمر ما يمنع كشف الحقيقة.

ما تبادر إلى علمي أن هذا الأمر ذُكر في الجرائد العامة ثلاث مرات: الأولى في جريدة جينيف الفرنسية في السادس من مايو عام 1891، والثانية في رويترز من موفد الجريدة البريطانية في السابع من مايو، والأخيرة في المراسلات المستجدة التي أشرتُ إليها، من هذه الثلاث، كانت الأولى والثانية مختصرتين جدًّا، في حين كانت الأخيرة -كما سأُظهِر الآن- تحريفًا كاملًا للحقائق، ويسقط عن كاهلي مسؤولية إخباركم للمرة الأولى ما حدث حقًّا بين الأستاذ الجامعي موريارتي والسيد شيرلوك هولمز.

أتذكر أنني بعد زواجي، وبعد بداية العمل في عيادتي الخاصة، أن علاقتي القريبة الاستثنائية التي كانت بيني وبين هولمز، تغيرت إلى حد كبير، كان لا يزال يأتي إليَّ من وقت إلى آخر، عندما يرغب في رفقة في أثناء تحقيقاته، لكن هذه المرات بدأت تقل شيئًا فشيئًا، حتى وجدت في عام 1890 أن ثلاث قضايا فقط هي التي أتذكر عنها شيئًا، وفي شتاء عام 1891 علمت من الجرائد أنه منخرط في قضايا تابعة للحكومة الفرنسية غايةٍ في الأهمية، وقد تلقيت رسالتين قصيرتين من هولمز، جاءتا من ناربون ومن نيم، استطعت أن أفهم منهما أن إقامته في فرنسا ستكون في الغالب إقامة طويلة، لذلك اندهشت بشدة عندما رأيته يدخل إلى غرفة استشاراتي الطبية ليلة الرابع والعشرين من أبريل، وصدمني أنه كان يبدو أكثر شحوبًا وأنحف مما اعتدته.

فردَّ على أفكاري قبل أن أنطق بأي شيء:

- نعم، نعم، لقد كنت أستهلك صحتي بلا عناية أكثر من المعتاد في الآونة الأخيرة، فقد كنت مضغوطًا جدًّا، هل لديك أي مشكلة إذا أغلقتُ مصراعَي النافذة؟

كان الضوء الوحيد الموجود في الغرفة ينبعث من مصباح مشتعل فوق مكتبي الذي كنت أقرأ عليه، قام هولمز ووقف ملتصقًا إلى الحائط ومد يديه حول النافذة وضم المصراعين معًا، وأغلق النافذة بإحكام.

فسألته:

- هل أنت خائف من شيء ما؟

- حسنًا، أجل.

– مِمَّ؟

– من رصاصة.

– عزيزي هولمز، ماذا تعني؟

– أظن أنك تعرفني بما يكفي يا واتسون لتعلم أنني لست رجلًا قلقًا، لكن في الوقت نفسه، من الحماقة، لا الشجاعة، أن ترفض الاعتراف بالخطر وهو يُحدِق بك. هل يمكن أن أطلب منك عود ثقاب؟

وسحب الدخان من سيجارته إلى رئتيه، وكأن جسده يشكره على هذا الشعور بالراحة. ثم قال:

– عليَّ أن أعتذر عن القدوم في مثل هذه الساعة المتأخرة، وعليَّ أيضًا أن أرجوك بالسماح لي أن أطلب منك طلبًا غير طبيعي البتة؛ اسمح لي أن أخرج من منزلك الآن بتسلق حائط الحديقة الخلفي.

فسألته:

– ولكن ماذا يعني كل هذا؟

فمد إليَّ يديه ورأيت من ضوء المصباح أن إبهاميه كانا مجروحين وينزفان، قال:

– هذا ليس تهديدًا متخيلًا، بل هو خطر حقيقي، وقد كاد أن يحطم يدي معه. هل السيدة واتسون في المنزل؟

– لا ليست هنا، إنها في زيارة.

– حقًّا! أنت وحدك؟

– نوعًا ما.

– إذن هذا يُسهِّل عليَّ أن أقترح عليك أن تأتي إلى رحلة لمدة أسبوع إلى أوروبا.

– أين؟

– آه، أي مكان فيها؛ كلها سواءٌ بالنسبة إليَّ.

كان يوجد شيء غريب في كل ما يحدث؛ لم يكن من طبيعة هولمز أن يذهب في رحلة بلا غرض، وشيءٌ ما في شحوب وجهه وجسده المتهالك، أخبرني أن أعصابه مشدودة كما لم تكن من قبل، رأى السؤال في عيني، فلامس بين أنامل أصابعه، ووضع كوعيه على ركبتيه، وبدأ يشرح الأمر:

– في الغالب أنت لم تسمع من قبل عن المدرس الجامعي السيد موريارتي.

– إطلاقًا.

فصاح:

– أجل، هذه هي العبقرية والنقطة الباهرة في الأمر، ذلك الرجل متفشٍ في لندن، ولم يسمع عنه أحد من قبل، وهذا يجعله يتربع على قمة سجلات الجرائم، خذها مني يا واتسون، بكل جدية، إذا تمكنتُ من هزيمة ذلك الرجل، إذا تمكنت من تحرير المجتمع منه، سأشعر أن حياتي المهنية قد وصلت إلى قمتها، وأنه يمكنني أن أوجه طاقتي إلى أنشطة أكثر هدوءًا في حياتي بعد تلك النقطة. بيني وبينك، في القضايا التي ساعدت فيها مؤخرًا العائلة الملكية الاسكندنافية والجمهورية الفرنسية، تركاني في وضع مالي يمكِّنني من أن أعيش حياة هادئة تلائمني، وأن أجعل كل تركيزي في أبحاثي الكيميائية، لكن لا يمكنني

أن أستريح يا واتسون، لا يمكنني أن أجلس هادئًا في منزلي وأنا أعرف أن رجلًا مثل السيد موريارتي يمشي في شوارع لندن، دون أن يتصدى له أحد.

– ماذا فعل ذلك الرجل إذن؟

– كما تعلم يا واتسون، لا يوجد أي أحد يعرف عالم المجرمين السري في لندن بالقدر نفسه الذي أعرفه، لسنوات كنت دائمًا على وعي بقوة من يقف خلف المجرمين الذين يبرزون في الصورة، قوة عميقة منسقة تقف دائمًا في طريق القانون وتضع ستارها على المذنب، مرارًا وتكرارًا في قضايا من مختلف الأنواع، قضايا تزوير، سرقة، قتل، في كل تلك القضايا كنت أشعر بوجود تلك القوة، واستنتجت أيضًا أنها كانت موجودة في العديد من تلك القضايا التي لم أُستشَر فيها، والتي لم تصل فيها الشرطة إلى حل، ولعدة سنوات استطعت أن أخترق الحجاب الذي يحيط بها، وفي النهاية جاء الوقت الذي استطعت فيه أن أغتنم الفرصة وأتتبع بعض الأدلة التي قادتني، وبعد ألف مناورة مخادعة قادتني أخيرًا إلى المدرس السابق موريارتي الرياضي المشهور.

إنه نابليون عالَم الجريمة يا واتسون، هو المدبر لنصف الأفعال الشريرة التي وقعت تقريبًا، وتقريبًا كل الجرائم التي لم تُكتشَف في هذه المدينة العظيمة، إنه عبقري وفيلسوف ومفكر نظري، لديه عقل من الطراز الرفيع، يجلس بلا حركة كعنكبوت في منتصف شبكة، لكن الشبكة لها ألف خيط، ويعرف جيدًا كل اهتزازة لكل خيط منها، لا يقوم هو بنفسه بالكثير، هو يخطط فقط، لكن عملاءه كثيرون ومنظمون، بصفة متمكنة ومذهلة، أي جريمة ستقع، أي منزل سيسطون عليه، أي ورقة ستُزوَّر، أي شخص يريدون القضاء عليه، فقط يصل الخبر إلى الأستاذ الجامعي، فيخطط، ويتم التنفيذ، يمكن أن يُقبض على العميل، وفي تلك الحالة يجد المال الذي يحتاج إليه في الدفاع عنه، أو الكفالة التي يحتاج إليها للخروج، لكن القوة المحركة الكامنة وراء كل هذه الجرائم لا تُكتشف أبدًا يا واتسون، وقد كرست كل طاقتي لكشفها والتخلص منها.

لكن الأستاذ قد أحاط نفسه بسياج عازل مصمم بمنتهى الذكاء، لدرجة أنني، ومهما فعلت، بدا الأمر مستحيلًا في أن أحصل على الأدلة التي يمكن أن تدينه أمام المحكمة، أنت تعلم قدراتي يا عزيزي واتسون، لكني وبعد تحقيق دام ثلاثة أشهر كنت مضطرًا أن أعترف أنني قابلت أخيرًا الخصم الذي يضاهيني في الذكاء، وكان ذُعري من جرائمه يتلاشى أمام إعجابي بقدراته، لكنه في النهاية زلَّ، زلةً واحدة فقط، صغيرة جدًّا جدًّا، لكنها كانت أكثر مما يستطيع أن يتحمل أمام تربصي به وانتظاري لأي خطأ منه. كانت تلك فرصتي، ومن تلك النقطة بدأت أُطبق قبضتي عليه، حتى صرتُ الآن مستعدًّا تمامًا للإمساك به خلال ثلاثة أيام، أي حتى يوم الاثنين القادم، ستكون الفرصة مواتية، وسيكون الأستاذ وكل الأفراد الرئيسين في عصابته في قبضة الشرطة، ثم ستُقام أكبر محاكمة جنائية في هذا القرن، وحل ما يزيد على أربعين لغزًا، ومحاكمة المسؤولين عنها جميعًا، لكن إذا تحركنا قبل تلك الفرصة، يمكنهم أن يفلتوا من أيدينا حتى في اللحظات الأخيرة.

كان يمكنني أن أفعل كل هذا دون علم السيد موريارتي، وكان كل شيء سيسير على ما يرام، لكنه كان ماكرًا جدًّا لدرجة أنني لم أستطع تجنب أن أُعلمه عن نفسي وما أحاول فعله. واستطاع أن يرى كل

الخطوات التي اتخذتها لكي أنسج شباكي حوله، ومرة تلو الأخرى حاول أن يهرب مني، لكنني استطعت مواجهته والتصدي له في كل مرة. أنا أخبرك يا صديقي أن هذه المنافسة الصامتة إذا كانت لتكتب ستأخذ مكانها كأحد أعظم أعمال التتبع -والهرب أيضًا- في عالم التحقيق برمته، لم أصل قط إلى مثل هذا المستوى، ولم يدافعني قط خصمي بهذه الشراسة وهذا الذكاء، لقد سدَّد لي ضربات قوية، لكنني استطعت أن أُسدِّد له ضربات أقوى، هذا الصباح تمت آخر الخطوات، والآن لا يحتاج الأمر إلا إلى ثلاثة أيام كي ينتهي تمامًا، كنت جالسًا في غرفتي أعيد تحليل الأمر عندما فُتح الباب ووجدت الأستاذ موريارتي يقف أمامي.

أنا أعصابي لا تتأثر دائمًا يا واتسون، لكن عليَّ الاعتراف لك أنني انتفضت عندما رأيت ذلك الرجل بنفسه، الذي كان في ذهني كثيرًا جدًّا يقف أمامي على عتبتي، كان منظره مألوفًا جدًّا بالنسبة إليَّ، إنه طويل ورفيع للغاية، جبهته مقوسة للخارج في انحناءة بيضاء، وعيناه غائرتان بعمق في رأسه، حليق الذقن، شاحب، ويبدو عليه التقشف، وما زال له ذلك الانطباع الذي للمدرسين الجامعيين؛ كتفاه مقوستان من كثرة الدراسة، ووجهه متقدم للأمام، ولا يكف أبدًا عن الحركة بجسده من ناحية إلى أخرى بطريقة مريبة جدًّا، تشبه الزواحف عند حركتها، حدق إليَّ بفضول رهيب، ثم قال أخيرًا:

- قشرتك الدماغية الأمامية ليست متطورةً بالقدر الذي كنت أتوقعه، عادة خطِرة أن تضع إصبعك على زناد مسدس محشو، في جيب ملابس النوم.

الحقيقة أنني عندما دخل لاحظتُ الخطر الجسيم الذي يهددني شخصيًّا في ذلك الموقف، فالمهرب الوحيد له من المأزق الذي هو فيه أن يقطع لساني، وفي لحظة أخرجت المسدس من الدرج إلى جيبي، وأخفيته فيه، وعندما علَّق على الأمر أخرجته، ووضعت يدي على الطاولة مصوبًا السلاح نحوه، كان لا يزال يبتسم ويطرف بعينيه، لكن كان في عينيه شيء جعلني مسرورًا أنني كنت مستعدًّا بسلاحي في تلك الوضعية.

قال:

- من الواضح أنك لا تعرفني.

فأجبته:

- على العكس، أظن أن من الواضح جدًّا أنني أعرفك، أرجوك اجلس، يمكنني أن أفرغ لك خمس دقائق، إذا كان لديك ما تقوله.

فقال:

- كل ما أرغب في قوله قد عبر بذهنك بالفعل.

- إذن ففي الغالب كل إجاباتي قد مرَّت ببالك.

- أنت عنيد؟

- جدًّا.

أدخلَ يده في جيبه بسرعة، ورفعتُ أنا المسدس عن الطاولة، لكنه لم يخرج من جيبه إلا مفكرة كان قد دوَّن فيها بعض التواريخ.

- لقد اعترضت طريقي في الرابع من يناير، وفي الثالث والعشرين ضايقتني منك، وبحلول منتصف فبراير كنت تسبب لي متاعب خطِرة، وفي نهاية مارس تعرقلت خططي تمامًا بسببك، والآن في نهاية أبريل، أجد نفسي في موقف خطِر، ومهددًا بفقدان حريتي بسبب ملاحقاتك المستمرة، الموقف أصبح مستحيلًا.

فسألته:

- هل لديك أي اقتراحات تريد أن تطرحها؟

فردَّ وهو يبعد وجهه عني:

- عليك أن تتوقف عن هذا يا سيد هولمز، عليك أن تتوقف فعلًا، وأنت تعرف هذا.

فقلت له:

- بعد يوم الاثنين.

فقال:

- لا، لا، أنا واثق أن رجلًا بمثل ذكائك يا سيد هولمز، يعرف تمام المعرفة أنه توجد نتيجة واحدة حتمية لهذا الأمر، لقد ضيقت عليَّ في الأمر، ولم يعد في الأمر إلا وسيلة واحدة فقط متاحة، لقد كانت متعة ذهنية أن أشاهد الطريقة التي اشتبكتَ فيها مع هذه الأمور، وعليَّ القول -ودون مبالغةٍ- أنه سيكون محزنٌ جدًّا لي أن أضطر إلى اتخاذ أي إجراءات متطرفة. أراك تبتسم يا سيدي، لكنني أريد أن أؤكد لك أن كل ما أقوله لك حقيقي.

- الخطر جزء من مهنتي.

- ما أحدثك عنه ليس خطرًا، أنا أحدثك عن دمار حتمي، أنت لا تقف في طريق فرد، أنت تقف في طريق مؤسسة كبيرة، وأنت لا تدرك حتى الآن حقيقة حجمها مع كل ذكائك هذا، عليك أن تبتعد عن هذا الأمر يا سيد هولمز وإلا سنطؤك بأقدامنا.

فقلت له وأنا أنتصب قائمًا:

- يؤسفني أن أقول لك إنني من شدة استمتاعي بهذه المحادثة قد نسيت أمرًا مهمًّا ينتظرني في مكان آخر.

فقام هو الآخر ونظر إليَّ وهو يهز رأسه في حزن، ثم قال بعد صمت طال قليلًا:

- حسنًا، حسنًا، يبدو أمرًا مثيرًا للشفقة، لكنني فعلت كل ما بوسعي، أنا أعرف كل حركاتك، وأعلم أنه لا يمكنك فعل أي شيء قبل يوم الاثنين، لقد كانت مبارزة بيني وبينك يا سيد هولمز، أنت تأمل أن تضعني في القاع، تتمنى أن تهزمني، وأنا أقول لك إنك لن تهزمني أبدًا، وإذا كنت ذكيًا كفاية لتوقِع أي ضرر بي، فكن على يقين أنني سأحدث مثله تمامًا لك.

– لقد أشدت بي عدة مرات يا سيد موريارتي، دعني أرد لك واحدةً منها، إذا كنتَ متأكدًا من الحتمية السابقة، فسوف أتقبل النتيجة في سبيل المقدمة من أجل المصلحة العامة بكل سرور.

فصرخ غاضبًا:

– يمكنني أن أعدك بواحدة، لكن ليست الأخرى.

ثم أدار وجهه عني وأعطاني ظهره المحني وخرج من الغرفة يحدق ويطرف بعينيه.

كان هذا لقائي العجيب مع الأستاذ موريارتي، أعترف لك أنه ترك أثرًا سيئًا في عقلي، طريقته الناعمة والصارمة في الكلام ودقته في التهديدات التي يوجهها، تخلف قناعة بصدقه أكبر من تلك التي يمكن لمبتز فقط أن يتركها، بالطبع ستتساءل: «لماذا لا تأخذ احتياطات الشرطة معه؟» والإجابة هي لأنني مقتنع أن الضربة ستصل إليَّ من عملائه بين رجال الشرطة أنفسهم، إن لديَّ أدلة كبرى على ذلك.

– لقد تُعدِّيَ عليك بالفعل؟

– عزيزي واتسون، الأستاذ موريارتي لا يُضيِّع أي وقت، ذهبت عند الظهيرة في يوم من الأيام الماضية لأقضي بعض حاجاتي في شارع أوكسفورد، وعندما عبرت الزاوية التي تقود من شارع بينتنك إلى شارع ويلبيك، وبينما كنت أعبر الطريق إذ بعربة يجرها حصانان تجري بمنتهى الشراسة، عبرت بالقرب مني تمامًا وكادت أن تدهسني، قفزت من الطريق إلى الرصيف وأنقذت حياتي في جزء من الثانية، أسرعت العربة بأخذ منعطف ماريلبون واختفت في لحظتها، فلم أخرج عن الرصيف بعد هذه الحادثة يا واتسون، لكنني وبينما كنت أسير في شارع فير، سقط حجر من سقف أحد المنازل وتهشم على قدمي، أبلغت رجال الشرطة وفحصوا المكان، كان على سقف أحد المنازل بعض الألواح الخشبية والطوب، لإتمام بعض عمليات الترميم والإصلاح، وحاولوا إقناعي أن الرياح فقط دفعت واحدًا من تلك الحجارة، بالطبع كنتُ أعرف أن هذا ليس حقيقيًّا، ولكنني لم أستطع إثبات أي شيء، ركبت عربة أجرة بعدها في اليوم نفسه وذهبت إلى مسكن أخي في بول مول، حيث قضيت بقية اليوم، والآن قد جئت إليك. وأنا في طريقي هجم عليَّ أحدهم بعصا غليظة ملفوفة بسلك شائك، طرحته أرضًا واحتجزته الشرطة، لكن يمكنني أن أقول بثقة مطلقة إنه لن يُعثَر على أي صلة أبدًا، بين الرجل الذي هبطت أصابعي على أسنانه منذ قليل، وأستاذ الرياضيات المتقاعد الذي –يمكنني أن أتحداك وأقول ذلك– يجلس في منزله على بعد عشرة أميال أو واقف أمام سبورة يحاول حل بعض المسائل الرياضية، ولن تتفاجأ الآن يا واتسون أنّ أول ما فعلته عندما دخلت غرفتك أن أغلقت مصراعي النافذة، وأنني طلبت منك أن أخرج من منزلك بطريقة أقل وضوحًا من الباب الأمامي.

لطالما أُعجبت بشجاعة صديقي، لكني لم أعجب بها قط كما أعجبت بها في تلك اللحظة، وهو يجلس بهدوء يسرد لي مجموعة من الأحداث التي لا بد أن تكون قد حولت يومه إلى جحيم مرعب.

قلت له:

– هل ستقضي الليلة هنا؟

– لا يا صديقي، يمكنني أن أكون ضيفًا خطِرًا عليك، قد رتبت خططي، وكل شيء يسير على ما يرام، تطورت الأمور الآن إلى النقطة التي يمكن فيها أن يقوم رجال الشرطة بالاعتقال دون تدخلي، على الرغم

من أن تدخلي ضروري لإدانته أمام المحكمة، ومن الواضح الآن أنني لا يمكنني أن أفعل أي شيء أفضل من الاختفاء في الأيام المتبقية قبل أن يستطيع رجال الشرطة القيام بدورهم، لذلك سيكون من دواعي سروري أن تأتي إلى أوروبا معي.

فقلت له:

– لا يحتاج عملي حاليًّا إلى العديد من الأطباء، ولديَّ زميل متفهم، يمكنني أن آتي معك بكل سرور.

– وهل هو مستعد أن يحل محلك من صباح غدٍ؟

– إذا كان ضروريًّا.

– آه، نعم، إنه ضروري للغاية، وبما أنك ستأتي فإليك تعليماتي، وأرجو يا عزيزي أن تتبعها حرفًا بحرف، لأنك الآن تشارك في لعبة خطِرةٍ للغاية، أمام أذكى محتال وأقوى عصابة في أوروبا كلها. اسمعني الآن! سترسل أي أمتعة تريد أخذها مع رسول تثق به الليلة إلى محطة فيكتوريا، دون أن تعطيه عنوانًا محددًا، وفي الصباح سوف ترسل في طلب عربة أجرة، واطلب من رجلك الذي ستكلفه بهذا الأمر ألا يأخذ أول عربة ولا ثاني عربة تقف له، عندما تصلك العربة ستقفز إليها مباشرةً، وستأخذها إلى نهاية طريق مركز لوثر من ناحية طريق ستراند، ستعطي سائق العربة العنوان مكتوبًا في قصاصة ورقية، وتطلب منه ألا يرمي الورقة، جهز أجرتك وأعطِها للسائق لحظة وقوفه مباشرةً، وأسرع داخلًا إلى المركز، وضع في اهتمامك أن تخرج من الناحية المقابلة من المركز في الساعة التاسعة والربع، هناك ستجد عربة صغيرة في انتظارك بالقرب من حافة الرصيف، يقودها شخصٌ يرتدي معطفًا أسود ثقيلًا به شريط أحمر عند العنق، ستدخل في هذه العربة وستصل إلى محطة فيكتوريا في الوقت المناسب للقطار القاري السريع.

– وأين سأقابلك؟

– في المحطة، ثاني عربات الدرجة الأولى من المقدمة، ستكون محجوزة لنا.

– العربة مكان لقائنا إذن؟

– أجل.

ألححت على هولمز حتى يبقى تلك الليلة عندي، لكن بلا طائل، كان مؤمنًا أنه سيجلب المتاعب للسقف الذي سينام تحته، وهذا ما دفعه إلى المغادرة، انطلقنا إلى الحديقة وهو يقول لي كلماته الأخيرة عن خططنا لليوم التالي، ثم تسلق الحائط الذي يؤدي إلى شارع مورتيمر، وسمعته يصفر لعربة أجرة على الفور، وينطلق فيها مسرعًا.

وفي الصباح تبعت تعليمات هولمز بحذافيرها، طلبت عربة بالاحتياطات التي أملاها عليَّ، خشية أن تكون عربةً ترصدني من قِبَل أحدٍ ما، انطلقتُ مباشرة بعد تناول الإفطار إلى مركز لوثر، حيث هرولت خلاله بأسرع ما استطعت، وكانت هناك عربة صغيرة في انتظاري عندما خرجت، مطابقةً للمواصفات التي أعطاني إياها هولمز، وما إن ركبت فيها حتى ضرب السائق الحصان بالسوط لننطلق إلى محطة فيكتوريا، وما إن نزلتُ حتى استدار بالعربة وانطلق مسرعًا دون أن ينظر حتى ناحيتي.

كل شيء سار سيرًا ممتازًا حتى تلك اللحظة، كانت أمتعتي في انتظاري، ولم أجد أي صعوبة في العثور على العربة التي وصفها لي هولمز، وكان الأمر أسهل حتى لأنها كانت العربة الوحيدة الموضوع عليها إشارة «محجوز»، الشيء الوحيد الذي أقلقني في تلك اللحظة كان عدم ظهور هولمز، كانت ساعة المحطة تشير إلى أنه تبقى سبع دقائق فقط على تحرك القطار، بحثت دون أي جدوى عن هولمز بين كل المسافرين في المحطة، كل القادمين والمغادرين، بحثت بينهم عن جسد صديقي النحيل، لم يكن هناك أي أثر له، قضيت بضع دقائق أساعد راهبًا إيطاليًّا يحاول أن يشرح لموظف التذاكر بلغته الإنجليزية الضعيفة، أن أمتعته ستشحن له في باريس، ثم بعدها حاولت أن ألقي نظرة أخرى في الأرجاء، ثم عدت إلى عربتي حيث وجدت أن قاطع التذاكر قد جعل الراهب الإيطالي الهرم رفيقي في العربة، لم يكن هناك أي فائدة من أن أشرح له أن وجوده في هذه العربة كان تدخلًا غير مرحب به، ولأن لغتي الإيطالية كانت محدودة أكثر من إنجليزيته، فاكتفيت بأن هززت كتفي في استسلام متقبلًا الأمر، وأكملت محاولتي للبحث عن صديقي، أصابتني قشعريرة عندما جال بعقلي أنه ربما قد حدث شيء ما لصديقي في الليلة السابقة، كانت كل الأبواب قد أُغلقت، وانطلقت صفارة القطار، عندما سمعت صوتًا يخاطبني:

– عزيزي واتسون، أنت لم تكلف نفسك حتى عبء أن تقول صباح الخير.

فاستدرت في دهشة جامحة، لأجد رجل الكنيسة الهرم موجهًا وجهه نحوي، وللحظة اختفت تجاعيد أنفه، وابتعد أنفه عن ذقنه، وعادت الشفة السفلى التي كانت متدلية مكانها، وتوقف فمه عن الارتعاش، واستعادت عيناه شرارتهما وحماسهما، وانتصب جسده المتهالك، وفي اللحظة التالية عاد كل شيء كما كان، واختفى هولمز بالسرعة نفسها التي ظهر بها.

فصرخت:

– يا إلهي! كم أربكتني!

فهمس قائلًا:

– ما زال من الضروري أن نأخذ كل احتياطاتنا، لديَّ أسباب تجعلني أصدق أنهم ما زالوا يتعقبوننا، آه! ها هو موريارتي بنفسه.

كان القطار قد بدأ يتحرك بالفعل في أثناء حديث هولمز، لكنني استطعت أن ألقي نظرة سريعة إلى الخلف، ورأيت رجلًا طويلًا غاضبًا يدافع الناس في الزحام، محاولًا التقدم ناحية القطار، ويلوح بيده كأنه يريد من القطار أن يتوقف، لكنه كان متأخرًا جدًّا، فقد كنا بالفعل ننطلق، وفي اللحظة التالية كنا قد غادرنا المحطة بالفعل.

قال هولمز ضاحكًا:

– على الرغم من كل احتياطاتنا، بالكاد استطعنا أن نفعلها كما رأيت.

ثم اعتدل في جلسته وخلع ملابس الكهنة والقبعة التي كان يرتديها للتخفي، ووضعها في حقيبة يده.

– هل رأيت جريدة الصباح يا واتسون؟

– لا.

– ألم ترَ الأخبار عن شارع بيكر؟

– شارع بيكر؟

– لقد أشعلوا النيران في مسكننا ليلة أمس، لكن لم تقع خسائر كبيرة.

– يا إلهي! هذا فظيع يا هولمز!

– لم يستطيعوا تعقبي إطلاقًا بعد اعتقال الرجل الذي اعتدى عليَّ بالعصا، وإلا لما تخيلوا أنني قد عدت إلى منزلي، لكن من الواضح أنهم أخذوا احتياطاتهم وكانوا يراقبونك، وهذا بالتأكيد ما أحضر موريارتي إلى محطة فيكتوريا، لم تهفُ أي هفوةٍ في أثناء قدومك؟

– فعلت بالضبط ما قلته لي.

– هل وجدت العربة الصغيرة كما وصفت لك؟

– أجل، لقد كانت في انتظاري.

– هل عرفت مَن السائق؟

– لا.

– لقد كان ذلك أخي مايكروفت، من الجيد أن تكون قادرًا في مثل هذه الحالات ألا تعتمد إلا على أشخاص تثق بهم شخصيًّا، لكن علينا الآن أن نخطط ماذا سنفعل تجاه موريارتي.

– نحن على متن القطار السريع، وبمقارنة سرعته بسرعة البواخر فأظن أننا تخلصنا منه بالفعل.

– عزيزي واتسون، يبدو أنك لم تفهم تمامًا ما كنتُ أعنيه عندما قلت لك إن ذلك الرجل يمكن عده في مستوى ذكائي نفسه، ألا تتخيل أنني لو كنت المتتبع ما كنت لأستسلم لمثل هذه العقبة الصغيرة، لماذا إذن تفكر فيه بهذه السذاجة؟

– وماذا سيفعل؟

– ما كنت سأفعله أنا.

– وما الذي كنت ستفعله أنت؟

– أستأجر عربة بخارية.

– لكن الوقت متأخر جدًّا على ذلك.

– هذا ليس صحيحًا على الإطلاق، هذا القطار يتوقف في كانتربيري، وتوجد دائمًا على الأقل ربع ساعة تأخير، سيلحق بنا هناك.

– نبدو وكأننا نحن المجرمون، دعنا نعتقله عند وصوله هناك.

– هذا سيفسد عمل ثلاثة أشهر، إذا أمسكنا بالسمكة الكبيرة؛ سيهرب كل السمك الأصغر من الشبكة، يوم الاثنين سنمسك بهم جميعًا، لذلك، لا، لا يمكننا أن نعتقله الآن.

– ماذا إذن؟

– علينا أن نخرج من كانتربيري.

- ثم؟

- ثم ساعتها علينا أن نقوم برحلة عبر الأرياف إلى نيوهيفن، ومنها إلى دييب، موريارتي ثانيةً، سيفعل ما كنت سأفعله، سيذهب إلى باريس، وسينتظرنا عند حقائبنا في المستودع ليومين حتى نصل إلى هناك، أما في الوقت الحالي فيمكننا أن نمتع أنفسنا بشراء بعض الحقائب اليدوية الصنع، ونشجع صناعات البلاد التي نمر خلالها في رحلتنا، ونتابع رحلتنا إلى سويسرا من لكسمبرج وبيزل.

وبناءً على هذا الكلام نزلنا في كانتربيري لنجد أننا بحاجة إلى أن ننتظر ساعة قبل أن نأخذ قطارًا إلى نيوهيفن، كانت الأمور لا تزال تبدو مأساوية بعد الاختفاء المفاجئ لعربة شحن الأمتعة التي تحتوي على ملابسي، عندها شدني هولمز من كمي مشيرًا إلى سحابة دخان تسير موازية لخط القطار وتتجه ناحية المحطة:

- لقد شرفنا بالفعل، انظر.

وبعد دقيقة ظهرت في الأفق عربة يجرها محرك، تسير مسرعة في الحقول المفتوحة التي تقود إلى المحطة، بالكاد كان هناك وقت لنختبئ خلف كومة من الأمتعة، قبل أن تمر العربة بجوارنا بحشرجة وصخب المحرك، دافعة نفخة هواء ساخن في وجوهنا.

قال هولمز:

- ها قد مر.

ثم استطعنا أن نرى العربة من خلف الأمتعة وهي تمر مبتعدة عنا بالقرب من الرصيف.

- ذكاء صديقنا محدود في النهاية كما ترى، كان يمكنه أن يسدد لنا ضربة قاضية لو فكر فيما يمكنني استنتاجه، وتصرّف بناءً عليه.

- وماذا كان سيفعل حين يعثر علينا؟

- لا يوجد أي شكٍ أنه كان سيهجم عليَّ هجومًا قاتلًا، لكن هذا الأمر لن يكون في يده وحده، فأنا أيضًا ستكون لديَّ فرصة مماثلة إذا حاول، السؤال الآن هل نأكل غداءً مبكرًا قبل أن ننطلق، أم نغامر باحتمالية الجوع في الطريق ونأكل في نيوهيفن؟

انطلقنا إلى براسلز تلك الليلة وقضينا يومين هناك، وتحركنا في اليوم الثالث إلى ستراسبيرج، وفي صباح يوم الاثنين أرسل هولمز برقية إلى شرطة لندن، وفي المساء كان رد منهم ينتظرنا في الفندق، فتحها هولمز ثم رماها في القمامة وهو يطلق لعنات مريرة، ثم قال في حنق:

- كان يمكنني أن أعرف ذلك! لقد هرب!

- موريارتي؟

- لقد قبضوا على العصابة كلها ما عدا هو، لقد أفلت منهم، في الحقيقة عندما تركت المدينة لم يكن هناك أحد ليتصدى له، لكنني ظننت أنني تركتهم بكل نقاط القوة في أيديهم، أظن أنه من الأفضل أن تعود إلى إنجلترا يا واتسون.

- لماذا؟

– لأنني سأكون رفيقًا خطِرًا عليك الآن، لقد خسر ذلك الرجل وظيفته، وسينتهي أمره إذا عاد إلى لندن مرة أخرى، وإذا كنتُ مصيبًا في قراءة شخصيته فإنه سوف يكرس كل جهوده للانتقام مني، لقد قال ذلك حتى في مقابلتنا القصيرة معًا، وأظن أنه كان يعني ما قال، أنصحك بشدة أن تعود إلى وظيفتك الآن يا واتسون.

لم يكن هذا التحذير كافيًا على الإطلاق مع شخص كان مخيمًا قديمًا ومعتادًا على مثل هذه الأجواء، إضافة إلى كوني صديقًا قديمًا له، جلسنا في أحد المطاعم نتناقش في الأمر لمدة نصف ساعة، لينتهي بنا الأمر بأن تحركنا في الليلة نفسها ووصلنا إلى جينيفا.

ولمدة أسبوع كان في غاية البهجة، تنقلنا في وادي الرون، ثم انحرفنا من هناك إلى يوك، ثم أكملنا طريقنا عبر جبل جيمي باس، كل ذلك وسط الثلوج، ثم أخذنا طريقنا إلى ميرينجن.

كانت رحلة لطيفة، وبدأ خضار الربيع يتفتق من بياض ثلوج الشتاء، لكنني كنت ألاحظ طوال الوقت أن هولمز لم ينسَ ولو للحظة، الظل الذي يخيم علينا طوال الرحلة، حتى في القرى الودودة في جبال الألب وفي الطرق الجبلية الموحشة، كنت ألاحظه ينظر بتوجس في كل وجه يهمُّ بالقرب منا، لقد كان مقتنعًا تمام الاقتناع أنه مهما ابتعدنا فلن نستطيع أن نتخلص من الخطر الذي يتعقب خطانا.

حتى إنني أتذكر تلك المرة عندما كنا نعبر من خلال جبال الجيمي، وعندما وصلنا إلى الحافة الكئيبة القريبة من بحيرة دوبينسي، سقط حجر كبير، كان قد تزحزح عن يميننا وتدحرج إلى الأسفل نحو البحيرة، في اللحظة نفسها صعد هولمز إلى أعلى المنحدر حيث سقطت الصخرة ووقف على قمة تطل على المنحدر بأسره، وأخذ يدير رأسه في جميع الاتجاهات، وذهب مجهود مرشدنا سدًى في محاولة إقناعه أنه أمر طبيعي أن تسقط مثل هذه الصخور، في مثل هذا الوقت من السنة وفي هذا المكان، لم يقل شيئًا، لكنه نظر إليَّ وابتسم ابتسامة الرضا الذي يشعر به أحدنا عندما يشاهد وقوع ما كان يتوقعه.

ومع كل هذا الحذر الذي أبداه لم يكن صديقي هولمز مكتئبًا في تلك المدة قط، بل على العكس تمامًا، أنا لا أتذكر أنني رأيته بمثل هذه الروح المنطلقة مطلقًا، كان يذكر مرارًا وتكرارًا أنه إذا استطاع أن يخلص المجتمع من السيد موريارتي، فإن هذا سيكون نهاية مفرحة لحياته المهنية.

أذكر أنه علَّق في مرة قائلًا:

– أظن يا واتسون أنه يمكنني القول إنني لم أعِش عبثًا إذا أُغلق ملفي الليلة، بل ويمكنني أن أطالعه بشيء من الرضا، فقد صار هواء لندن ألطف بوجودي، في أكثر من ألف قضية لا أتذكر أنني استخدمت قدراتي ولو لمرة في الجانب الخطأ، وصرت مؤخرًا مهتمًّا أكثر بالنظر في المسائل التي تعرضها الطبيعة، بدلًا من تلك المسائل السطحية التي تخلقها حالة مجتمعنا غير السوية، ستنتهي مذكراتك هذه يا واتسون في اليوم الذي أُقبض فيه أو أقضي فيه على المجرم الأخطر والأقوى في أوروبا كلها.

عليَّ أن أوجز دون أن أتخلى عن الدقة في القليل المتبقي الذي أرغب في قوله، هذا ليس موضوعًا كنتُ لأتحدث فيه في العادة، لكني أعرف أن الضرورة تحتم عليَّ ألا أمحي أي تفاصيل.

لقد كان يوم الثالث من مايو، عندما وصلنا إلى القرية الصغيرة ميرينجن، حيث نزلنا في فندق إنجلشر هوف، الذي كان يديره حينها بيتر ستيلير الأكبر، مالك الفندق كان رجلًا ذكيًّا، يتحدث الإنجليزية

بطلاقة، بحكم أنه عمل خادمًا في أحد المطاعم في لندن لمدة ثلاث سنوات. بناءً على نصيحته انطلقنا معًا بعد ظهيرة اليوم الرابع من مايو، كانت خطتنا أن نعبر التلال، وأن نقضي الليلة في نجع روزينلوي، لكن كانت لدينا تعليمات صارمة ألا نعبر شلالات ريشينباخ -التي تقع في منتصف التل- دون أن نأخذ جولة صغيرة لمشاهدتها.

إنه حقًّا مكان مخيف، منظر الماء والجليد وهو يهوي من المجرى إلى أسفل الهاوية السحيقة، التي يصعد منها رذاذ الماء، يبدو كدخان يتصاعد من منزل محترق، الحافة التي يتدفق منها ماء النهر عبارة عن فجوة ضخمة محفوفة بصخور لامعة سوداء كالفحم، وتضيق حتى تصل إلى هوة صغيرة ضيقة بعمق لم أرَ له مثيلًا من قبل، يقفز الماء من هذه الهُوَّة الضيقة ويندفع إلى الأمام عبر شفة خشنة، هذا الماء المسترسل الأخضر لا يتوقف عن الهدير في أثناء انحداره لأسفل، يمكنه أن يُفقد المرء صوابه بسبب صخبه وحركته اللذين لا ينتهيان، وقفنا على الحافة نحدق إلى أسفل في سطوع الماء الجاري فوق الحجارة السوداء في الأسفل بعيدًا جدًّا عنا، واستمعنا إلى الصرخة النصف آدمية التي شقت طريقها إلينا عبر الدخان المتصاعد من أسفل الهاوية.

كان طريقنا يحتوي على نصف دورة حول الشلال لنستطيع مشاهدة المنظر من جميع الاتجاهات، لكن ذلك الطريق ينتهي فجأة، ويصبح على المسافرين العودة من حيث أتوا، كنا قد استدرنا لنأخذ طريق العودة عندما رأينا شابًّا سويسريًّا يجري نحونا يحمل في يده رسالة، كان عليها ختم الفندق الذي غادرناه للتو، وكانت هذه الرسالة لي من صاحب الفندق. ومما اتضح لي من الرسالة أن سيدةً إنجليزيةً نزلت إلى الفندق بعد دقائق من خروجنا، وكانت في المرحلة الأخيرة مع مرض السل، آتية من دافوس بالتس، وكانت في طريقها لتنضم إلى أحد أصدقائها في لوسيرن، عندما تعرضت لنوبة مفاجئة، كانوا يظنون أنها بالكاد ستصمد لعدة ساعات، وكان سيساعدها كثيرًا أن يكون هناك طبيب إنجليزي للنظر في حالتها، وأنه سيكون من كرم خُلُقي أن أتفضل بالمجيء وأشياء من هذا القبيل، وأضاف الرجل الطيب ستيلير بنفسه في جزء ألحقه بالرسالة، أنه سيكون ممتنًّا جدًّا بشكل شخصي، إذا تمكنت من العودة، وأنه سيعدُّ ذلك جميلًا شخصيًّا، لأن السيدة لم ترضَ أن تُعرَض على طبيب سويسري، ولأنه يشعر أنه يتحمل مسؤولية ضخمة.

كان ذلك طلبًا لا يمكن تجاهله، كان من المستحيل رفض نداء رفيقة إنجليزية تحتضر في بلاد غريبة، لكن في الوقت ذاته كانت لديَّ تخوفاتي من ترك هولمز وحيدًا، وافقنا في النهاية أن الفتى السويدي سيظل معه مرشدًا ومرافقًا، حتى أتمكن أنا من العودة من الفندق في ميرينجين، وقال لي إنه سيبقى قليلًا بالقرب من الشلال، ثم سيمشي ببطء عبر التل باتجاه روزينلوي حيث سألحق به مرةً أخرى في المساء. بينما كنت أبتعد عنهما استدرت ورأيت هولمز مريحًا ظهره إلى حجر ومحدقًا إلى الماء المنهمر من الشلال، وكانت تلك آخر مرة أراه فيها في هذا العالم.

عندما كنت بالقرب من نهاية طريق النزول نظرت إلى أعلى، وكان من المستحيل رؤية الشلال من ذلك المكان، لكنني كنت أرى الطريق المنحني الذي يقطع التل مؤديًا إليه، وفي ذلك الطريق كان هنالك رجل يمشي مسرعًا للغاية على ما أتذكر.

يمكن أن يكون قد مر أكثر من ساعة بقليل حين وصلت أخيرًا إلى ميرينجين، وكان ستيلير يقف في مدخل الفندق، فاندفعت نحوه مسرعًا وقلت له:

– حسنًا، أتمنى ألا تكون حالتها قد ازدادت سوءًا.

فارتسمت على وجهه علامات الدهشة، ومع أول هذه التعبيرات التي ارتسمت على وجهه تجمد قلبي في صدري.

فأخرجت الرسالة من جيبي وقلت له:

– أنت لم تكتب هذا؟ ألا يوجد أي امرأة إنجليزية مريضة؟

فصاح:

– بالطبع لا! لكن عليه ختم الفندق!

ثم فكر لوهلة ثم استكمل قائلًا:

– آه، لا بد أن ذلك الرجل الإنجليزي الطويل الذي جاء بعد انطلاقكما هو من كتبها.

لم أنتظر لأسمع أي تفسيرات أخرى منه، كنت أجري في طرقات القرية أرتعش من الخوف، أصعد الطريق نفسه الذي نزلته منذ قليل، لقد استغرقت ساعة في النزول، وعلى الرغم من كل مجهوداتي فإنني كنت عند شلال ريشينباخ من جديد بعد مرور ساعتين أُخريين، كانت عصا هولمز الألبية ما زالت تستند في مكانها نفسه إلى الصخرة التي تركته عندها، لكن لم يكن له أي أثر، ولم تُجدِ محاولاتي للنداء عليه أي نفع، لم يردَّ عليَّ أي أحد إلا صدا صوتي الذي كان يعود إليَّ من المنحدرات المحيطة بي.

كان منظر تلك العصا الألبية هو أكثر ما أثقلني وفطر قلبي، وجودها يعني أنه لم يذهب إلى روزينلوي إذن، ولا بد أنه ما زال هنا في الطريق الذي لا يتجاوز عرضه المتر، بحائط من جانب وانحدار هائل من الجانب الآخر حتى أدركه عدوه، ولم يكن هناك أي أثر للشاب السويسري أيضًا، لقد تلقى في الأغلب مالًا من موريارتي ليوصل إلينا الرسالة، ثم تركهما معًا، لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ من سيخبرنا ما حدث بعد ذلك؟

وقفت لدقيقة أو دقيقتين أحاول أن أستجمع أعصابي، مدهوشًا من هول الصدمة، ثم بدأت أحاول استخدام طرق هولمز نفسها في قراءة هذه المأساة، وقد كان الأمر –للأسف– سهلًا للغاية. في أثناء محادثتنا لم نذهب إلى آخر الطريق، وكانت العصا الألبية في المكان نفسه الذي وقفنا فيه، والتربة حولها رطبة طوال الوقت بسبب الرذاذ الموجود في الجو من الشلال، وحتى طائرٌ كان سيترك آثاره عليها، كان هناك آثار خُطا شخصين واضحة ومتجهة إلى الناحية المبتعدة عني من الطريق، كلاهما كانا يسيران في الناحية نفسها، ولم يكن هناك أي آثار عائدة، على بعد بضعة أمتار مني كانت التربة مخلوطة تمامًا في كومة من الوحل، وكانت فروع الشجيرات التي تعلو الهاوية مقطعة ورثَّة وغارقة، جلست وحاولت أن أحدق حولي لأرى أي شيء من خلال الرذاذ المتطاير في الجو حولي، كان الجو مظلمًا عما تركته، وكل ما استطعت رؤيته حينها هو لمعان الرطوبة على الحوائط السوداء، وهناك بعيدًا جدًّا في أسفل الشلال أرى لمعان المياه الجارية، صرخت ولكن من جديد.. لم أسمع إلا رد الشلال النصف آدمي في أذني.

لكن كان المقدر أن أتسلَّم آخر كلمة وداع من صديقي ورفيقي. قلت من قبل إن عصاه كانت مسنودة إلى الصخرة التي كان يستند إليها في الطريق، لمحت لمعان شيء ما من الجزء العلوي من قبضة العصا، عرفت أن هذا اللمعان آتٍ من علبة سجائره الفضية التي كان يحملها دائمًا، وعندما التقطتها سقطت منها قطعة صغيرة من الورق، ورفرفت حتى استقرت أمامي على الأرض، وحين فتحتها وجدت أنها تتكون من ثلاث صفحات مقطوعة من دفتره، وموجهة لي، لقد كان من عادة الرجل أن تكون تعليماته في غاية الدقة، وكتابته في غاية الإحكام، كأنه كتبها في أثناء دراسته، وجاء فيها:

«عزيزي واتسون..

أنا أكتب لك هذه السطور القليلة من لباقة السيد موريارتي، الذي ينتظر حتى يكون الوضع ملائمًا لنخوض نقاشنا الأخير بشأن الأسئلة الكامنة بيننا، لقد شرح لي سريعًا الطرق التي استطاع من خلالها أن يتهرب من الشرطة الإنجليزية، وأن يبقى على دراية بتحركاتنا، وما علمته منه يؤكد رأيي الذي كونته عنه وعن مدى ذكائه، يسعدني التفكير في أنني يمكنني أن أُخلِّص المجتمع من آثاره ومن أي وجود له، على الرغم من أسفي أن ثمن ذلك سيكون مؤلمًا لأصدقائي، وبالذات لك أنت يا عزيزي واتسون، لكنني أظن أنني قد شرحت لك من قبل يا واتسون أن حياتي المهنية قد وصلت إلى نهايتها، وأنه لا توجد لها نهاية ملائمة أكثر من هذه النهاية. في الحقيقة إذا كان بوسعي أن أقدم لك اعترافًا صريحًا، لقد كنت مقتنعًا تمامًا أن الرسالة التي جاءت من الفندق كانت ملفقة، وقد تركتك لتذهب في تلك المأمورية ظنًّا مني أن تطورًا مثل هذا قد يحدث، أَخبِر المفتش بيترسون أن الأوراق التي يحتاج إليها لإدانة العصابة موجودة في بيجنهول، مجموعة في ملف أزرق مكتوب عليه «موريارتي»، لقد اتخذت كل الإجراءات اللازمة للتخلص من كل ممتلكاتي قبل مغادرة إنجلترا، وأعطيتها جميعًا إلى أخي مايكروفت، أرجو أن توصل سلامي إلى السيدة واتسون، وصدقني، أنت رفيقي العزيز.

بكل الإخلاص.

شيرلوك هولمز».

القليل من الكلمات تكفي لإخبار ما تبقى، توصل الفحص الذي أجراه الخبراء إلى أن النِّزال بين الرجلين انتهى بتدحرجهما معًا، في حين كان يمسك كل منهما الآخر، وفي الحقيقة كان من الصعب أن ينتهي بأي طريقة أخرى في مثل ذلك المكان، كل المحاولات للعثور على الجثتين باءت بالفشل، وهما الآن هناك، عميقًا في دوامات تلك المياه الباردة، وتحت زبدها الهائج، وستظل جثة أكثر المجرمين خطرًا في التاريخ، وجثة أبرز رجال العدالة في التاريخ قابعتين هناك إلى الأبد، لم يُعثَر على الشاب السويسري مرة أخرى، ولا شك في أنه واحد من العملاء الكثر الذين كانوا تحت إمرة موريارتي، وبالنسبة إلى العصابة فسيظل محفورًا في ذاكرة الرأي العام كيف فضحتهم الأدلة التي قدمها هولمز ضدهم تمامًا، وكيف أن كل أفعال الرجل الميت أثقلت حكمهم أكثر، لم يُعرف إلا القليل من التفاصيل عن الأفعال الشريرة التي قامت بها العصابة في أثناء الإجراءات التالية، وإن كنت الآن مضطرًا أن أقدم شهادة عن مسيرته العملية، فهذا بسبب أولئك الجهال الذين حاولوا الدفاع عن المجرم بمهاجمة الرجل الذي سيظل دائمًا في نظري أفضل وأحكم رجل عرفته في حياتي.